



أمير تاج السر

توتيرات القبطي

مكتبة نوميديا 60

Telegram@ Numidia_Library

رواية

توترات القبطي

The Coptic Tensions

Novel

رواية

أمير تاج السر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9948-446-03-3

جميع الحقوق محفوظة للناسر

ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

أبوظبي هاتف: 6345404 (+971-2) فاكس: 6345407 (+971-2)
دبي هاتف: 2651623 (+971-4) فاكس: 2653661 (+971-4)
بيروت هاتف: 786233 (+961-1) فاكس: 786230 (+961-1)

إن دار ثقافة للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف. وتعتبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء الدار.

للتصديق وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

إلى محمد سليمان وهاشم الجدلي

هذا النص رواية وليس تاريخاً.. لذا لزم التنويه.

الحياة لعوبه

والهوى أكذوبه

والذي في قلبي

ضحكة مثقوبه

(من أغنية الضالعات)

الفصل الأول

وصف أوّل للجمر

- تعال يا سعد.. تعال يا مبروك.

ناداني الأمير عبّادي طلسم، قائد كتيبة الجهاديين التي عيّنت فيها طبائخاً منذ عشرين يوماً فقط، إلى خيمته التي كانت تبعد قليلاً عن خيام الجند المبعثرة في أحد أطراف مدينة (السور) الواقعة في غرب البلاد، والتي كانت في يوم من الأيام مدينتي التي ولدت فيها، عشت فيها سنوات الخصب كلها، وفقدتها.

كان يتصنع محبتي من دون أن أفهم لذلك سبباً، وأنصنع محبته، خوفاً من تقلبات وجهه الرهيبة، ونار عينيه الحارقة، وسوطه المصنوع من جلد ثور معمر، والذي شاهدته بعيني في أحد الأيام، يخرج من ظهر جندي متمرد من جنود الكتيبة، وفي حوافه لحم أحمر. هو الذي انتقاني بنفسه من زمرة أذلاء المدينة كلها، حين سقطت بعد ثلاثة أشهر من الحصار المر، وعرض سكانها من اليهود والنصارى وهنود البنيان، وكل من صنف عاصياً، أو ذليلاً للكفر والإلحاد، في وسط السوق الكبير، ليركلهم أو يشتمهم أو يمتطي لحم نسائهم السبايا من أراد. هو الذي أشرف على ختاني الصعب الذي مت فيه وحييت، على يد واحد من مجندي الكتيبة غير المؤهلين لإجراء الختان، درّني على شعائر الدين الجديد، وترديد الهتافات والتهليل، واستخدام السيف والحربة والدرع وحتى بنادق الإفرنج، حين يأتي وقت استخدامها. سمّاني سعد المبروك من دون علمي أو رضائي، ملغياً اسم (ميخائيل) الذي عمّدت به في

الطفولة على يد القس المصري (طوني العفريت) راعي شؤون النصارى في المدينة، كبرت وتعلمت وتوظفت به، وكنت على وشك أن أمنحه باطمئنان، لأبنائي القادمين من صلبى، ورماني مع ستة آخرين من منهوكي القوى، وفئات القبائل، في خيمة الطبخ الملحقة بخيام الكتبية، نقوم ونقع ونتبعثر ليل نهار، لنعد وجبات الطعام لأكثر من خمسمائة فرد مسعور، كانوا هم جنود كتبية (صقور)، أهم الكتائب العشر التي كرمها الجهاديون، ويتولى الأمير (طلسم) قيادتها.

لم تكن من عادة القائد أن يمر على خيمتنا حين يتفقد بقية الخيام ليتأكد من ثبات جنوده وبقائهم على عهد الجهاد وتمسكهم بريح الجنة، باعتبارها خيمة ثانوية، ولم يكن صوته العميق يستخدم أبداً في مناداة طباخ هزيل أو جندي مغمور من جنوده، وكنت الوحيد الذي سمح له بمعرفة وقت جوعه، وعدد ملاعق الثريد وأقراص الذرة والقمح، التي يجب أن توصل ذلك الجوع إلى الشعب. وبالرغم من أنني كنت محاسباً مرموقاً في مجلس المدينة قبل سقوطها المريع، ومستولاً مباشراً عن ثروات الحكومة، ووجوه جمعها وإنفاقها، ولا دراية لي بالطبخ أبداً، إلا أنني استسلمت لذلك القدر القاحل المخيف، تأقلمت معه بشدة، ووجدت نفسي بعد عدة أيام من خلط الملح بالسكر، وإضافة الشعير إلى أقراص الذرة التي لا يضاف إليها الشعير عادة، وصناعة ثريد بطعم الطين، طباخاً حقيقياً، يمكن أن يعد وجبات الحرب بكل بذاءتها ووعورتها، وركاكة طعمها، من دون أية رهبة أو خوف.

تركزت أقراص القمح والذرة تتعارك مع النار، مرق الثريد يغلي ويتبخر، ودهشات كبيرة في عيون زملائي الطباخين من ذلك النداء المباغت وغير المألوف، وأسرعت خلفه.

كانت خطواته كبيرة وممتدة، ذيل عمامته يلحس الرمال ويصقها أمامي، ثوبه الأخضر يبدو باهتاً وفيه رقع كثيرة، وكان الجنود مبعثرين في وسط الخيام، يصفقون سيوفهم وحراهم على صخور مديبة، جلبت من الجبال البعيدة، وزرعت في وسط الرمال، يتأكدون من صلابة دروعهم المصنوعة من الخشب والنحاس والحديد، بضرها بعضها ببعض، أو يعلمون قلوبهم الثبات بعراك أنفسهم بالأيدي والأرجل ونطح الرؤوس، وهم يتصايحون، ويرددون أغنيات الحماس الفجة. وفي طرف بعيد من المعسكر، كانت الإبل والجياد والحمر، وقطعان الخراف والماعز، ترعى في بقايا حشيش خريفي، ثمة مدفعان رابضان على دكة عالية، وعدة براميل من البارود وسيوف وحرا مكمسة، وبنادق، لا بد كانت من غنائم المدينة التي حوصرت وسقطت. والمدينة نفسها كانت تبدو كحلم بعيد، بالرغم من وجود معسكرنا في أحد أطرافها.

كنا في حالة حرب بلا شك، حرب لم اخترها أنا، ولا سكان مدينة (السور) الوداعة بأعراقها المختلفة، وسائر المدن والقرى الأخرى، لكنّها اختارتنا، لم نخترع نيرانها، لكنّها اخترعت تشردنا، ومنذ أن اندلعت ثورة الهدى كما كانوا يسمونها، ضد حكام البلاد من الإنجليز ومن والاهم من الأتراك والمصريين، وحاصرتنا بالخوف والهلع، ثم انقضت على المدينة بعد أن جاعت وتعبت، وخارت قواها، ونحن في حالة حرب. لا حكم راسخ حتى الآن، يرتب الجوع والشبع، ويلم تلك الفوضى، ولا مصير بأي لون أو طعم تحس أنه مصيرك. كان الجهاديون عراة وحفاة حين حاصرونا، حين التهمونا، جاءوا من قرية (أباحيت)، إحدى القرى المنسية على النيل، حيث ظهر من سمي بالإمام (المتقي) مبشراً أتباعه بعهد جديد بلا ظلم، وبلاد جديدة بلا كفر أو طغيان، وثوابين، ثواب في الدنيا، والآخرة، وجروا في زحفهم عشرات

القبائل حين ذكروا قراها، وبعثروا زراعتها ورعيها، وأطعموها الموت،
أو الهدير الذي سيدك الكفر عاجلاً أم آجلاً، ومهما كان قوياً وباطشاً.
دخلت إلى الخيمة خلف القائد الكبير، وفي قلبي توجس لم
أستطع قهره، كانت كبيرة بعض الشيء ومرتبة، ثمة بروش من سعف
الدوم مفروشة على الأرض، عدة وسائد من الريش فيها ثقوب ظاهرة،
إبريقان من الفخار ممتلئان بالماء، عدة سيوف ودروع وحراب وأثواب
مرفّعة، وموقد من مواقد الجاز يستخدم في إنارة الليل. جلس القائد
على أحد البروش، انتزع عمامته من رأسه ووضعها بجانبه، وبانت
تفاصيل رأسه الذي كان كبيراً جداً، وبلا شعر، وحين التفت إلى في
وقفتي المرتبكة، كانت عيناه جمرتين، لكنهما شبه منطفئتين.. سألني:

- هل تعلمت التكبير جيداً يا سعد؟

- نعم يا سيدي.

- والوضوء؟

- كما علّمتني سيدي.. غسل اليدين حتى المرفقين...

الاستنشاق.. الاستنثار.. المضمضة..

- جيد.. جيد.. كم سورة من القرآن حفظت حتى الآن؟

- ست سور يا سيدي.

- قليل.. قليل جداً..

زجر القائد بصوته الذي كان كأنه يخرج من كل بقعة في جسده
العريض، صوت القيادة التي لا أدري كيف اكتسبها، صوت الحرب
غريبة الأطوار التي خاضها ويخوضها، وصوت قبيلة (الفولاني) المنتشرة
في قرى كثيرة حول المدينة، والتي كان ينحدر منها بمجدارة وتعرف
بأجسادها العريضة وأصواتها المجلجلة، جاس بعينه الجمرتين برهة في
الخيمة الواسعة، كأنه يبحث عن شيء، وخمنت أنه السوط الذي

ينغرس في اللحم، ويتنزعه من عرقه.. لكن السوط لم يكن موجوداً، أو لم يكن واضحاً أمام ناظري في تلك اللحظة، وبرغم ذلك أحسست بالتوتر، ييس رقيقي، وتسارع قلبي، وحامض مر تجمع في صدري. كانت عشرون يوماً فقط تلك التي قضيتها في صحبة الكتيبة والدين الجديدين الذي اعتنقته، ولم تكن كافية أبداً لتعلم كل شيء ولا حتى ليبراً جرح الختان الذي ما زال يوجع كلما لامسته. حاولت أن أقول ذلك للقائد، فلم أستطع، حاولت أن أسترجع تلك السور التي حفظتها، حتى إذا ما سألتني أعدت قراءتها أمامه، لكنني لم أعثر عليها، بركت على ركبتي في مواجهته وأنا أرتعش، لكنه أنهضني بنظرة صارمة من جمر عينيه، كان صوته الآن، أقرب إلى الوهن حين خاطبني:

- هل ما زلت تهوى (خميلة)، ابنة الهالك منون؟

كان سؤالاً مربكاً للغاية، لم أكن أتوقع صدوره أبداً من قائد جهادي مرقع كعبادي طلسم، فجبني لخمييلة ابنة تاجر الذرة الغني (منون جماري)، ورغبتي في الزواج منها، كان أمراً راسخاً في مجتمع أقباط المدينة، قبل الحصار والسقوط، ولدي بعض معارفي القليلين، وزملائي من غير الأقباط في المجلس حيث أعمل، أو جيراني في الحي الذي أقيم فيه، التقيتها منذ أكثر من عام في عرس قبطني مزخرف أقيم على مسرح نادي (يوتويا) الذي كان ملتقى لأبناء مجتمع المدينة الراقي، وكانت قد عادت من مصر لتوها، بعد أن درست علم الجمال هناك وأرادت أن تزهو به في مدينة لا تعرف عن ذلك العلم شيئاً. كان في عينيها نداء شدي، وفي عيني نداء شدها، وتحايينا قبل أن يتبحر الليل، وينتهي العرس القبطني المزخرف. أهلها رحبوا بموظف أعزب ومتأنق، يدير ثروات الحكومة ويمكن أن يدير ثروتها الكبيرة فيما بعد، وأهلبي رحبوا بفتاة كان والدها من كبار تجار الشبوع وعلى صلة قوية

ليس بحكام المدن من المصريين والأتراك، حاملي لقب (البك) فقط، ولكن حتى بالإنجليزي حاكم البلاد العام وكثير من الوجهاء في مصر والدول المجاورة. أقمنا طقس الخطوبة على ذات مسرح (يوتوبيا) الذي شهد تلاقينا وحبنا وزخرفة أيامنا القادمة، ألبستها دبلة الحب الذهبية، وألبستني، ولم نحدد موعداً لقراننا بعد، ولا أظننا سنحدده أبداً، لأن أهلي ضاعوا في لجة الحرب، ولا أعرف مصيرهم حتى الآن، صهري المستقبلي منون جماري قتل في غزوة جهادية على مخازنه التي أنشأها أثناء الحصار، كانت تستهدف الذرة أكثر من استهدافها للكفر، وخميلة ذات العينين الدافئتين المشعنين، رأيتهما في سوق المدينة تبكي، وشهوات رهبة تحيط بجسدها الصغير، ناديتها.. يا خميلة.. يا خميلة.. فلم تلتفت، لكنّها ألفت بخاتم الذهب الذي أهديته إياها في عيد ميلادها العشرين، والتقطته خفية، اختفيت في زمرة من انتقاهم القائد طلسم، لأظل استرجع وجهها وبكاءها وأتحسس خاتمها في جيبي لعدة أيام بعد ذلك قبل أن أنسى وأدفن الخاتم في حفرة عميقة، بجوار إحدى الخيام الممزقة لمعسكر الكتيبة. لم أكن في رونق أو ثياب عاشق لأظل عاشقاً، ولم تكن في هيام معشوقة، لأعض على عشقها.

حين أوتني خيمة الطبخ بعد ذلك برفقة خمسة آخرين من المهمشين، وفتات القبائل الذين جمّعوا من الفوضى، عثرت على المراهق (حسون) الذي كان اسمه (توما) قبل الحصار والسقوط، أحد أفراد عائلة قبطية صغيرة فقدتها في اللجة أيضاً، ولا يعرف مصيرها، وأحقوه بسرية الطبخ معنا، لظهو الحساء وإيقاد النار والمساعدة في قهر الخراف ساعة ذبحها، صارحني (توما) الذي لم أكن وثيق الصلة به في السابق، ولم أره إلا نادراً بصحبة أبيه، حارس نادي (يوتوبيا)، بأنه كان عاشقاً لخميلة أيضاً، لكن بطريقة أخرى، هي طريقة المراهقين التي تتسم برداءة

الخيال، وتعزية المستترات من ثياهن في ليالي الهياج الغرائزي، وإنه طالما رسم قوامها على أوراقه المدرسية، وقضى معها أياماً وليال متوهمة، وأحس مراراً بمقتي وكراهيتي الشديدة، بعد أن أحببتها، وتقدمت لزواجها. بكينا أنا وتوما قليلاً قبل أن نصفح عن بعضنا البعض، ونستعاهد سوياً ألا نحب حميلة أو غيرها بعد اليوم، لا حباً مراهقاً، ولا حباً يسعى إلى رباط مقدس. وكان حلاً عادلاً لطباخين هزيانين، بطبخان بوهن لحرب لا يعرف أحد تماماً، لماذا اشتعلت، وكيف ومتى ستنتفئ. لكن برغم ذلك العهد ظلّت أشباح ذكرى تترأى لي بين حين وآخر، وأكاد أجزم أن توما أيضاً كانت له أشباح ذكرها الخاصة التي تستعر بين حين وآخر.

لم أكن أعرف إن كنت صادقاً أم لا، حين رفعت عينيّ الذابلتين إلى وجه القائد وتمتمت:

- لا يا سيدي.. لقد نسيتها.

لم يبد لي أن القائد كان راضياً عن إيضاحي، ولا شاهدت رأسه بهتز مؤمناً على ردي، أو فمه يهديني ابتسامة تبعثر القلق بداخلي.

كان (عبّادي طلسم)، قائد كتيبة صقور الجهادية، حمّالاً في سوق (أبي جهل) الشعبي في المدينة قبل اندلاع الثورة بزمان طويل، واحداً من الهامشين لا أزعج إنني صادفته في تلك الأيام، أو عرفته معرفة وثيقة، لكن قطعاً التقيته مراراً في مدينة يلتقي فيها الناس بلا عناء، أو كلفته بواحدة من تلك المهام التي كان ظهره القوي ينجزها بمقدارة، ولا بد أن (جماري)، صهري الذي ضاع في الغزوة الجهادية، كان يعرفه أكثر مني حيث ترتبط تجارته ارتباطاً وثيقاً بتلك المهنة، وحين بعثنا وأعيد ترتيب بقايانا في ذلك القطيع البشري المرتحف في وسط السوق الكبير، وجاء قادة الثورة وأمرأؤها، لتفحصنا وتقييمنا،

ولمنا كفنائهم، لكزني اليهودي (عوزي إيزاك) الذي كان واحداً من صياغ الذهب ذائعي الصيت في المدينة، وكان يقف بجانبني مبعثر الوجه والملامح، يكي نفسه، وزوجته (أم إيليا) التي انتحرت بالسّم قبل قيام الثورة بزمان طويل، لكزني وهو يشير إلى الرجل الطويل العريض الذي ترجل عن حصانه الأسود، وحوله عدد من حاملي السيوف والحراّب، شقّوا له طريقاً سلساً، إلى حيث قطيعنا المرتحف، وهم يصرخون..

يسقط الشرك.. يسقط الإلحاد:

- انظر يا ميخائيل بك.. إنه الحمال عبّادي طلسم الذي اختفى من سوق أبي جهل منذ عام، ويبدو أنه عاد واحداً من أمراء الجهاد. لم يكن الخبر جديداً عليّ أبداً، فقد سمعته قبل عدة أشهر من سقوط المدينة، في مقهى (خزي العين) الشهير، ومن صاحبه الملكة السنافه الحبيبة (نديمة مشغول)، ضمن عدد من الأخبار غير المألوفة، لذلك لم أكن مستغرباً أبداً حين التقت عيناى بعينه الجمرتين، وحين استخدم هو عينيه في تفحصي لأكثر من عشر دقائق، كأنه يستدعي أو يطرد موافقاً جمعتنا معاً، وحين أمر بضمي إلى كتيبته عاملاً في وحدة الطبخ، وهو يعرف قدرتي ومكانتي التي يعرفها الجميع، ولعله أمر أيضاً بضم (حميلة) إلى حياته الخاصة كغنيمة فارهة، لكنني لم أكن واثقاً.

- حدثني عن حميلة.. حدثني يا مبروك.

كان صوته بلا شك، وكانت رعدة كبيرة جاهدت حتى أخرجها مجرد ارتعاش في اليدين. كان القائد الحمال يريد مني ماضياً مدفوناً في القلب وإلى جوار خيمة ممزقة في الصحراء، ولن أعرف أبداً كيف استخرجه، لماذا حميلة، ولماذا الحديث عنها؟، ولماذا يربكني قائد جهادي بدا الآن لي هو أيضاً مرتبكاً حين ابتعد بعينه، بعثرهما في كل شيء

آخر داخل الخيمة، ما عدا وجهي وعيني. حميلة القديمة، دراسة علم الجمال، وزراعة الحب في مسرح يوتوبيا في ذلك المساء المزركش، لن يعثر بداخلي حتى على عطرها أو بقايا طيفها، وحميلة الجديدة التي ربما ترقد الآن تحت إمرته في واحد من بيوت السبايا داخل مدينة السور، يستطيع الحصول عليها متى أراد، من دون أسئلة أو أجوبة أو إرباك لطباخ هزيل. لماذا يسأل؟، ولماذا عليّ أن أجيب؟. تلك الساعة تمنيت لو كنت أنا الحرب، حتى أستعر في تلك الخيمة، لو كنت البارود، لأنفجر مدوياً، ولو كنت سيفاً حاد النصل في يد فارس مغوار، لأنفوس في ذلك الصدر العريض.

بقيت حائراً أتلفت، وبقيت عيناه تتبعران على كل شيء، ولا تحطان على شيء.

انبعث آذان الظهر فجأة من الساحة الكبيرة التي تتوسط الخيام، حي على الصلاة.. حي على الفلاح.. الله أكبر.. الله أكبر، ومن بعده صوت قوي يصرخ:

الصلاة يا مجاهدين.. الصلاة يا أهل الجنة..

فاستعاد القائد وجهه وعينه، وصوته العميق.. ردد:

- سأستدعيك فيما بعد يا سعد.. اذهب لتتوضأ.

خرجت من الخيمة، وفي فقرات عنقي ألم مباغت، في القلب ذكرى عاودت الظهور بشدة، ولدرجة فكرت فيها أن استعيد الخاتم المدفون من حفرة العميقة، أسميه حميلة جماري، احتضنه بقوة وبكي معاً. كان الجنود قد تركوا انشغالهم بطيف الحرب، رصوا سيوفهم وحراهم ودروعهم على أرض ملساء، وتجمعوا للصلاة، توما يغسل يديه من دم خروف مصروع أمام خيمة الطبخ، وينهض متورم العينين. اقترب مني (التقلاوي ديدام) الذي كان من قبيلة النوبة المستوطنة في

منطقة جرداء، جنوب (السور)، وعمل تحت إمري فرأشاً في مجلس المدينة لأكثر من عشر سنوات، واختفى بعد ليلة مهووسة مشتعلة، كنت موجوداً فيها وشاهدتها حتى انطفأت، لأشاهده في يوم السقوط، وسط الهدير رافعاً حربته السنية في وجهي، ثم بعد السقوط هنا في المعسكر، مساعداً شخصياً لقائد الجهاد، ومستشاراً خاصاً في أمور عدة. كان مزهواً بثوبه الأخضر المرقع، ومشيته الجديدة ذات الخطوات المنعّمة، وذلك السيف الفضي المدلى من خصره الأيمن، وكنت دائماً ما أتحاشى لقاءه الذي يأتي بموقعي القلدم وموقعه الجديد، ويزيد من ارتباككي وتوعكي، لكن لا مناص من اللقاء في تلك المساحة الجلفة، وفي جوف ذلك المصير الموحش، وبمساعدة القائد الذي يملك صلاحية الولوج حتى للأحلام.

كان مبتسماً عن أسنان تحتضن غصناً أخضر من سواك (الأراك)، تنز من ثيابه رائحة المسك، وهمس في أذني مستهزئاً:
- لم يكن عشاء الأمس جيداً يا ميخائيل بك.. اللحم نبيء والثريد بلا بهارات. اجتهد.. اجتهد أكثر.

طأطأت رأسي ومضيت، ورفع رأسه ومضى.
أديت صلاة الظهر في خشوع جاهدت أن أجعله خشوعاً حقيقياً، كنت قد بدأت أفتن بالدين الجديد بالرغم من أنني تلقيته من أناس بدا لي أنهم لا يفهمونه كما فهمته، ثمة عدل وتسامح، وتعاليم شديدة الرقي لم أكن أعرفها من قبل، أو لم أكن مستعداً لمعرفة برغم مخالطتي للكثيرين من حاملها، أمنا الشيخ (مفتاح الفلاح) الذي كان إماماً لجامع (السور) الكبير، وأقاله التركي (يوسف دامير)، حاكم المدينة الراحل، حين لم يعجبه أداؤه في خطبة الجمعة التي ألقاها أيام إرهابات الحرب، وأفاجأ بوجوده هنا وسط فوضويين، أعادوه إماماً

محدد الصلاحيات، كما كان دائماً. كان عن يميني معمم يميني اسمه (العلوي جبار القرنين) لا أدري من أين اقتنصه الجهاديون، أو كيف اقتنصهم، فلم أشاهده من قبل في المدينة التي لا يتقطع سيل الغرباء عنها، حيث يأتون للسياحة أو بحثاً عن الريح، أو بلا أي هدف محدد. كان صانعاً للدروع، ومروّضاً لخيال الحرب ذات الصهيل القوي، ونافخاً لآلة عصية على النفخ اسمها (الكارور)، نحتت من جذوع أشجار السنط اليابسة، وتستخدم في لم الجنود من تشتهم، حين لا بد أن يلتصقوا، وزار خيمتنا في مرات عديدة ليصنع وجبة (المقلوبة) اليمانية التي لم نكن نعرفها من قبل، وكان يهرها بيهار حار تدمع بملاسته العيون، يخرج من جيبه. عن يساري إعرابي من قبيلة (آل بطّاح) البدوية، التي ترحل في مناطق واسعة حول مدينة (السور)، اسمه (ودعة)، ويلقبونه بودة المصّاص، لم يكن جندياً ولا طبّاحاً ولا مهلاً أو مكبراً، ولكن معالجاً متخصصاً في تدليك تشنجات العضلات، وتحضير لبخات الجروح والحمى، ومص سم العقارب والثعابين التي تتكاثر في تلك الأصفاع، وتعيق شراسة الحروب في أحيان كثيرة، حين تفرس الدماء المحاربة.

وضع المصّاص يداً شديدة النحافة على كتفي حين انتهت الصلاة.. خاطبني بصوت لا يبدو خشناً، ولا يبدو ناعماً:

- الحرب التي نموت في الاستعداد لها يا سعد المبروك، مجرد كلام حتى الآن، وتلك الجيوش الكبيرة التي قد ترسلها الحكومة لقتالنا لن تصل قبل بضعة أشهر أو حتى عام كامل.. دعنا نستمتع.. دعنا يا صانع الثريد..

ثم ضحك، وكانت أسنانه زرقاء لا أدري بفعل تلك السموم التي تخصص في مصها، أم بفعل مصائب أخرى لا أعرف عنها شيئاً.

لم يكن في الحقيقة ما يتمتع في وسط ذلك البؤس والقحط، وغياب
المصير، ولو وقعت الحرب بالفعل، ربما كانت ثمة إثارة أو تحديد لذلك
المصير، كأن نموت أو نحيا عرايا، أو نعود إلى المدينة لنرتق جروحها،
ونسفن موتانا، لكن قطعاً كانت للمصاص وكثيرين غيره من أعضاء
الكتيبة، متع سرية من تلك التي نسمع عنها وسط ذلك الخراب، ولا
أحد يؤكد أو ينفي. نسمع عن جنود جهاديين يلعبون الورق في تخف،
عن جنود جهاديين، يقرأون البخت في تخف أيضاً، مستخدمين الحصى
والرمل وسيقان النباتات، وعن هجرات مسروقة في ستار الليل إلى
المدينة، حيث السبايا الصغيرات في بيوت عدة، وحيث عدد من نساء
الهوى القديمات من حي (ونسة) الذي دمر، ما زلن يلعبن في الخفاء
برغم كل السيوف والخراب.. وغزوات المجندين التي تنبش حتى في
حليب الأثداء بحثاً عن لذة اقترفت..

قلت للمصاص:

- أنا مستمتع بالطبخ.. يا أخي.

خبط على كتفي بيد النحول تلك، خاطبني بالصوت الذي لا هو
ناعم ولا خشن:

- أنت مخصي بلا شك.. ليس في حرفة النساء ما يتمتع.. ها.. ها.

تابعته بعيني وهو يمضي إلى خيمته متبختراً، مشيته ليست
عسكرية تماماً، ظهره مقوس إلى الأمام قليلاً، وثوبه أبيض خالياً من
رقع الزهد التي اختطها القادة وأمرء الجهاد شعاراً لأثوابهم،
وحرّموها على الجنود حتى لو تفانوا زهداً.. كانت في السماء بقايا
سحب كادت أن تمطر ولم تفعل، في الجو رائحة نعناع لم يكن
مزروراً في المعسكر، ولا حتى قريباً منه وكان توما المراهق أمام
خيمة الطبخ وقد عاد إلى خروفه المصروع يسلم جلدته. دخلت

الخيمة وقد زال شيء من المغص، لكن المرارة ما تزال كاملة في القلب، لا ترحه.

تلك الليلة سمعت صوت ذئب البراري لأول مرة بعد أن كان مجرد خيالات كاذبة ورثاها من زمن الطفولة، سمعت صوت البومة ينثق في الخراب لأول مرة، وارتعت بكابوس همجي، رأيت فيه (خميلة جماري) بهيمة صحراوية، لها مائة ثدي ممتلئ بالدم، والقائد (عبّادي طلسم) وجنوده، باركين على أيديهم وأرجلهم يرضعون تلك الأثداء.. واستيقظت وسط اللهاث والعرق، لأسمع غطيط أربعة طبّاخين نائمين، والمُح (توما) على ضوء قمر يتسلل من بين الشقوق، راقداً في فراشه شبه رقدة، وإحدى يديه ترتفع وتنخفض. كان في لحظة ذكرى بلا شك، ويمارس منكرًا قديمًا بلا شك.

الفصل الثاني

التوترات الأولى

- 1 -

الأخبار بشرّها ويأسها كله في مقهى (خزي العين) الشهير في وسط المدينة، وبالتحديد عند صاحبه (نديمة مشغول).

كانت في نحو الأربعين أو أزيد قليلاً، تركية أو كردية، أو ربما من غجر الشام الذين يملكون القدرة على اختراع الأوطان والغائها عند الضرورة، من دون أي هزة من ضمير. عرفت في البداية كمغنية سخية الصوت تراقص في ليالي الأعياد، ومناسبات الختان، وزفات أعراس الفقراء التي كان أجراها في أغلبها مجرد وعود، ولا شيء آخر. يأخذونها لتغني في أول الليل، وتعود وحيدة ومنكسرة إلى جحرها في آخره. وفي إحدى الليالي وفي بيت معروف بإدارته لموائد القمار، ويرتاده عدد من حاملي الألقاب والثروات في المدينة، لعبت بجسدها الغض آنذاك، ضد شهوات ثلاثة تجار محليين، كانوا يملكون مقهى (خزي العين) الشهير وغزير الزوار ضمن ما يملكونه من ثروات، وهزمتهم.

كانت فضيحة كبرى لأولئك التجار حين عرفتھا المدينة كلها بعد ذلك، واتخذھا جماعة (الذكرى والتاريخ) التي كانت جماعة سرية ونشطة تؤرخ الأحداث الجسيمة بكتابتھا على حيطان البيوت ورمل الشوارع، مادة لنشاطها، استمرت كتابتها لزمان طويل، لكن التركية أو الكردية أو التي ربما من غجر الشام، لم تحسّها فضيحة أبداً، استلمت مقهاها الذي كسبته في لعنة القمار كاملاً، بعد أن عدت حتى شقوق موائده، وضحكات أو تأوهات جرسونات، وقطع الفحم في مواقده التي

لا تحبوا، وكانت أول امرأة تدير مقهى في المدينة، وبتلك المواصفات الكاملة لإدارة المقاهي.

كنت من مرتادي (خزي العين) الذي يقع في وسط المدينة تقريباً، وعند نقطة تجمع مواصلات الريف، التي كانت حميراً وأحصنة وإبلأً يؤجرها أصحابها للسفر بين المدينة والقرى، وتعود عليهم بالقليل، أمر عليه مرتين أو ثلاث أسبوعياً، ألتقي بعدد من الأصدقاء والمعارف، أثرثر معهم أو ألاعبهم الترد والورق، أو اصطاد خبراً قادمأً من العاصمة والمدن الأخرى، لم يأت بطريقة رسمية بعد. كنت أفضله على نادي (يوتوبيا) الأرستقراطي الذي أرتاده في المناسبات فقط ولا تعجبني وجوه مرتاديه التي كانت كلها استعلاء وغطرسة. وكانت نديمة في الواقع سخية في كل شيء، سخية في ضحكاتها الشهية، توزعها على الجميع، سخية في حديثها، تدلقه بلا تحفظ، سخية في فجورها ومستعدة حتى لإشراك ريفي مهلهل أو تركي حاد المزاج، في شئون قولوها العصبى، وإمساكها الزمن، واضطراب دورتها الشهرية الذي يصيبها بالكآبة والأرق.. وفي استطلاع للرأي أجراه عدد من عشاق الصرعات، لاختيار أنفه وأحب امرأة في المدينة إلى قلوب الجميع، وجرى في مقهاها وتحت سمعها وبصرها وضم عدة نساء أخريات من نساء المدينة، توجها الجميع بلا استثناء.. المرأة التافهة الحبيبة لكل قلب. في أحد الأيام سألت نديمة عن ماضيها البعيد، قبل أن تخط برحالها في مدينة السور، وتسكنها تلك السكنى المميزة، قالت.. ماض مضى واندفن، لا تحفره يا سيدي.. عن مستقبلها، وهي في تلك اللجة العميقة بلا زوج ولا أهل ولا حبيب وهدف لتحرشات بلا حصر.. قالت.. أنا زوج نفسي وحبيب نفسي.. وأهل نفسي، حتى لو تحرش بي حاكم البلاد العام.. لا أهتم.. أرجوك.. ولم أهتم بالفعل حتى حين كنت

أشاهد يديها هشتين، تحاولان أن تصددا يداً لسكران حاول أن يمس صدرًا نائمًا، أو حين أمشي في الطرق، فأرى اسمها مكتوباً على الحوائط بأحبار جماعة (الذكرى والتاريخ)، باعتبارها قاتلة الهوى التي ربما تقلص عدد قتلاها، لو أحبت أحداً.

دخلت إلى مقهى (خزي العين) في ذلك المساء، دخولي الذي اعتدت عليه دائماً، ملابسي منسقة بعناية، حذائي مغسول ولامع، وطربوش أحمر جديد يغطي رأسي. لم أكن أحمل لقباً حكومياً خاصاً بالرغم من منصبي الحساس في مجلس المدينة، لكن اللقب كان موجوداً بالفعل، وسمعه يتردد باستمرار من جميع الألسنة التي تخاطبني، وحتى من لسان التركي (يوسف دامير) رئيس مجلس المدينة، وحاكمها الموقر.. مرحباً ميخائيل بك.. تعال إلى مكتبي يا ميخائيل بك... هكذا..

كان (خزي العين) مزدحماً كعادته في كل مساء، مضاء بفوانيس الجاز ذات اللهب المتراقص، وزبائن بسحنات شتى، بعضهم من داخل المدينة، وبعضهم من الريف، يشغلون موائده المصنوعة من خشب الزان المغطى بوبر الإبل، يحتسون الشاي والقهوة وعصير التبليدي، أو يدخلون تبغ (الدردار) الخشن، الذي يستخرج من مزارع محلية في أطراف المدينة، ويعالج بمادة (العطرون) التي تكسبه خشونة أكثر، وتوصله إلى شرايين المزاج بسهولة. عثرت على قريبي (مسمى طاؤوس) الذي كان شاعراً عاطلاً عن العمل، ويقضي أمسياته في (خزي العين)، يتصيد أعيان الريف القادمين إلى المدينة، يبيعهم قصائد المدح التي يرتجلها أمامهم، بمبالغ زهيدة يحشرها في جيبه ويمضي، وكان في تلك اللحظة برفقة رفيق بعمامة فخمة ورداء من جلد الخراف، يتساويمان على قصيدة محتالة بصوت مرتفع. حيّاتي البكباشي (صبير)

الذي كان عسكرياً متقاعداً حصل على وسام للشجاعة بلا شجاعة،
وتقدم للزواج من صاحبة المقهى سبع وثمانين مرة، كلها صد وإغلاق
لباب العواطف، لكنه لم يئأس، ولحت من بين الموجودين رجلاً كنت
أعرفه بلا شك، ولم أتذكر أبداً من أين أعرفه. وفي ركن أعد كمسرح
متواضع، كانت فرقة (جريح) الغنائية، تنقر على طبولها المزخرفة،
وتردد أغنية (طير يا حمام.. طير فوق)، في فقرة مستحدثة لم تكن من
ضمن مهارات المقهى فيما مضى، وأضيفت منذ عدة أشهر فقط.

كانت نديمة مشغول موجودة في ذلك المساء العادي، ملكة على
مقعدها المرتفع الذي يمكنها من مراقبة نشاط مقهاها من دون أن تضطر
إلى الانحناء أو مد الرقبة كثيراً، أو الاستدارة غير الضرورية. ترتدي
قميصها الأحمر ذا الحواف المطرزة بالبرتقالي، والذي يساعدها على
النشاط كما تقول، على يديها أساور من ذهب عياري من نقش
اليهودي (عوزي إيزاك)، تاجر الذهب الكبير، وحوها عدد من شباب
المدينة، كاشفين لصدورهم المغطاة بالشعر، يكلمونها في همس فاجر ولا
ترد على أحد. وحننت أن قولوها العصبي لا بد متشجع بشدة،
إمساكها الزمن لا بد في القمة، أو دورتها الشهرية المتعسرة، غارقة في
تعكير المزاج. اقتربت منها، وابتعد الخلقون، قلت.. استخدمني الفجل
بعد غليه في نار هادئة، وخلطه بالعسل، استخدمني قشر الليمون المخفف
بعد سحقه.. استخدمني نبات (الدندرة) المر ثلاث مرات في اليوم..
هذا يساعذك. كانت وصفات مخترعة بلا شك، اخترعتها في تلك
اللحظة، وأردت أن أستحلب بها ابتسامة من تلك الملكة الواجمة، لكنّها
لم تبتسم، ولا بدت قابلة للابتسام في أي لحظة. وبصوت بعيد عن
صوتها الممتلئ بالتعرجات، الذي طالما استمعت إليه من قبل، رددت:

- هل سمعت الأخبار يا ميخائيل بك؟

- أي أخبار يا ملكة؟

- ثورة الجهاديين.. ثورة الخراب..

- أي جهاديين.. أي ثورة؟

رددت مندهشاً وأنا أحدق في وجهها، محاولاً أن أقرأ المزيد.
وبصوت رتبه جيداً ليكون عميقاً وجارحاً، ومغرقاً في التطرف
الحزين، حكّت الملكة نديمة، عن قائد أسطوري اسمه (المتقي)، نبع من
قرية منسية اسمها (أباخيت)، على شاطئ النيل أو تخوم الصحراء، لا
تدري بالتحديد، عن بطشه وجبروته، سيرة زهده وتعاليه على الدنيا
الفانية، وآلاف الفقراء الذين تبعوه بمجرد أن ظهر، ويتبعونه إلى آخر
الأرض لو مشى إلى آخر الأرض.. لقد هزموا الحكومة بجدارة حين
سمعت بأخبارهم، وأرسلت إليهم سرية مستخفة، فيها عدة جنود
ومدفعان صدفان، خرجوا إلى القرى، ودكوها، إلى الجبال، ودكوها،
إلى الوديان، ومساقط المطر، ودكوها، والآن بالتحديد يزحفون نحونا..
يقتربون من مدينة (السور) التي تقول الأخبار، إن المتقي سيتخذها قلعة
ينطلق منها جهاده.

كانت ثمة أخبار رسمية وردتنا منذ عدة أيام، عن تمرد طفيف
لبعض الغوغاء في قرية اسمها (أباخيت) تقع قريباً من النيل، على بعد
عشرين يوماً من (السور) وتبع لأقاليم الوسط. كانوا يطالبون ببناء
مخازن كبيرة وصلدة، لحفظ غلالهم من القمح والذرة والسمسم حتى لا
تفسدها الريح والأمطار، واحتوت الحكومة استيائهم بسهولة حين
ربطت زعيمهم إلى جذع شجرة من أشجار السنط، وضربتة
بالخيزران، وقبل ذلك بعدة أسابيع، تمرد (الشريف علوبة)، زعيم
إحدى المناطق الريفية الغنية بالزراعة والرعي، حين أعاد جباة الضرائب
الذين أرسلناهم إليه في إجراء عادي وروتيني، محملين بأكياس ممتلئة

بالرمل والحصى وبعور الإبل، وكان أن ذهبت إليه شخصياً برفقة عدة جنود مسلحين تسليحاً رثاً. تحملنا ركافة لسانه، وقهوته المرة، وبصقه للتمباك على ثيابنا، وبذاءة أتباعه وهم يشركوننا بالقوة في مسابقة بربرية لشد الحبل، ويهزمزنا، وعدنا في النهاية بضرائبنا كاملة لا تنقص قرشاً واحداً، وفيما عدا ذلك، لا شيء.. لا شيء سوى المجنون (مخلوف) الذي ضبط عارياً في الطريق العام، يبحث عن أخشاب من النار، ليصنع بها سفينة نوح، بائعة الهوى (طلاسم) التي تابت فجأة، وتوقفت عن دفع الضريبة، وربة منزل من حي (أرض الكوثر) الفقير، باعت طفلها الرضيع لسائح أوروبي.. لا شيء.

قلت محاولاً أن أطمئن التركية أو الكردية أو التي من غجر الشام:
- أخبار كاذبة يا ملكة.. لا يوجد جهاديون ولا ثورة.. مجرد تفاهات تحدث في أي وقت، والحكومة قادرة عليها.. صدقيني.

هضت (نديمة) من مقعدها المرتفع بغتة، اتجهت إلى حيث (جريح) المغني وفرقة، وأغنية الحمام التي طارت إلى أعلى ولم تحط بعد. أوقفت نقر الطبول بإشارة مصممة، وهتكت طبعاً أنيقاً بقدم عصبية مهتزة. سمعت المغني يشتمها بسوقية، وسمعتها تشتم المغني بسوقية أشد، قالت للبكباشي (صبير) وإصبعها ملتصق بأنفه، إن مقهاها مغلق في وجهه منذ اليوم وفي وجه كل من يأتي ورأسه مصبوغ، وبين ضلوعه قلب محطم، ولخص البكباشي في خفة لا تشبه عمره غزير السنوات، ليلتقط يدها، ويقبلها في هيام.. كان قريبي (مسمى طاؤوس) قد باع احتياله الشعري، للريفي ذي العمامة الفخممة ورداء جلد الخراف بعدة قروش هزيلة، وضعها في جيبه، وتحرك نحو ريفي آخر دخل المقهى في تلك اللحظة، وفي يده سلة من السعف تبرز منها رؤوس لقناديل ذرة شامي، والرجل الذي أعرفه ولا أدري كيف أعرفه قد مضى، لأن مقعده كان فارغاً.

حين عادت إلى مقعدها المرتفع مرة أخرى، وتنهدت في ارتياح،
بدت لي فارهة وأسطورية وتستحق عدم اليأس الذي يعربد به
العسكري المتقاعد صبير وكثيرون غيره من أهل المدينة والريف، في
دنياها بلا كلل.

- لماذا تدمرين المقهى يا نديمة؟.. لماذا؟.. تلك أخبار كاذبة..
صدقيني.

فهرتني بعينها حالكتي السواد، وشديديّ الاتساع حين تغضبان أو
تفرحان، دقت على الطاولة بعنف وأطارت دراهم نحاسية كانت
موضوعة عليها، إلى بعيد..

- أحباري أستقيها من القرويين يا ميخائيل بك.. والقرويون
ليسوا سلطة ولا لديهم مصلحة ليكذبون.. هل تعرف عبّادي طلسم
الذي كان حمّالاً في سوق أبي جهل واختفى فجأة؟
- نعم.. إلى حد ما..

- هو واحد من أمرائهم.
بالطبع لم أصدق حرفاً واحداً مما قالته. لم يكن في ذهني أي
مدخل يمكن أن يدخل منه حمّال عادي في سوق شعبي ممتلئ بالفقر،
والسلع الفقيرة، إلى إمارة ما، حتى لو كانت إمارة على كومة من
القش.

فتحت فمي لأتحدث وأغلقت نديمة بتساؤل غريب:
- أين ذهب الثقلوي ديدام الذي كان فرّاشاً لديكم في مجلس
المدينة؟.. خبرني أين ذهب؟

- لا أدري حقيقة.. اختفى منذ مدة من دون أن نعرف أين
ذهب.. وأظنه عاد إلى أهله في الريف.
- هو أيضاً من قادهم.

هممت أن أضحك، لكن ضحكتي تمتعت بشدة، وتقطعت على حبالى الصوتية. منذ أكثر من عام دعانا التقلّوي إلى عرسه الذي سيقام في حي (كف عفريت) الشعبي في أحد أطراف المدينة، الحي الذي يقطنه فقراء معظمهم نزحوا من الضواحي، ويعملون في مهن هامشية، أو لا يعملون. تأنقت في ذلك اليوم، وتأنق عدد من موظفي المجلس وذهبنا إليه. كان التقلّوي مهنماً في زي أبيض ناصع، عمامته بيضاء ناصعة، كفاه مخضبّان بالحناء، وأساور من خرز أخضر معقود بخيوط حمراء، تتدلى من معصميه ورقبته. كان يوجد خلق كثير، توجد فرقة كورالية من سبع رجال ناضجين، تردد في شبق أناشيد الحماس الوطني، يوجد شراب من (التبلدي) و(العرديب)، طعام من أقراص الذرة والثريد، توجد نساء مزغردات، ونساء راقصات، يوجد أطفال يصرخون، ولم تكن لمة عروس حاضرة في تلك الطقوس، ولا شيخ يجري مراسم عقد القران، كما جرت العادة في أي عرس من أعراس الوطن.

نقلت استغرابي إلى العريس التقلّوي مباشرة، فرد في تعال:
- عروسي ليست هنا يا سيد، ولكن في الجنة.. حورية لا تشبه هذه.. ولا هذه.. ولا هذه.. ولا هذه..

وكان يشير في غطرسة إلى عدد من فتيات حيه الفقير، بدأن متألفات بركاكة، في أقمشة الكستور والرحط والبولين، وعناقيد الخرز الملون التي يبيعها الشعبيون في سوق (أبي جهل) رث التجارة.

- أي جنة؟

سألت مستغرباً أكثر.

- جنة الله.. جنة النعيم.

رددتها أولاً في صوت أقرب إلى الهمس، ثم رفعها أكثر، انغرس بها وسط فرقة الكورالين الحماسية، يرقص ويهتز، يهتز ويرقص، حتى تقوست ركبته وبدأ رذاذ من القيء الأصفر، يخرج من فمه، كنت أتابعه كما أتابع معركة، كما أتابع نيازك مجنونة تتساقط من حولي، ولم يتوقف حتى نضبت أغنيات الحماس، وبدأ الكوراليون يحمّدون ويتشاءون. كانت أمسية غريبة للغاية لم أشهد لها مثيلاً من قبل، وكنت في طريق عودتي إلى بيتي، أفكر بلا انقطاع، أحاول العثور على طعم أو رائحة ولا أعثر على شيء.

تذكرت كل ذلك، وأنا أقف بضحكة ممزقة على حبال الصوتية أمام الملكة الحبيبة التافهة، في مقهى (خزي العين) الذي يتأرجح الآن أمامي حاضراً ومستقبلاً. تذكرت إن التقلاوي لم يعد إلى مجلس المدينة ليعمل فراًشاً بعد ذلك أبداً، ولا شوهدي في (كف عفريت) ولا أي حي ممغوص آخر من أحياء المدينة منذ تلك الأمسية المسعورة، وحتى أولئك الذين شاركوه الهوس من أبناء حيه أو أصدقائه، ورتبوا له عرس الجنون ليرتديه، لم يكونوا يعرفون مكانه، وحمّنت إنه ربما عاد إلى قرينته البعيدة أقصى جنوب السور، حيث لا بد يوجد أهل هناك، وتوجد ملاحف بلا حصر، تستر وسواساً رهيباً كوسواسه.

قلت للتركية الكردية التي من غجر الشام..

شكراً جزيلاً.. شكراً يا ملكة..

ولا أدري لماذا شكرتها.

قالت.. عفواً، وعيناها موزعتان على خيال جرسوناتنا وهم يطفئون الفوانيس بالنفخ على ضوئها المتراقص، ويشتبكون بأصوات حادة لعدد من زبائن المقهى، كانوا ملتصقين بالمقاعد، يدخنون تبغ الدردار في تلذذ ولا يودون الرحيل.

قفزت إلى فرسي الأسود الأصيل الذي كان من مخصصات وظيفتي الرسمية ضمن مخصصات كثيرة منحت لي من قبل مجلس المدينة، أسميه (العَبَّار)، وأحترمه بشدة، ونكاد أن نكون صديقين من كثرة التصاقنا بعضنا ببعض في مشاوير البحث عن الثروة. لم يكن (يوسف دامير)، حاكم المدينة التركي، موجوداً في بيته الرسمي في حي (كاهير) الذي يقطنه السادة والأثرياء، وأقطنه شخصياً برفقة والدي وأخي الأصغر (رزق)، ولا كان في نادي (يوتوبيا) الذي يزوره بانتظام للعب (الدومينو) التي كانت واحدة من ألعاب التسلية الغريبة عن المدينة، وأدخلها النادي حديثاً إلى أنشطته، أو تقليم أظافره عند (هيلان الحبشية) التي كانت فتاة من إثيوبيا، تقلم الأظافر في كشك صغير قريب من وسط المدينة، كأها تعزف على آلة للموسيقى، لم يكن في السوق الكبير، عند صديقه تاجر الخمور الإغريقي (فندوري)، يتجادلان في السياسة والجنس وعلاج تعب المفاصل، ولا في ساحة (المحمد) النضرة، حيث يحب تأمل النجوم في ليالي سطوع النجوم. واضطرت في النهاية أن أطرق باب (المزينة)، التي كانت امرأة من إحدى قبائل الزنج الموزعة في أحياء عدة في المدينة، وكانت خلية للحاكم لا يعرف بأمرها إلا القليلون من خاصته.

انفتح الباب نصف فتحة، ورأيت على ضوء باهت ينبعث من فانوس صغير موضوع في حوش البيت، تلك المرأة التي ما صدقت أبداً إنها امرأة أو خلية لذلك الحاكم المتغطرس، بالرغم من انغماسه فيها أكثر من انغماسه في بيته الرسمي الذي يضم زوجته وعياله. كانت عجوزاً، ورثة، بذينة ملامح الوجه، وفيها رائحة عطر نحاسي مدبوغ في الجلد، وفي المرات القليلة التي كلمتها فيها، كنت أكلم نداءً له نفس حنجرتي وحبالي الصوتية.. على الضوء الباهت تأملت من جديد

وفكرت في لقب يناسبها، لكن لم يأتي لقب مناسب في تلك اللحظة، تأملتها وتأملتني، ولا بد نفرت كما نفرت، لأن وجهها تقلص بشدة، فمها تنهد بعمق، وابتعد جسدها عن الباب لا لتدعوني للدخول ولكن لتتركني أدخل من دون دعوة.. لم أكن أود أن أرى الحاكم مبعثراً أو غالباً عن الوعي، أو ملعوناً في ذلك الليل الكئيب، تسمرت بالباب وأنا أردد..

- قولي ليوسف بك إن لديه كبش وصل الآن.

كانت تلك شفرة نستخدمها حين يحدث حادث جسيم، حادث نود معالجته بعيداً عن تنصت الغرباء وفضولهم، وكانت المزينة خليلة لجسد الحاكم بلا شك، ولكن ليست خليلة للسلطة. دخلت (المزينة) مغتظة، وانتظرت صابراً.

لم يودع (دامير) خليلته حتى، ولا يبدو أنه أتم النزوة إلى آخرها. كان مبعثراً بشدة، ويحاول جاهداً أن يلتم في ثيابه وهيبته، وكاد يسقط عن فرسه وهو يقاسمني الطريق:

- أعذربي يا ميخائيل بك.. أعذربي.. أنت في مقر النزوات، ولست في مكتبي.. أي نوع من الكباش لديك؟

- في الواقع ليس كبشاً يا سيدي..

- ماذا إذن؟

- ثور بعدة قرون.

- بعدة قرون؟.. يا إلهي..

وكاد يسقط عن فرسه مرة أخرى.

- 2 -

أول قرار اتخذته حاكم المدينة التركي (يوسف دامير)، بعد أن تنفّض من نزوة (المزينة)، واستعداد قميص السلطة كاملاً، هو ألا ينام في تلك الليلة أبداً، ولا أنام أنا ولا موظفو المجلس بجميع فئاتهم، ولا أي أحد آخر له ساقان وذراعان، وفم وصوت حتى لو كان خافتاً. كان قلقاً بشدة، ومشوّشاً بشدة، وأرسل عشرات المناذير إلى أحياء المدينة كلها، لإيقاظ النخوات من ثباتها، وطلب النصح والمشورة، ولم يكن يدري من بالتحديد يمكنه أن يقدم نصحاً ومشورة في أمر كهذا. كانت العاصمة بعيدة جداً، والطرق وعرة بشدة، وجيشه خامداً ورث التسليح، والمعضلة لو كانت حقيقية فعلاً، وليست اختراع مخترعين، فهي معضلة دولة وليست معضلة حاكم إقليمي. كان قلقاً ومشوّشاً، وشاهدته لأول مرة يصفر، وكان صغيراً بلا أغنية، بلا معنى. أول مرة يعري صدره، وكان صدرًا خشناً ممتلئاً بشعر نصفه أسود ونصفه أبيض، أول مرة يتذكر أباه المدفون في بقعة ضحلة في إحدى بلاد الأتراك، وقد نسي أمره منذ أربعين عاماً. وفي اجتماع الأزمة الذي ضممني وضمه، وضم عدداً من الموظفين وقادة الجيش وشرطة الخيالة وبعض التجار، أمثال صهري المستقبلي (منون جماري) وتاجر الخمر فندوري، أصر وعينه ترمشان بلا توقف، أن تأتي الملكة التافهة الحبيبة نديمة مشغول رضى أم أبت، هي من أفسد الليلة بذلك الثور متعدد القرون، ويود أن تفسدها إلى النهاية، يأتي عاشقها العسكري المتقاعد

البكباشي صبير، لأن دمه بارد كالصقيع، ولأن منححة قد تصدر من خبرته الطويلة، قد توحى بحل. وكان خزيًا كبيراً وفضيحة حقيقية، أن تضم طاولة رسمية من طاولات الأزمات، جليساً مثل (ولهان الخمري)، الذي دخل المدينة منذ خمس سنوات قادماً من مصر، برفقة ست فتيات بانعات آنذاك، أسكنهن حي (ونسه) أكثر الأحياء اتساعاً في المدينة، وشربتهن الأهواء كلها، ليتحولن إلى مجرد جلد على عظم، ولم يمض على قدومهن أكثر من عام. والآن يعملن بلا كفاءة في خدمة أهواء الرافيين القادمين إلى المدينة، بحثاً عن طعم مغاير، أو يتدربن في أوقات فراغهن على النسيج بالإبرة، وأبجديات التوبة التي لا بد سيضطرون إليها في أحد الأيام.

لا أدري لماذا جيء بولهان الخمري، في أزمة لا تبدو وثيقة الصلة بحي ونسه، ولا علاقة لها بمجسد مائع، يتأرجح بفعل هرمونات ندلة، لكن لا بد كانت للحاكم وجهة نظر.. وجهة نظر مهمة.

للمرة الخامسة يسأل:

- خيريني يا ملكة.. أرجوك.. هل فعلاً يوجد جهاديون أشعلوا ثورة في البلاد؟، وليس مجرد غوغاء من قرية (أباخيت)، يريدون صوامع لحفظ الغلال من الريح والمطر، وربط زعيمهم إلى جذع شجرة لتأديبه؟ وللمرة الخامسة تجيبه الملكة التافهة الحبيبة، وقد ارتدت فستاناً أخضر اللون من قماش رخيص يوزع في سوق (أبي جهل)، قالت يساعدها على التوتر، وأشعلت قندولاً طرياً من تبغ الدردار الخشن.. كانت تدخنه بلا متعة ولا سعال:

- بكل تأكيد يا يوسف بك.. بكل تأكيد. عطايا بائع (الروب)، والخميرة، الذي كان بالصدفة في قرية (رضيب) التي هاجمها الجهاديون وأكلوا خيرها، لا يفتأ عينه أو يزيل حاجبيه، ليكذب.. محاسن الجرداء

أم العيال السبعة التي ترحل بهم مستعطفة وباكية، وتأتينا كل عام من أجل كسوة الشتاء، وتعرفها أنت جيداً، لا تأتي بلا عيال إن لم يكونوا قد ضاعوا.. الطريق الذي يربط (السور) بمناطق الرعي والزراعة، في وسطه خمسة براميل من البارود، وعلى أطرافه يرقد حاملو النبال والحراب، يتصيدون القوافل ويفتتوها لو مرت. جمعة مؤجر الإبل والحمير كمواصلات بين المدينة والقرى، ويؤجر حميرك وإبلك شخصياً، مختف منذ سبعة أيام، وقد عادت ثلاثة من حميره بلا ركاب.. (ترتر) طفل الخامسة عشرة، الذي كان جرسوناً عندي في حزري العين، اختطفه أبوه من أمامي ونحشني باظافره، حين حاولت منعه، قال سأسافر به إلى المجد.. يا كافرة.

- لكن ماذا يحدث في هذه اللحظة بالذات.. أخبريني ماذا يحدث؟
- الله وحده أعلم.

أعادت خصلة نافرة من شعرها الأسود الغزير، إلى موضعها لتعانق الوجه، بدت فاتنة وأسطورية، يرغم فستانها الرخيص، وجسدها غير المعطر وعنقها الخالي من نقشات اليهودي (عوزي إيزاك)، والبكباشي (صبير)، لا يتأمل ذلك السحر فقط، لكنني أخاله قد ذاب كاملاً، أصبح تلك الخصلة التي تتأرجح، ذلك الهدب الطويل الطويل، وحتى ذلك العبوس الذي كانت تعبس به الملامح. والفم الذي يرصف الأخبار للمرة الخامسة على التوالي، في جلسة منهكة ومتأزمة. كان البيغاء الإفريقي (كيكور) الذي أهدي للحاكم من زائر سنغالي مر بالسور ذات يوم، والموجود بصفة دائمة في تلك القاعة الملحقة بمجلس المدينة كنوع من الديكور والزخرفة، ونسينا أخذه بعيداً حين اجتمعنا، ما يزال ممتلئاً بحوار يبدو أنه التقطه من اجتماع سابق.. اجتماع غير رسمي..

كان يصرخ..

أحبك يا مزينة.. ضميني إلى صدرك يا مزينة.. قبله يا صبية.

- الله وحده أعلم.

تعبث بخصلتها المتأرجحة، تعيدها إلى الوجه مرة، وتطردها

مرات.

- أرسل مستكشفيك إلى حيث توجد النار وتأكد.. لقد قلت

كل ما عندي يا سيدي.

كان قادة الجيش والخيالة، متعسكرون في أزياء لم تواجه عدواً حقيقياً أبداً من قبل، تفوح منها رائحة الغبار والعتة وضراوة التخزين، وبدت بعض النجوم والصقور على الكتوف غائبة عن مكانها بفعل الزمن. كانوا هابطين بأرواح معنوية، يحاولون جاهدين أن يرفعوها إلى مستوى التعبئة العام الذي يتراقص أمامهم. أن يكونوا عسكرياً محارباً لا مجرد وظائف مملة، تستهلك التبغ، والنساء وثلث ضرائب الإقليم.. القائمقام. البكباشي. الرائد.. التكتكت.. اللهنجي، والوجوم الذي يسيطر.

كان القائمقام (موسى عرديب)، قائد الجيش الذي ينحدر من قبيلة (الشايقية) في أقصى الشمال، قد عمل حارساً شخصياً للحاكم العام في العاصمة، ونقل إلينا حديثاً، لأن ذبابة وسخة كانت تنزق قرب أذن الحاكم بلا توقف، ولم يستطيع قتلها، لأن امرأة بمشاعر ثورية، أحبت الحاكم بجنون، ظلت تطارده في الشوارع والأسواق، ولم يستطع القضاء على ثورتها ولأن ست شموع انطفأت في عيد ميلاد ولد الحاكم الصغير، قبل أن يصرخ الحاضرون.. (هابسي بيرث داي تو يو).

كانت مهمته في (السور) شاقة للغاية، أن يلعلم جيشاً مغموراً ومبعثراً، وبلا عتاد كاف، وأن يياهي بذلك الجيش، لأن الأقاليم غاصة

بالهمج، وفي نفس الوقت تستعذب المباهاة، حتى لو كانت مباهاة أزياء وخطوات منعمة. هو الوحيد الذي لم ينس رفع التحية العسكرية حين واجه الحاكم، الوحيد الذي كان زيه العسكري مستخدماً بالفعل، وبلا رائحة عتة أو غبار أو تخزين. طلب الإذن بالحديث لكن الحاكم أسكته بصرامة:

- أريد خطة حقيقية أيها القائد، لا نظريات حرب جوفاء وردت في كتاب (فاسكو) السخيف الذي أعلم أنكم تحفظونه عن ظهر قلب.. أريد ميداناً ترتع فيه الأسود، وليس جحراً يأوي الثعالب.. كلمني بعد أن تجهز نفسك في آخر الليل من فضلك.

التفت الحاكم إليّ فجأة، وكنت في تلك اللحظة بالذات، بعيداً جداً، أفكر في عرسي الذي بدأت أستعد له وأنوي إقامته على مسرح (يوتوبيا) المزركش، ولم يبق على مواعده إلا القليل، أفكر في (حميلة) التي ستتملاً دنياي عطراً ومحبة بعد سبع وثلاثين سنة كلها خواء وتفاهات، ولكن يبدو أن المستحبات أقوى ولا يعرف أحد ماذا ينبغي الغيب.. فتع فمه ليخاطبني فيما يبدو، وقوطع من صوت آخر، كان صوت صهري المستقبلي، (منون جماري)، الذي تحدث من دون إذن من الحاكم وبدا صوت الحاكم فقيراً جداً أمام صوته الغني:

- قل لي سعادتك.. ما موقفنا وموقف السوق في هذا كله؟.. هل نعتبر سلعنا شحيحة، وطلع حرب أم نستمر في التجارة العادية؟

- ما تروونه مناسباً سيدي..

رد الحاكم..

- تعرف قوانين الحرب أكثر مني.

بدا صهري المستقبلي راضياً تماماً، طافت على فمه شبه ابتسامة وكذا بدا تجار آخرون يتاجرون في الملح والسكر والشاي وزيت

الطعام، وحتى في مقويات الأعصاب واللذة الخاصة، التي يجلبونها من مصر وأوروبا، وتعود عليهم بالكثير، وما ترونه مناسباً تلك، لم تكن باباً موارباً، تطل منه السلع على استحياء فقط، ولكن باباً مغلقاً قد لا تطل منه سلعة أبداً. تخيلت مدينة بلا ذرة، مدينة بلا ملح، مدينة بلا متعة، ومدينة بلا جرح واحد، ولكن كلها جروح. كان صهري على النقيض من ابنته حميلة، هو يجمع ويجمع، وهي تنفق ما تجمع. على العموم لم يكن الأمر يعني كثيراً، فلن أكون ضمن جوعى أو عطشى الحرب الذين قد يخترعهم جماري وغيره بأي حال من الأحوال.

أفقت على صوت (يوسف دامير)، يلكرني:

- دورك الآن يا ميخائيل بك. أنت قبطي، والأقباط مقترون حتى في منح الآراء.. لا نريد تقتيراً هذه الليلة.

أهانني عبارته بشدة، لكنني تناسيت وخلته يعني صهري المستقبلي جماري أكثر مما يعني. فكوي قبطي، كان هذا قدرى، وكوي مسئول عن جمع ثروات الحكومة من ضرائب وعوائد، وإيجارات أسواق وحدائق ومواخير، وغيرها، والتريث الشديد حين يأتي وقت إنفاقها، لا يجعلني مقترراً، ولكن أحاول الترشيده. فيما مضى وبالحاح من معالج روحاني اسمه (قيصر شامات)، وجاء من دولة ساحل العاج في إفريقيا، أرادوا بناء مشفى لطرد الأرواح الشريرة عن الأجساد، ووقفت عائقاً حتى ألغى المشروع. لم تكن المدينة بحاجة إلى مشفى حكومي، والأرواح فيها هزيلة للغاية، ويمكن طردها حتى في الشارع العام، إضافة إلى أنني لم أذوق ذلك القيصر شخصياً، وبدا لي منذ أول وهلة رأيته فيها، مجرد صعلوك من أولئك الذين لا ينقطع مجيئهم عن البلاد أبداً. أيضاً طالبني الحاكم (دامير) مرات عدة، بإدراج اسم خليلته (المزينة) ضمن الفقراء الذين فمنحهم كسوة الشتاء من بطاطين وألحفة وحطباً

لإيقاد النار، ولم أعثر على فقر أكيد في حياة امرأة تفيض بشهوة الحاكم وثروته في كل ليلة. لكن (ولهان الخمري) هو من فضحني، هو من جعل اسمي مكتوباً بأحبار جماعة الذكري والتاريخ على كل حائط، باعتباري شحيح المدينة الأول، ذلك حين ضاعفت له الضرائب، بسبب الغش وهو يروج لبضاعة فاسدة.. أولئك الفتيات المستهلكات. قلت:

- أحاول الترشيح يا سيدي.

- لا عليك..

نؤه الحاكم..

- أضئ فانوسك من فضلك.. نحن بانتظار الضوء.

كان رأيي الشخصي في تلك المعضلة، هو أن نستوثق من تلك الأخبار أولاً، بالرغم من قناعاتنا الشخصية، بأنها حقيقة وليست مجرد شائعات. أن نضع رسلاً ومستكشفين لنا في النار، ونرى هل يعودون أم يحترقون، أن نعثر على ملامح (المتقي) مشعل الثورة، نكمل سيرة حياته التي وصفتها نديمة، من معه؟ ومن ليس معه؟ ما زادهم، ما عدتهم وعتادهم، وما تذوقهم للهدنة التي تعقب الحرب لو كانت ثمة حرب ستقع، وهدنة ستبعتها. وافقني الحاكم والعسكريون، ومن حضر من التجار الكبار بجز رؤوسهم، تنحنح البكباشي صبير، بلا إضافة مبدعة وعيناه مسمرتان على الملكة التافهة، بينما بقيت هي خاملة على مقعدها، تدخن الدردار الخشن بلا متعة أو سعال. كان (ولهان الخمري) عرقاناً ولاهثاً، وسأل الحاكم بصوت النساء الذي كان جزءاً من تكوينه، ويصبح أكثر نعومة في ساعة اليأس:

- لكن أخبرني يا (جتتل)، ما علاقة بيبي، وبناتي اللطيفات بحروبكم ومشاكلكم؟ نحن سكان مسالمون، وندفع ضرائبنا بانتظام كل عام.

علاقة وثيقة.

ردد الحاكم.. وقد بدا مصدوماً من عبارة (الجنّتل) التي لم تكن
من ضمن ألقابه الرسمية أو غير الرسمية، وما سمعها من قبل تردد أمامه:
- الحرب تحتاج إلى شيء من قلة الذوق، وقد ألغينا ترخيصك
لـ الفساد ذلك، وعينك قليلاً للذوق في الحرب القادمة. هل فهمت؟
لم يفهم (ولهان) حرفاً واحداً كما بدا لي من ارتخاء فكّه وتوهان
أهله، لكن الحاضرين كلهم ابتسموا، وكانت أول ابتسامة جماعية في
السك الليلة التي انتهت بملاحم الفجر عبر النوافذ، وموسى قائد الجيش
بإحدى نحية متشابّة، ويقدم ورقة مطوية إلى الحاكم.
مست في أذن يوسف بك، وقد قفز إلى ذهني فجأة تساؤل
مطلق:

- لماذا لم يدع سيدنا (مفتاح الفلاح)، إمام المسجد الكبير إلى
هذه الجلسة؟

- أجربه في صلاة الجمعة القادمة.. أعطيه خطبة حكومية ستوزع
على كل المساجد، وأرى إن كان معنا أم مع (المتقي).. هيا..
كنا نغادر جوعى ومنهكين، والبيغاء كيكور يردد بلا توقف..
المتقي.. الجهاديون.. بناتي اللطيفات.. قليل الأدب.

- 3 -

قلت لوالدي (رجائي رشدي السحال)، الذي كان يعمل فيما مضى، في نفس وظيفتي التي أشغلها حالياً، مسئولاً عن جمع ثروات الحكومة، ووجوه إنفاقها، وتقاعد بسبب (كلل المخ)، الذي كان مرضاً متوارثاً في العائلة، ويؤدي إلى تلف الذاكرة في وقت مبكر، ويقضي معظم أوقاته الآن في محاولة استرجاع أرقام الحساب المبعثرة، أو تذكر أي إصبع في اليد، يلبس فيه خاتم الزواج. وفي الأوقات القليلة التي يشاهد فيها في السوق، يشتري حلوى (الرهش) الحبيبية، باعتبارها أزرة قميص، أو نبال صيد العصافير، باعتبارها وصفات سحرية لعلاج الوهن، أو يتصعلك بلا شباب أمام بائعات الطحين الفقيرات ويلكز بعضهن في المؤخرات، كانت يده اليسرى دائماً أمام عينيه، وأصابه مفرودة في توتر، يحاول العثور على موضع الخاتم.

قلت له:

- اسمعني جيداً يا رجائي بك.

كان حاصلًا بالفعل على لقب البك، ذلك اللقب الذي لم أحصل عليه قط، ولعله كان الشيء الوحيد الذي تبقي في شبح ذاكرة تبدو كروح هائمة لا تحط.

صرخ ويده اليسرى تركض إلى فمي، تحاول أن تتحقق الحديث قبل أن يتكون:

- لا تخبرني بموضع الخاتم أرجوك.. سأذكره وحدي.. أقسم
بأنني سأذكره..

ومن مطبخها الذي يعج بالتخمة والفجور اللذيذ، ويحتوى حتى
على أسماك نهر النيل المجففة، ولحم الأرانب المعطون في الملح والتوابل،
وهياكل رؤوس الغزلان التي جردها النهم من ملامح البراءة، هتفت
أمي:

- لا تخبره يا ميخائيل أرجوك.. هو سيتذكر وحده.. حبيبي
سيتذكر.

تسرف في تدليله، حتى وهو في السبعين، حتى وهو لا يستطيع
الجزم، أمي (مريا توموس) ذات فساتين (الكلوش) الواسعة، التي جاء
بها غريرة من صعيد مصر، حين جاء برفقة جيش غاز ومستهتر، أم
بجرد طبخة، وغاسلة للثياب في بيت يحتاج إلى طبخة وغاسلة
للثياب؟، أمي نفسها المخملية ذات الوجه المدور، والنظرات العاتبة التي
كانت تقرصه بها، حين يلمس يداً غير يدها، أو يتجول في وجه غير
وجهها، أم واحدة أخرى موجودة بالصدفة في بحر الحياة المملوء
بالصدف.

- ليست مسألة إصبع أو خاتم زواج يا أمي.. إنها مسألة حياة أو
موت.

كنت ما أزال أرتدي سهر البارحة نفسه. رأسي ثقيل بشدة،
وجفناي عصيان على الفتح. وقد قضيت النهار بطوله برفقة الحاكم
(دامير)، والملكة التافهة الحبيبة (نديمة مشغول)، وفي ركن منعزل من
مقهى (خزي العين) الذي لم أره في النهار قط من قبل، كنا برفقة
ضحايا مؤكدين، وكذابين يلوحون بقصص لم تحدث إلا في أذهانهم
فقط. كانت الطاولات مزدحمة بعادة الازدحام، رائحة بخور عطن،

وتوايل وقرفة وزنجبيل، رائحة تبغ الدردار الخشن، ومسرح المغني (جريح) الذي طارت فوقه أغنية الحمام ولم تحط، غارقاً في الفوضى، ولثة عمال يزيلون ستاره الأحمر وفوانيسه الملونة، وبساط القطيفة الذي كان ممدداً على أرضه.

- اسمعاني يا بك.. ويا بك.

كان (عطايا) بائع الروب والخميرة الذي أحضرته الملكة من أحد جحور المدينة، كشاهد حي على مشهد صغير من مشاهد المأساة. كان بلا عين يميني ولا حاجبين، وقد تورمت ملامحه حتى كأنها ملامح وجهين يسكنان جسده.

- اسمعاني يا بك.. ويا بك.

وارتخينا في مقعدينا، أو انشدنا لنسمعه، لا أدري بالتحديد. - كنت في زيارة أخي التوأم (منصر)، الذي يقيم في قرية رضيع على بعد ستة عشر يوماً من (السور). أزوره مرة في العام لنضحك معاً، ونستعيد تلك الأيام الخوالي.

- وماذا حدث؟

ردد الحاكم يستحثه.

- لعبنا لعبة (الغمثاية) معاً، حيث قصصنا شعرنا قصة واحدة، حففنا شارينا نفس الحفحفة، لبسنا القمصان والسرراويل أنفسها، ووقفنا أمام زوجة أخي النفساء، ونحن نصرخ:

من منا زوجك يا سكينه؟

سألت في فضول - وقد استهوتني تلك اللعبة المثيرة، وتمنيت لو كان أخي رزق الذي يصغرن بسبعة عشر عاماً، توأمي. كنا تحففنا معاً، وقصصنا شعرنا نفس القصة، لبسنا زياً واحداً، ووقفنا أمام حميلة جماري صارخين:

من منا خطيئك يا خميلة؟

- وهل عثرت سكينه على زوجها؟

- أبداً.. كادت أن تجن وهي تختارني مرة، وتختار منصرّ مرة.

- حسناً.. وماذا بعد؟

الحاكم في بداية نفاذ الصبر الذي أعرفه جيداً من ارتعاش جفنيه،
وارتفاع يده اليمنى باستمرار إلى أنفه، ليهش ذبابة غير موجودة.

- كنا نأكل (ثمرة التمرات)، حين جاء الجهاديون.

- ثمرة التمرات؟.. وما هذه؟

الحاكم في منتصف نفاذ الصبر، والآن يده الاثنان تعاركان
الذباب الذي لم يكن موجوداً.

- إنها وجبة نصنعها من لحم الضفادع بعد تخفيفه في الشمس،
وخلطه بالعسل والليمون.. وجبة لذيذة.

كان يمص شفّته بلسانه ويتجشأ، حين نهضت (نديمة).
نهضت بفعل اضطراب معوي كما بدا لي من رائحة فمها، وإسراعها
الخطي نحو حوض اللورد، أفرغت فيه أحشاءها. سمعتها تتناول على
الوطن كله، تسبه ببذاءة، وسمعتها تصرخ في جذع شجرة يابسة من
أشجار التبلدي، كانت تموت في حوش المقهى:

أخرج من مقهاى.. اخرج من حياتي يا صبير.

- المهم..

- دخل الجهاديون إلى البيت.. كانوا كثيرين وبلا عدد، يحملون
السيوف والخراپ والسكاكين، وكانوا يصرخون.. الموت للكفر..
الموت للإلحاد. لم يتركوا شيئاً إلا أخذوه، وحتى حفاظات (الدلايين)
التي كانت على جسد الرضيع، انتزعوها.. كنا نصرخ وبصرخون،
نحاول الهرب، ولا نستطيع، وحين استطعت في النهاية أن أعثر على

حمار أعرج وأنجو به، كنت بلا عين ولا حواجب كما ترون، ولا أعرف ما حدث لتوأمي وزوجته، والقرية التي كانت تحترق من خلفي.

كان الآن يبكي بعينه الوحيدة، ومحجر العين المفقوعة، الذي لا أعرف من أين يأتي بالدمع، وأسئلة الحاكم ليست رحيمة، أسئلة المهتر حين يحاول الثبات على مقعد متحرك:

- وهل كان (المتقي) قائد الثورة هناك؟

- لا أعرف يا سيدي.. كانوا كلهم ملثمين وجوعى ومختلين، كلهم المتقي.. كلهم المتقي.. كلهم المتقي..

أسكنه الحاكم بصعوبة شديدة، عطف على عينه بشدة، حين غطاها بمنديل معطر أخرجه من جيبه، عطف على حزنه حين نعى إلى الأمة في مدينة السور وضواحيها، أخاه منصرً وعائلته الذين ذهبوا شهداء من أجل الوطن، بالرغم من عدم يقينه بموئهم. وفي قرار مرتجل ألقاه بصوته السلطوي، وطلب مني تدوينه على ورقة وإرساله إلى جماعة (الذكرى والتاريخ) لتسجيله على الحوائط، أعفى بائع الروب والخميرة من مشقة طلب الرزق، وإنه منذ اليوم مرتزقاً أساسياً من مرتزقي الحكومة، حتى لو قامت الحرب وتبعثرت الحكومة. وفي قرار آخر طلب مني عدم تدوينه، ربما لغرابته وعدم ملاءمته لجو المأساة المسيطر، أمر بائع الروب أن يرتدي حلة جديدة، ويتعطر بالمسك، ويمشي في السوق جيئةً وذهاباً وهو يتتسم. كان عطايا يتلملم ليمضي، حين عادت الملكة نديمة مشغول. كانت بلا إعياء حيث دلقت في حوض الورد - و برفقة امرأة شديدة النحول كأنها لا أحد. أجلسها على مقعد أماننا وهي تقول:

- ها هي محاسن الجرداء أم العيال السبعة.. اسألوها.

لم تكن ثمة أسئلة ولا أجوبة، لأن الجرداء كانت تبكي وتتلاشى،
تبكي وتتلاشى، حتى تحولت في النهاية إلى مجرد بكاء خالص على
مقعد.

كان خمسة مواطنون من أهل (السور)، قد اقتحموا ركننا المنعزل
بغثة بعد أن تملصوا من الحراسة الواهنة التي وضعها الحاكم على الباب،
كان بعضهم مجروحاً في وجهه، بعضهم في يده، وأحدهم يعرج بساق
ملفوفة بالخرق. عرفتهم جميعاً على الفور، كانوا (مهيمن) الكذاب
المعروف في المدينة، وعدد من أصدقائه، وقد جاءوا مشحونين
بالخيليات عن وقائع لم يكونوا طرفاً فيها أبداً. تحدثوا عن الجهاديين
كما يتحدثون عن جيران وأقرباء، وعن المتقي قائد الثورة، كما
يتحدثون عن كلب ينبج في حوش بيت. استمعنا إليهم بدافع السرية
عن النفس، وطردناهم حين بدأوا يضحمون الخيال، ويجرون إلى
حديثهم آراء عنصرية، ونقاطاً حساسة في السياسة، لا ينبغي أن تأتي
على السنة كذابين.

- مسألة حياة أو موت.

تركّت أبي يرددها مراراً، يمررها أمام يده اليسرى، ويحاول
ربطها بالإصبع وخاتم الزواج، وأمي تستغرب بها، وتسعى إلى تفصيلها
الذي نالته مني وارتعب وجهها. ولا بد أن حياة كاملة عاشتها، وحياة
أخرى لا تستطيع الجزم أنها ستعيشها، قد طافتا بذهنها في تلك
اللحظة. رأيتها تتأرجح في البيت كطائر محتضر، ترفع مقعداً وتخفضه،
تفتح نافذة محكمة، وتعود لإغلاقها، تفرش ملاءة على سرير، وتزيلها
بعد برهة، وشممت رائحة طبخها المحترق لأول مرة. تسألني عن مصير
أخي (رزق) الذي يتدرب في الجيش، ولا يأتي إلا مرتين في الشهر،
وأقول.. لم تقم الحرب بعد حتى يموت أحد.

كانت غرفتي التي دخلت إليها بعد أن هدأت أمي، وكذبت عليها بمخارج وحلول لم اكن أملكها حقيقة ولا يملكها أحد، مرتبة بعناية، الملاءة على السرير وردية، أغطية الوسائد وردية، وعلى طاولة الخشب النظيفة الموضوعة في أحد الأركان، توجد بعض الكتب في الشعر والتاريخ، وأصول الحسابات، وكان يوجد وجه حميلة.

كان في الواقع رسماً متقناً لذلك الوجه المتقن، بريشة العبقري الراحل (لسام كوستاوي) الذي كان مجنوناً يرسم الغبار والحفر، وضجة الشوارع، وبعور الإبل والحمير ساعة خروجهما، وفي أوقات نادرة، قد يرسم فتاة يانعة بأنياب ذئب، أو امرأة عجوزاً بمنقار طائر (سمبر) أو بقرة مكتملة الأنوثة لها خواص ثور مهتاج. وقد عثرت على ذلك الرسم بين أوراقه، حين مات فجأة منذ تسعة أشهر في الطريق العام، وتولت الحكومة نفقات غسيله ودفنه وطمس سيرته إلى الأبد، وكنت محظوظاً للغاية، لأن الرسام لم يكمل لوحته كما يبدو، لم يصف إليها منكراً يضيع فيه بماء حميلة. كنت أنتقل بين العينين المشعيتين، والحاجبين الهاليتين، والفم الشهوي، كما أنتقل في حديقة، أتوقف قليلاً عند شامة مخترعة على الخد الأيمن، وأعود لأبدأ الجولة من جديد. كنت منبهراً، ولم أشأ أن أسأل نفسي أبداً، ولا سألت صاحبة الوجه، كيف عثر عليها الرسام، أو عثرت عليه، ليرسمها. أغرتني تلك الحديقة بالنش في خزانتي الخشبية، واستخراج دفتر الرسام الذي احتفظت به أيضاً بعد أن انتزعت منه حميلتي، ولم أضعه. كان قديماً ومن ورق أصفر لكنه متماسك، أخذته أقلبه ورقة ورقة، أشم رائحة بعر متخثر في لوحة، ورائحة صفاء حمري في لوحة أخرى، وعثرت لدهشتي الشديدة على لوحة تمثل مقهى (خزي العين)، ليس الذي نعرفه، ولكن الذي ورد إلى ذهن الرسام وهو يعمل. كان بطاولات ممزقة، وعمال صرعى وزبائن

لهم ملامح جراد صحراوي، وورد أبيض مطرز بالدم، وكانت صاحبتها
الملكة التافهة الحبيبة، باركة على ركبتيها، تحت شجرة من حديد، وفي
بدها غصن نعناع أصفر.

تأملت واندھشت.

قرأت.. خزي العين الذي قد يكون.. وارتعبت.

كان كوستاوي المجنون في الواقع، قد رسم الحرب قبل أن تأتي
إرهاصاتها بزم طويل.. رسم خزي العين، وكان يرسم المدينة.. يرسم
الوطن كله.

كان نعاس القيلولة الذي أردت أن أنعسه، لأواصل التوتر بعد
ذلك، قد طار بلا رجعة، وعلى سرير خلته قد فرش بالجمر واللهب،
أخذت أنشوي وأفكر. في المساء سألتقي بخميلة التي لا بد أنها تعرف
الآن ما يحدث، وقد كان والدها معنا، وخرج راضياً بعبارة (ما ترونه
مناسباً) التي أهدها له الحاكم في لحظة اضطراب. لم أكن أنوي
مغازلتها، أو جرّها إلى نزهة المستقبل التي اعتدنا أن نبدأ بها اللقاء في
كل مرة. لن نبني بيتنا المتخيل في حي (نسمة) الحديد الذي اشترت فيه
أرضاً بالفعل. لن نسمي ولداً (منون) تيمناً بوالدها، ولن نسمي بنتاً
(مريا)، تيمناً بوالدي، ولكن أردت أن أمتلي بتلك الحديقة الحية، حتى
إذا ما قامت الحرب، وضعت في سوءها، أضيع بعينين ممتلئتين.

- 4 -

كانت المهمة التي كلفني بها الحاكم (يوسف دامير) قاسية جداً، لكنني اعتدت على قسوة المهام، وإنجازها بكفاءة مهما تشعبت. ومنذ خلفت والدي في مهنة تجميع ثروات الحكومة، وتحديد مسار إنفاقها، وأنا أستعذب المشاق، أسافر إلى القرى والوديان، والسفوح التي بها زراعة ورعي، أو أغوص في أحياء مزرية في المدينة، بحثاً عن رماد ثروة قد يكون منثوراً هنا وهناك. لست شحيح المدينة الأول، كما دَوَّنت أحبار جماعة الذكري والتاريخ، وكما تغمس الألسنة حين يمر فرسي العبَّار في مكان ما، ولكن حريصاً، وحارساً أكيداً ضد الخلل والتبذير. وحين أحلس إلى نفسي أحياناً، أعد ما أنجزه حرصي وتوجيهي السليم من آبار نقية للمياه، وطلبات حديثة للري، ومرابط للدواب في الأسواق، وحتى مساحات خضراء للتنفس، أحس بالزهو، وأستغرب، كيف طاش مني لقب (البكوية) حتى الآن؟.. وكيف لم يضعوني حاكماً للإقليم مكان ذلك التركي المتغطرس، صاحب النزوات يوسف دامير؟. لم أكن أحسده حقيقة، لكن مجرد استغراب.. مجرد استغراب فقط.

سميت مهمتي بمهمة التأكد، وصدر فيها مرسوم رسمي من مكتب الحاكم دامير، وكانت في الحقيقة، مهمة غير محددة الملامح، كان علي أن أصدق بذهني كله، لأعثر على ملامحها وسط الضباب. أحضرت أوراقاً وقلماً، وبدأت في التحديق بما ظننته خيوطاً قد تقودني، ثم

خرجت إلى الطريق. كانت أحبار جماعة (الذكرى والتاريخ) السرية، قد عثت أشياء كثيرة وقديمة من حوائط المدينة، وكتبت مكانها إرهابات الحرب، كتبت عن عطايا، ولد الحكومة الجديد وذلك المستقبل المجيد الذي ينتظره، واستعانت برسام مبتدئ ليرسمه بلا حاجبين ولا عين، وعلى فمه عظم جاف من عظام الكلاب، كتبت عن الجرداء أم العيال السبعة، تلك التي تلاشت، وجفت في (خزي العين) من دون أن تعطي ضوءاً أو ملامح طريق، ونوّهت في تعليق بذيء عن إمكانية الاستفادة من الملكة التافهة (نديمة مشغول)، بتسليطها لغواية المتقي، قائد ثورة الجهاديين وتحويل ثورته إلى مجرد غريزة من غرائز الجسد. وفي حائط مجلس المدينة بالتحديد، عثرت على رسم مستهزئ للبيغاء الإفريقي (كيكور)، ومنقاره ملتصق بفم متورم الشفتين لامرأة زنجية، بينما وجه قريب الشبه بوجه الحاكم، منكفئاً على الأرض، يلحسها في تلذذ، وقد كتب تحت الرسم.. هكذا تدار الأمور في زمن الحرب.

بدأت بحمي (ونسة) الذي كان برغم وعورته، واتساخه الشديد، مسوداً هاماً من موارد الثروة، ولعله المورد الوحيد الذي لا يتأثر بشح الأمطار، أو هلاك الماشية، ولا يملك عذراً من تلك الأعذار التي يسوقها دافعوا الضرائب كلما ملّوا، أو استسحقوا يد الحكومة الطويلة، وهي تلاحقهم. لم أكن قد دخلت الحي منذ مدة طويلة وكنت من رواده في شبابي المبكر، وقبل أن ألتحق بتلك الوظيفة الهامة، حيث أكتفي مندوبين أقل شأنًا، يخوضون في وحله حتى القاع، ويعودون بالحصاد.

كنت أبحث عن (ولهان الخمري) تاجر المنكر والرغبة، أتأكد من إغلاقه لتجارته، واستعداداته ليكون قليل الذوق الرسمي في الحرب القادمة. لم تكن فكاهة من فم حاكم، لم يكن فكهاً في أي يوم من

الأيام ولكنه أمر، ووظيفة لها مزايا وظائف الحكومة كلها، من راتب شهري، ومعاش تقاعدي لو بقيت الحكومة حتى يتقاعد سفيه مثل (ولهان)، لا يعرف أحد شبابه من شيخوخته. ورغم أنني لم أفهم حتى الآن، كيف سيؤدي (ولهان) تلك المهمة الغريبة، وما هي مداخله إليها، إلا أنني قررت أن أتأكد على الأقل من تطبيق بندها الأول.. إغلاق بيت الفساد.

كان الحسي مغبراً بتراب قدر، ومكتظاً بالخرائب التي كانت في الواقع، نساء بلا مكونات، إلا تلك التي يكونها الليل حين يستر، والغرائز حين تجتهد. كن ممزقات وعاريات، ويجلسن على مقاعد منخفضة من الحبال، أمام بيوت أضيق من نعال طفل. وعلى طول مساحة الحسي التي خضتها على ظهر فرسي (العبار)، كنت أشاهد رجالاً يرطنون في تلذذ، رجالاً يتلمسون بهاراً للإثارة في جلد ميت، ورجالاً يحتضنون الأسى، ويدخلون به إلى تلك الشقوق الضيقة. تعرف علي الكثيرون، وتعرفت على الكثيرين، وسمعت واحدة تطالبني بإعفائها من الضريبة، لأن رحمها انقلب فجأة في ساعة نحس.

كان ولهان الخمرى موجوداً، ويجلس على باب بيته الذي علقت عليه لافتة كتب عليها.. مغلق مؤقتاً لتحديد الروح، وكانت عبارة فيها تحذ، حيث لم يرد تحديد الروح ضمن مهمته الجديدة، وصدر الأمر بسحب ترخيصه لا تعليقه المؤقت.

هتفت:

- مغلق لسحب الترخيص.

كان قد رأي وهب واقفاً، رأيت نار (الرجيلة) التي كان يدخنها تحبو، وعلامات استياء بلا حصر، تتكون على وجهه الهرموني. وحتى على فمه حين فتحه ليخاطبني:

- ليس من حقكم سحب ترخيصي يا جنتل.. لست قليلاً
للأدب، ولكن صاحب مهنة، أدفع ضرائبي باستمرار، ولدي قوارير
جديدة، سأضيفها إلى بناتي اللطيفات قريباً. فقط فلتبعد الحرب..
أبعدي عني يا حرب.. أبعدي..

ورفع يديه أمام وجهه كمن يتقي سيفاً مسنوناً. وكان في الواقع
يهش جيشاً من الذباب تجمع أمام وجهه.

لم تعجبني عبارة الجنتل التي أطلقها علي، ولا عبارة القوارير التي
أطلقها على خامات تجارته البذيفة، كنت أقفز عن ظهر فرسي العُبار،
أضع في يديه ورقة التكليف الرسمية، وعلى بابه شمعاً أحمر بعد أن أزلت
تعدد الروح، ويأتيني صوت قواريره المنهكات من الداخل، وهن ينقرن
على طبل من الصفيح، ويغنين:

لا تلم يا لائم.

نحن ذكرى حمائم.

الحياة لعوبه

والهوى أكذوبه

والذي في قلبي

ضحكة مثقوبه.

كدت أبكي من شجن الغناء ومصير أولئك التعيسات، أحث
فرسي على المضي بأقصى سرعة، وأسمع صوته نائحاً على ظهري:
- ظلم.. ظلم. خراب بيوت.

وصلت إلى حي (كف عفريت) الذي كان يسكنه الفرّاش
(التقلاوي ديدام) الذي تحدثت الأخبار المستقاة من (خزي العين) عن
انضمامه للجهاديين، بعد أن شهدت عرسه المهوروس في تلك الليلة،
واختفى. كانت قراءات قادة الجيش، خاصة القائمقام (موسى

عرديب)، قد أكدت على وجود خامات عسكرية فذة في ذلك الحي، ونحتاجها بشدة لتطعيم جيشنا الهزيل. وملء فراغات جنود تقدموا أو شاخوا، وهم مدنيين في ثياب عسكرية. ومنذ اليوم التالي لتلقينا إرهابات الحرب، بدأت حملات لم الخامات، وإرسالها لتصل في معسكر للتدريب، كان قد أنشئ في أحد أركان المدينة، حيث أخي رزق يتلقى تدريباته الأولية طوعية.

كانت مهمتي هناك أن أتأكد من انسجام أهل الحي مع تلك المستجدات، عن استعدادهم، وتعاونهم، ومدنا بما نريد من دون مشاكل. وكانوا حقيقة في قمة السخاء، بالرغم من ازدياد الحكومة لحيمهم لزمن طويل، باعتباره حياً بلا ثروة.. حياً بلا أمل. أمدونا باليافعين، والمراهقين، والذين في فورة الشباب، وحتى بكهول كانوا يحملون أجساد موتى، وأحلام بطولات قديمة لم تمنح لهم فرصة خوضها أبداً. وكان تلاهما غير عادي، حين اقتربت مني قافلة من النساء الشابات، يعرضن خدماتهن كمتطوعات في الجيش، إن كنا بحاجة إليهن.

تأكدت من زاد (كف عفريت)، وزاد حي (الموارد) وحي (أرض الكوثر) الذي كان أكوماً من الحصى، وقيزاناً من الرمال، لا يسكنها الفقر حقيقة، لكنه اخترعها، وزاد أحياء أخرى، مررت عليها سريعاً برفقة صديقي (العبار).

حين وصلت إلى حي (آل حسان) الذي تقطنه قبيلة تحمل نفس الاسم ولا تسمح لأحد آخر باختراقه، حتى للتحية والسلام، فوجئت بشدة. لم يكن ثمة جنود من أولئك الذين أرسلوا للم خامات افتداء المدينة، متركزين هناك، ولكن سكان الحي كلهم، بما فيهم النساء والأطفال والذين يقتربون من حافة القبر، وقد تجمعوا في وسطه، يشهدون سباقاً ضخماً للحمير، وهم يصفقون، ويتصايحون..

اركض يا بغل.. اركض يا جبندي.. حمار وسخ.. تف.
طرودني بما يشبه المظاهرة الصاخبة، وعادوا إلى لهوهم الغريب،
وخرجت وأنا أستغرب من مدينة قد تموت فجأة وفي جوفها مهرجان
لسباق الحمير.

المناطق الآمنة من ثقافة الحرب.. والخنادق المحفورة تحت الأرض
حتى لو كانت جروحا، فهي جروح ممحذة.
هكذا ردد الحاكم أمامي وأمام من يهمهم الأمر، وكان علي أن
أتأكد.

كانت ساحة المجد التي تتوسط مدينة (السور)، فيما مضى،
مساحة جرداء، قيل أنها كانت مهبطاً للقوافل التي تأتي بمواد التجارة
والسائحين، في أزمان بعيدة، وفي الفترة التي تولى فيها والدي أمر جمع
الثروات وإنفاقها، في المدينة، غرسها بالعشب الأخضر وتركها لمياه
المطر، تسقيها في موسم الخريف، وجاء دوري بعد ذلك لأضيف زهوراً
وورداً، وأشجار نيم وارفة وبهية الظلال، وتحول تلك المساحة الجرداء
إلى متنفس للهواء، ودواء طارداً للبوُس في ساعة البوس.

الآن ساحة المجد، تعود إلى سابق عهدها القديم، ليست مساحة
جرداء فقط، ولكن حفرة ضخمة، ينبش فيها العمال المستنفرون من
كل صوب، حيث تم اختيارها مكاناً آمناً قد يأوي إليه نصف سكان
المدينة من النساء والعجزة والأطفال حين تزفر الحرب، لم أرد أن أتخسر
عليها باعتبارها روضة كنا نفخر بها، نتنفس فيها هواء نقياً، ونقدمها
للضيوف حين يأتينا ضيوف، ولكن أباركها، أتمنى لها التوفيق في
مهمتها الجديدة.

لم تكن ملاحقة (ما ترونه مناسباً)، العبارة التي ألقى بها الحاكم
تلك الليلة، أمام صهري (جماري)، وزملائه التحار في لحظة اضطراب

أو نفاق لا أدري، من ضمن مهمة التأكد التي فصلت لي، لكن وبفضول لم أستطع قهره، أردت ملاحظتها.

دخلت إلى السوق الكبير، الذي ولد بولادة المدينة منذ قرون، ويضيف إليه الزمن في كل مرة طعماً جديداً، أو رائحة جديدة. كان اسمه فيما مضى، سوق (حمزة وابنه)، لكن الأوراق الرسمية التي ظهرت بظهور الحكومات المؤسسة بعد ذلك، لم تستغ ذلك الاسم، أو لعلها لم تعثر على ذلك الحمزة وابنه، وسلالتهما اللاحقة، وسط تاريخ المدينة الشفاهي والمكتوب، فسمته السوق الكبير من دون إلصاقه بأحد، بينما ترك سوق هام آخر، هو سوق (أبي جهل) الشعبي، مرتدياً اسمه الذي ولد به من دون تغيير. وأذكر إنني بحثت كثيراً في ذلك الاسم، ليس بحثاً رسمياً ولكن بحث الفضول الذي أراد أن يعرف من حمزة ومن ابنه. اعتمدت على سلالات الأعراب الذين كانوا قادة قوافل ومكارين، وبعض كتب الأوروبيين الذين عبروا بالمنطقة ذات يوم، وتسوقوا من حمزة وابنه، ولم أعثر في النهاية على شيء.

كان السوق الكبير، قد أعيد تخطيطه وتنظيمه عشرات المرات، حتى بدا بمظهره الذي أطالعه الآن. كان ممتلئاً بالتجارة، وتفرعات التجارة، وكل ما يمت للتجارة بصلة، مواد الغذاء من ذرة وقمح وشعير، وحميض، وزيت، وحتى سمك التونة، والرنبجة المحففة. قماش الألبسة من تيترون وبوبلين وكستور ودبلان، وحتى حراير الملكات التي تأتي من مصر وأوروبا، وبلاد الرافدين، لتعانق الأجساد الأرستقراطية.. الخمر المعتقة، في قواريرها المضلعة، والتي تباع غالية، ولأمزجة محدودة للغاية.. البهارات.. مواد البناء.. العطور من مسك، وصندل ومخلط، ودهن عود وحتى عطر (ميتر - موي) الغالي، وعطر (هابي دريمز)

النسائي، الذي ينام برفقة سبعة أحلام سعيدة فقط، في المدينة كلها، من
بينها أحلام خطيبتي حميلة جماري.

ما ترونه مناسباً، عند منون جماري وزملائه من تجار المحاصيل،
الأحولة شبه فارغة على أرضيات نظيفة، والأهالي يتزاحمون من هلع
وليس من جوع، والعمال بسواعد قوية ومجتهدة، ينقلون الشبع إلى
أماكن ركوده واستعلائه، من دون إحساس بأنهم ينقلون الحياة.

ما ترونه مناسباً في دكاكين القماش.. سعر اليوم ليس سعر
الأمس، لا نبيع الصوف هذه الأيام، لا نبيع التيترون.. ليس لدينا قطعة
واحدة من الكستور سيدتي.

ما ترونه مناسباً، صلصة الطماطم شحيحة، الزيت يباع بالرطل
الغالي، وليس بالزجاجة ذات الثلاثة أرطال، التي لم تكن حتى بسعر
صنف الرطل، صنادل الجلد المصنوعة من جلود الثعالب، والغزلان
وآفات البراري، والتي كانت عاراً للأرجل التي ترتديها فيما مضى،
الآن في لحظة سمو غريبة. لحم الضأن في الواقع ليس لحم ضأن، ولكن
لحم إبل عفنة، وابتسامات الرضى على وجوه التجار، مثيرات بلا
حدود لبذاءة السخط عند المشتريين..

سمعت: اللعنة.. أين الحكومة؟

سمعت: نتنظر الحرب.. نتنظر الجهاديين.. عاش الجهاديون...
حال أفضل من حال.

ورأيت (فندوري) الإغريقي، تاجر الخمور المعتقة التي يجلبها من
(البلتيرا) بتكاليف باهظة، يبدو تاجراً عادلاً ووحيداً في عدالته، أمام
ذلك الجشع العام، كان يعرض بضاعته بأقل من هذيانها القديم، وربما
بصنف ذلك الهذيان، ورأيت عدداً من مدمني الخمور البلدية الرخيصة،
لم تكن أحلامهم تتسكع فيما مضى أمام محله، يتراكضون الآن،

يجمعون دنائير من جيوب بعضهم البعض، ويحتضنون قوارير الشراب المضلعة، كما يحتضنون ثروة.

لم أفاجأ حين لحت (عطايا) بائع الروب والخميرة، متجدداً في الثوب والعمامة، وغطاء عينه المفقودة، يتنزه بين القحط والغلاء، ويبتسم. لم يكن قطعاً مرسوماً هكذا بريشة اختياره، ولكن بريشة الحاكم دامير الذي لم أفهم قصده أبداً من تحويل مأساة البائع الفقير إلى تلك اللوحة المشوهة.

كان البكباشي صبير، واقفاً أمام محل (عوزي إيزاك) لتجارة الذهب، حين اقتربت منه، يستبدل خاتم زواجه من الملكة نديمة، للمرة الثامنة والثمانين، وقد اعتاد أن يفعل ذلك مرة كل عدة أشهر، حين تختفي نقشة قديمة، وتحل مكانها نقشة جديدة. سمعت اليهودي يخبره بالفاظ مرتعشة، إن سعر الذهب قد ارتفع عالمياً، وعليه أن يدفع فرق النقشة الجديدة بناء على السعر الجديد. كان ثابتاً، ومغامراً، حين لم يعبأ بتذمر جيبه، وحين دفع، وكان في الواقع يدفع حصاد عمره نلته في زمن مضطرب، ومن أجل امرأة لم تكن تعتبره هاجساً فقط، ولكن تشتمه حتى حين تشتم جذوع الأشجار الميتة.

قلت..

أحسدك على ثباتك في الحب.

وكنت أعني عدم ثباته العسكري، حتى في تلك المناوشات الصغيرة التي كانت تحدث هنا وهناك أيام خدمته، ونيله لوسام الشجاعة من دون شجاعة.

رد:

وأحسدك على كل شيء.

تلك اللحظة فاجأني اليهودي إيزاك، بأن جرتني إلى داخل المحل، أحضر من خزانة خاصة مطعمة بالنقوش، خاتماً بثلاث فواريص لامعة لم أر مثله أبداً من قبل، لم أقل كم سعره، ولكن حشرته في جيبي على الفور، ودفعت لليهودي ما طلب من دون مساومة، كان عيد ميلاد (حميلة) العشرين يقترب، وكان علي أن أهديها شيئاً مميزاً، حتى لو كان ذلك في وقت عصيب كالذي نعيشه تلك الأيام.

الآن يأتي دور سوق (أبي جهل) الشعبي، في مهمة التأكد. السوق الذي لن يقع في تقديري، تحت عبارة (ما ترونه مناسباً) التي اصطادها الكبار، وحولوها إلى صفقة بين ليلة وضحاها، ولكن قد يظل رحيماً كما هو دائماً. دخلت إليه بذلك التقدير، وكنت مخطئاً بشدة. واكتشف لأول مرة، إن ذلك السوق الذي ترحمه ضرائبنا، وتغفر له زلات التأخير، أو عدم الدفع باعتباره سوقاً مسكيناً، ويرعى المساكين، كان في الواقع وركاً دسماً من أوراك السوق الكبير، وأولئك الباعة الهامشين، الذين يحاصرون الداخلين والخارجين بنداؤهم، يسفون (التمباك) ويصقون قذارته على السلع، كانوا مجرد عمال لدى سادة السوق الكبير.. وتلك المسكنة، كانت جزءاً من وظائف فصلت لهم ليرتدوها.

ليس لدينا بن حبشي هذه الأيام يا أختي.
مسابح اللالوب والخرز.. غير متوفرة للأسف.
مروا علينا بعد عدة أيام.

هنا كان يعمل عبّادي طلسم الذي وردت سيرته في حزني العين، كأمر جهادي محتمل، وتلك السلع التي تتوارى عن الأنظار الآن، كانت ثقافة حملها على ظهره لسنوات. وهنا كان فقر المدينة يتسكع، ويستطيع أن يشتري، والآن لا شيء يغري بالتسكع، ولا قدرة على

الشراء. كانت (ما ترونه مناسباً) الشعبية هنا، هي نفسها الأرستقراطية في السوق الكبير.

حدقت في مهمة التأكد بعد تلك الساعات الطويلة من الدوران، وعثرت على أهم ما فيها، وكدت أنساه. كانت مدينة (السور) محاطة بغابات شجر السنط المتشابكة التي لا تسمح بالمرور حتى لثعلب، وقد نجح الذين أنشأوها فيما يبدو، في إنشاء مدخل واحد، بعد أن قضوا على الغابة التي كانت تمتلكه، وأثناء وجودنا فيها، أزيلت بقية الغابات واحدة بعد أخرى، في مهمة كانت شاقة وعسيرة، ووصفتها جماعة الذكرى والتاريخ، بالإعدامات. والتصفيات بلا رحمة، كانت المعضلة حقيقة، في عري المدينة أمام شهوة الجهاديين، في انكشاف عورتها من كل الجهات ولا يستطيع أحد أن يعيد ثياب السنط القديمة، أو يفصل لها ثيابا جديدة من أي نوع، تواجه بها الغزاة.

قال الحاكم دامير للقائد موسى عرديب، وهو في منتهى الصرامة، لا يعطي فمه حتى شبح ابتسامة:

- تخيلها جدتك أيها القائد، وفصل سراويلها، تخيلها امرأتك، والشتاء على الأبواب، ماذا كنت تفعل من أجل امرأتك؟

ويبدو أن القائد قد ارتعب من مجرد تلك الفكرة البذيئة، وكانت أن وردت إليه فكرة حفر الخنادق ككساء ممكن لستر العورة، ليس عبورة المدينة كلها ولكن مدخلين فقط كانا الأكثر استخداما، الأكثر ربطا ببقية القرى والمدن، وهما بلا جدال، مدخلا الجهاديين إلى مدينة السور.. قال وهو يخاطبني، حين وقفت أمامه، أشاهد مئات السواعد، تحفر الأرض، وعملاً الحفر بالقش:

- هل تظن هذا ينجح يا سيدي؟

قلت وفي صوتي رنة اكتئاب، وأعرف إن حفر الخنادق وتمويهها
بالقش، كانت من أبجديات أي حرب ومنذ عرفت الناس الحروب،
ولن تصلح أبداً كقفخاخ صيد لأحد، إضافة إلى أن بعض قادة الثورة
الذين كانوا من أبناء السور، لن يكونوا جرأداً في مداخل ألفوا تعرجاتها
وحفرها.

- أتمنى ذلك يا سيدي.

وكنتم أفكر في كتاب (فاسكو) العسكري، وكيف وصفه
الحاكم بالسخيف.

أحسست بأن فرسي العبار قد تعب، كما تعبت، وإنه يود أن
يقضي حاجته كما أود، عرجت على (خزي العين) الذي يبدو أنه
أصبح محطة أثيرة لدي في زمن الاضطراب.. وأحسست بالغبطة حين
وجدته ذلك الذي أعرفه، وليس الذي ورد في لوحة الرسام الراحل.
الطاولات كما هي مغطاة بوبر إبلها الناعم. الورد الأبيض والبنفسجي،
ورائحة البخور العطن، جنباً إلى جنب مع الرائحة التي يضخها تبغ
الدردار الخشن. ولفت نظري أولئك العمال الذين كانوا يعيدون إحياء
مسرح (جريح) الغنائي، بعد أن أعدموه تلك الليلة، وبناء على مزاج
عكر لصاحبة المقهى، وجريح نفسه متهندم في قميص أحمر، ويساهم في
تثبيت الستائر الوردية.

كانت (نديمة مشغول) مبتسمة، وشديدة البهاء، في ثوب أزرق
له أكمام فراشة من لهب. كان ثوباً جديداً على نظري لم أره من
قبل، ولا بد ثوب عيد أو مناسبة سعيدة أخرى.. كانت تمازح
عمدة ريفياً بدا مهتراً أمام تلك الأسطورة، ويمسح ريالة تطل من
حلقه بلا توقف، بكم ثوبه.. تقول.. أهديك عيني يا شيخ العمدة،
وهديني تلك الشامة التي على خدك. ويرفع يده محاولاً انتزاع ورم

جلدي بلون الفحم، لاصقاً بجذده. كانت دهشتي عظيمة حين رفعت يدها اليسرى، أراحت بها خصلة للشعر، حطت على عينها، ولحت ذلك الخاتم الذي اشتراه البكباشي صبير بمدخرات عمره، منذ عدة ساعات فقط، يحتل موضعه في الإصبع الرابع لليد، حيث أصرطلح أن يلبس خاتم الزواج، وحيث ما تزال ذاكرة أبي تحوم ولا تحط عليه.

صحت مندهشاً:

- ما هذا يا ملكة؟ هل ستزوجين البكباشي صبير؟
الابتسامة لم تتغير، والثوب الأزرق المطرز باللهب، ثوب فتاة غريبة، وخجلة، وحتى اللعثة نفسها:
- نعم.. سأزوجه.

- وكيف ذلك؟.. كيف يا ملكة؟

- لن تفهمي يا بك.. لن يفهمي أحد.

وفي ركن بعيد عن عيون زبائنها، وآذانهم، وأخذتني إليه من يدي، نزعنت ابتسامتها، ألقنتها بعيداً، وظلت تبكي حتى خلعتها خلقت باكية، خلعتها الجرداء أم العيال السبعة، وقد تتلاشى في أي لحظة. كانت لا تحب البكباشي حقيقة، لا تحب رائحة عرقه، ولا صبغة شعره، ولا فتافيت قلبه المحطم، ولا توافه سيرته العسكرية التي تعتبرها سيرة سخل، لكنها قاست المسافة بين اليوم والغد ووجدتها لا مسافة، بين ترربعها كملكة، وتعريضها كغنيمة بلا مستقبل، في بيت سبي، وفضلت أن تؤخذ امرأة رجل، لا امرأة شوارع وأجبار بذينة مكتوبة على الحوائط، والرجل الذي أنفق قلبه في حبها لأكثر من عشرة أعوام، وثبت بوقار أمام خاتم امتص ثروته كلها، قد يموت من أجلها إذا ناداه الموت من أجلها.

كفى.. أرجوك.. كفى يا ميخائيل بك.. زفوني إلى البكباشي صبير.. ولا تسألوني عن شيء.

ثم التفتت إلى حيث المغني جريح، الذي كان يقف شامخاً أمام مسرحه بعد أن عاد للحياة وتنفس بالستائر الوردية، والبساط المخملي، واستعد لالتقاط أغنية الحمام التي طارت في ذلك اليوم ولم تخط:
- شكراً يا جريح.. شكراً يا صاحب القلب.

كانت في لحظة اكتئاب أو هستيريا بلا شك، والذي يعرف تلك الفارهة، يستطيع أن يقرأها بسهولة، حتى لو كتبت دواخلها بحبر سري.. كانت تخشى الموت بلا شك، تخشى السبي واعتبارها غنيمة بالرغم من عقيدتها التي لا تختلف عن عقيدة (المتقي) وأتباعه، فقط كل يحياها بطريقته، لم تعطني فرصة أخرى لأكلمها، كانت تبحث عن الريفي صاحب ورم الجلد، لتمازحه أكثر.. وكان البكباشي صبير على مدخل المقهى، يحمل سلة من السعف، تطل من داخلها قناديل ذرة شامي.

-5-

الجمعة الأولى بعد إرهابات الحرب، ومجيء المزيد من الأخبار عن وقوعها الوشيك، وقد قدم إلى السور تلك الأيام عشرات من الجوعى والمصابين، وصفوا محناً عصبية على التصديق، وكان أكثر ما يحيرني هو مبدأ العنف وعدم التفريق بين العقائد، الذي يحكيه الناس عن ثورة هبت للجهاد كما أعرف، وليس للإبادة وخراب الموارد، وترويع الناس في مدغم وقراهم الآمنة، واستنتجت أنها لا بد أخطاء يرتكبها المجندون وليست تعاليماً يمضون على هديها.

لم أحضر صلاة الجمعة بالطبع، ولا استمعت إلى خطبتها، نسبة إلى اختلاف عقيدة لا يسمح لي بالحضور، لكنني عرفتھا. كان التركي يوسف دامير، حاكم المدينة الموقر، قد توضأ، وذهب باكراً إلى مسجد (السور) الكبير، على عكس جمع سابقة أتت في عهده، كان يحضرها متكاسلاً من دون خطبة، والصلاة في المنتصف، يريد أن يتبع أهواء سيدنا (مفتاح الفلاح)، إمام المسجد الكبير شخصياً، وليس من تقارير مكتوبة قد تضيف أو تحذف شهقة أو تنفساً عميقاً يصدر من الرجل أثناء إلقائه للخطبة. كان قد كلفني بكتابة خطبة موحدة لا علاقة لها بالحرب ولا فوران الجهاديين الذي يفورون به على مقربة، وتوزيعها على كل الأئمة في المدينة بما فيهم مفتاح الفلاح، واعتذرت بشدة، لم أكن ضليعاً في عقيدة لا أعرف تعاليمها، والواقع إنني لم أكن ضليعاً حتى في عقيدتي التي ولدت بها. كنت محاسباً، ومستولاً عن ثروات

الحكومة، والآن فقط أعمل كمساعد غير رسمي للحاكم وهو يهتز في مواجهة طوفان قادم من الغيب. حين كنت في مدرسة المعلم (جبر) التي أنشئت لأبناء الأقباط منذ زمن بعيد وتعاقب عليها المعلمون، ودرست فيها المحاسبة، والرسم، وأبجديات الدين المسيحي برفقة صبيان آخرين، لم أكن جيداً في حفظ الإصحاحات والتواشيح، ولم أستوعب أبداً قصص الخطيئة والغفران، وبطولات القساوسة في القرون الوسطى، حين يرويها المعلم وهو منتشي، بعكس الأرقام التي كانت عشقي، وأجدتها بامتياز حتى صرت بهذه الأهمية. اعتذرت للحاكم بشدة، وقبل اعتذارى، وكان من السهل العثور على من يقوم بتلك المهمة، التي ليست شاقة، لكن الحاكم لم يشأ تكليف أحد آخر، ومن كتاب ديني يملكه في مكتبته الشحيحة في عدد الكتب، ولا ينفض غباره إلا نادراً، اتفقي خطبة قديمة كتبت في زمن بعيد، عممها على الجميع في مساجد السور المختلفة.

لم يكن الإمام (مفتاح الفلاح) رجلاً هاماً في نظر الحاكم وإدارة مجلس المدينة، في أوقات السلام الماضية. لم ينتقد، ولم يوجه اللوم، ولا كانت تعنيه تلك السقطات التي تسقطها الحكومة حين تلم حصاد ثرواتها من أزقة القرف وسواعد الضعف، وتلك الوديان التي لا تساعد أهلها في غرس نبتة، ولكن تقاسمهم الحصاد. رجل عادي يعيش بعادية ويؤدي مهمة ميكانيكية في الوعظ قد تدخل الأدمغة وقد لا تدخل. وفي الأخبار التي ربطت الكثيرين بالجهاديين، لم يرد اسمه، ولا كان لعمامته أي موضع وسط تلك العمام التي تضرع الشر، وتربص. والآن أستغرب من قفزته الكبيرة تلك إلى ذهن الحاكم، ولعلي من لفت إليه النظر حين استغربت من عدم دعوته إلى اجتماع ضم حتى الصعاليك، وفاقدي النخوة، ولم يضم صوتاً صالحاً كصوته.

حمت بفرسي العُبار حول الجامع الكبير، شاهدت المصلين في أزياء
الجمعة النظيفة، وشممت عطور الصلاة المكونة من المسك والعنبر،
ودهن العود، والتي لا تسكع في كثير من الأجساد، إلا في ذلك اليوم
المبارك لدى مسلمي المدينة. وقبل أن تنتهي الصلاة تماماً، وينفض
المصلون، كنت في تلك القاعة الملحقة بمكتب الحاكم أنتظر، الهواء
راكد وثقيل على التنفس، والبيغاء الإفريقي (كيكور) يصرخ بلا
توقف:

المتقي.. قليل الذوق.. ولهان.. ضميني يا مزينة.
دخل يوسف دامير فجأة بوجه متعكر، وأساير غير نقية. جلس
على أحد المقاعد في مواجهتي.
صحت:

- ماذا حدث يا سيدي؟
خلع طربوشه الأحمر الأنيق عن رأسه، ألقاه أمامه على الطاولة،
وهو يردد:

- خذلني مفتاح الفلاح.. خذلني يا ميخائيل بك.
- ماذا حدث؟

- قرأ الخطبة كما نقلتها من الكتاب، ولم يزد حرفاً واحداً.
كان كلاماً غريباً لم أفهمه، ولعلي كنت قاصر الفهم تجاهه،
فالرجل الذي التزم بما أراذته السلطة، لم يخذلها حقيقة، ولكنها كسبته،
والرجل الذي تجاهل كل إرهابات الحرب بما فيها، شح السلع
وغلاءها وإمكانية الموت جوعاً لا سحلاً تحت أقدام الجهاديين، وطيب
خاطر الحكومة في تلك الجمعة، هو رجل حكومة، وليس رجل
خذلان..

- ماذا تقصد سيدي الحاكم؟

- لن تفهم يا ميخائيل بك.. كنت أريد رجلاً بصوته الخاص، لا صوت أمنحه له.. كنت أريده صاحب رؤية وخطط لأستير به، حتى لو سبنا.. حتى لو حرض علينا الجهاديين، حتى لو خرج المصلون إلى الشوارع وهم يحملون العصي والسكاكين في وجوهنا. مفتاح الفلاح لا يصلح في هذه الأزمة، وعلينا تغييره.

لم أكن أفهم فعلاً، ولا عاودت الإلحاح سعيًا وراء ذلك الفهم.. حتى بعد أن صدر ذلك القرار السريع جداً، بإعفاء الشيخ مفتاح الفلاح هارون، من إمامة الجامع الكبير، والاكتفاء به مصلياً وسط أولئك الناس الذين ظل يعظهم لأكثر من عشرين عاماً، وتعين خلف له في غضون عدة أيام. لا بد أن الحاكم قد جن، أو رمته الأزمة بوسواس مريع.. لا بد.. هكذا فكرت، وأنا أشاهد وجهه ما يزال ساحة للوجوم، يديه تعبان بالطربوش الأبيض، تكورانه ككرة، أو تطويانه كسفينة، وكيكور الإفريقي يهتف بالإلحاح:

- مفتاح الفلاح لا يصلح.. لا يصلح..

كانت أخبار (الذكرى والتاريخ) قد عملت بكفاءة، والآن شاهدنا ونحن على ظهري حصانينا في الطريق، خطبة الجمعة قد دونت كاملة، وتحتها كتب: نقلها بغير تصرف، الإمام يوسف دامي.

- 6 -

مقهى خزي العين الفريد في مدينة (السور)، لكن الطعم مختلف،
والمدينة المضطربة تحت ثقل الغلاء والشح والهلع، وإرهاصات حرب قد
تقع في أي لحظة، على موعد مع عرس غريب، يتم في زمن غريب..
عرس الملكة التافهة الحبيبة نديمة مشغول، والعسكري الذي لم يصل إلى
قلبها أبداً.. البكباشي صبير.

أزيلت شجرة التبليدي التي كانت تموت في حوش المقهى، بمعاول
قوية ونشطة، لأن نديمة شتمتها ذات يوم، حين كانت تستفرغ،
وتظنها البكباشي صبير.

جددت مقاعد وطاولات جلس إليها على مدى أعوام طويلة،
وهو يائس وقلبه محطم، وعدلت تذكارات مريضة، كان قد كتبها على
حائط أو مقعد ذات يوم.. ولم توضع أية زينة أو إضافات مبهرجة،
لأن العرس كان متعجلاً، وفي زمن بلا زمن، وسينتهي في غضون ساعة
فقط، هي زمن الأيدي التي ستبارك، والأغنية الوحيدة التي ألّفها
قريبي (مسمى طاؤوس) خصيصاً ونال أجرها، ليؤديها جريح
وفرقتة وينتهي كل شيء. لم يكن للملكة نديمة أهل أو أقارب في
(السور) ليزفوها، ولا كان لصبير كذلك، الذي لم يكن أصلاً من
(السور)، وماتت امرأته منذ زمن بعيد.

جاء الحاكم برفقة الزوجة الرسمية التي كانت تركية بيضاء شديدة
الهزال ولا تجيد من اللغة سوى كلمات اضطرارية قليلة مثل (السلام

عليكم) و(عليكم السلام)، وليس خلية الزنج المخبأة في ذلك الركن البعيد، حيث النزوات، وجئت برفقة خطيبي (حميلة)، لأنها أرادت مشاهدة عرس، حتى لو كان بلا زينة ولا رقص ولا مرطبات، وفي زمن ليس للأعراس. كانت ترتدي زينتها كلها، وتحاول السيطرة على العيون كلها، لكنّها لم تسيطر في الواقع، سوى على عيني وحدي، حيث كانت العيون كلها مجنّدة ترفرف حول الملكة نديمة، تحاول أن تجعلها عروساً فعلية، لا صاحبة مقهى جاذب، وإمساك مزمن ودورة شهرية متعثرة.

كانوا قد منعوا (ولهان الخمري) من الدخول، حين جاء برفقة يائساته المحطّمت، وعدد آخر من خرائب حي (ونسة)، لابتكار زفة تاريخية يهدّدها للعروسين متجاهلاً تدريباته ليكون قليلاً للذوق في الحرب القادمة، منعوا (عطايا) بائع الروب المتسم في حلته الجديدة، لأن عينه كثيبة ولأن الملكة نديمة نوّعت مراراً إلى إعياها الذي حدث حين تجشأ، ووصف وجبة (تميرة التمرات)، وسمحوا للجرداء أم العيال السبعة أن تبكي وتلاشى في ركن لا يقع تحت النظر، وبصعوبة شديدة استطاع المغني (جريح)، صاحب الفقرة الوحيدة في الحفل أن يدخل، لأن جنود الخيالة الذين يحرسون المدخل، لم يسمّعوا أبداً عن مغن اسمه جريح، وأغنية اسمها (طير يا حمام.. طير فوق). ولأن قريبي (مسمى) كان شاعراً مدح شرطة الخيالة في أكثر من مناسبة من دون أجر، فقد وجدته داخل الحفل، ويحكّي للناس بترف وابتسامات عريضة، عن أغنية (الملكة نديمة) التي ألفها خصيصاً، وسيستمعون إليها بعد لحظات.

قلت لليهودي (إيزاك) وأنا شارد الذهن، حين أراد رأيي في مسألة تسييح الذهب، وتحويله إلى كتلة كبيرة، تدفن في مكان أمين حتى تنتهي الحرب:

- لا أدري.

وقلت له حين أراد تفسيراً لتلك (اللاأدري):

- لا أدري.

ابتعد في اتجاه الإغريقي (فندوري)، تاجر الخمر المعتق، غالي الثمن، ورأيتهما يتحاوران، ثم يتسمان معاً كأنهما توصلا إلى حل. في ذلك اليوم، وقبل موعد العرس بعدة ساعات، وصل بصعوبة إلى مدينة (السور) اثنان من الأتراك، كانا قادمين من الغموض، ومن حيث لا ندري إن كان ثمة نار مشتعلة أم مجرد لهب قنديل، وحننت إنهما يحملان رسالة ليوسف دامير من الإنجليزي، حاكم البلاد العام. كانا هزيلين وجائعين، ويركبان على حصانين سقطا من التعب، بمجرد توقفهما عند مجلس المدينة. كانا (أرقم) و(جاويد) أشهر رسولين في الحكومة، وأكثرهما معرفة بالطرق، وتفادياً لوعورتها وقيل يملكان حيلاً بلا حصر، وشبكة من الأعراب وقطاع الطرق، ترشدهما حتى في أشد الليالي حلكة، ولم يكونا يرسلان إلا حين تكون الرسائل مصيرية، والخطب ليس جلاءً فقط، ولكنه أكثر من ذلك، وكنت قد شاهدتهما لآخر مرة منذ سنوات طويلة، حين جاءا يحملان أمر إعفاء أبي من منصبه كجامع للثروات، وتعيين مكانه والذي كان أمراً مركزياً، لا يخضع لسلطات حاكم الإقليم. منحا وجبة سريعة من لحم ظبي مطبوخ، جاءت من بيت الحاكم على عجل، أكلا نصفها، وغطيا نصفها بمناديل ورقية، منحا وسادتين لإسناد الظهر، ومشططين من الحديد، لتدليك فروة الرأس، ومرهما من عصارة لحاء شجر السنط، يستخدم في علاج (البواسير)، ولم يمنحا شايًا أو قهوة، لأنهما ضد استهلاك الترف في الأزمنة العصيبة، كنا متوترين، أنا أعبت بشاربي، والحاكم مستخدماً يديه الاثنتين، يهش بهما ذباباً غير موجود في القاعة النظيفة الملحقة بمكتبه..

- حسنًا.. ماذا لديكما؟

- رسالة من الإمام المتقي.

رد أرقم، وإحدى يديه في جيبه.

- المتقي؟.. ما علاقتهما بالمتقي؟

التقط (جاويد) اضطراب الحاكم بابتسامة، ولعل ابتسامته كانت حادة أكثر مما ينبغي، لأن الحاكم اعتبرها خنجراً، واعتبرها نصل سكين، ومد يده يتحسس قلبه. بدأ يحكي، وزميله يدخل إلى فقرات الحكيم بين لحظة وأخرى، ليسد فجوة، أو يلقي بضوء مشتعل. كان الحاكم الإنجليزي قد أرسلهما في الواقع، لمحاولة العثور على الإمام المتقي، ومفاوضته، حين أصبحت ثورته واقعاً خطراً، وليس أحلام حالمين، كابوساً يتبخر في نهار اليقظة، وليس في عرق الحلم، وفي رحلة استغرقت ثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً، تقلبا فيها بين الجوع والعطش، وحصى المستنقعات، وبمساعدة الأعراب الرعاة، واللصوص، وقطاع الطرق، والمغامرين الذين يحكمون صحراء (شرشر) الجرداء، بأسمال وخرق بالية، وفتافيت خبز، عثرا على معسكر متأجج في إحدى القرى التي تم غزوها بواسطة الجهاديين، ودخله بسيفين حادين يلتصقان بظهريهما.

كنت أرتعد، والحاكم يرتعد، والستارة الزرقاء على النافذة ترتعد، والإفريقي (كيكور) يرتعد، يحاول التقاط اللغة ولا يقدر عليه.. يسمي المتقي.. المتكسي، يسمي السيف، ولد الطيف، ويحشر (الزينة) زنجية الحاكم، في مكان خطر، حتماً سيحجز عنقها لو حشرت فيه. الذباب غير موجود في المكان النظيف، وكلانا، أنا ويوسف دامير، نمشه بأيدينا.

أخذوهما إلى خيمة مبعثرة، قال الرسولان إنهما لم يريا في حياتهما، وحتى عند عرب (الظلمان) المعروفين برداء السكني ورداءة الترحل،

أشدُّ بؤساً منها. كانت في الواقع خيمة فقط، ولا شيء آخر. كانت محشوة بالملثمين، الذين كما يبدو، كانوا يستمعون إلى خطبة أو درس، لأن صوتاً ممتلئاً كان يفيض في المكان مردداً.. من منا لا يحب بنات الحور.. من منا لا يحب الخلود في جنة تجري من تحتها الأنهار.. من منا لا يود قتل الكفرة، من منا لا يود الوصول إلى عقر دار الكفر، ويحبته.. من منا.. لم ينقطع الدرس حتى حين حشرا في وسطه حشراً، وحين تلفتا برعب ليكتشفا مصدره، حيث كان يأتي من خيمة ملاصقة، وغير فتحتين صغيرتين، أحدثتا في الخيمتين. وحين انتهى في النهاية، واكتشف الملثمون وجودهما، وكشرت أنياب الجهاد وسيفه، انبعث الصوت مجدداً.. لا تمسوا الرسولين.. لا تمسوهما يا أحباب.. ارحلوا.. ارحلوا.

تنفست بارتياح، وأنا أتخيل تركيا الرسائل، أرقم وجاويد، قد تنفسا بنفس الارتياح في تلك اللحظة الرهيبة، هذان المغامران اللذان طالما فكرت في سبب امتهانهما لمهنة قد يسقطا فيها ذات يوم ميتين. تذكرت حميلة لثانية فقط، وفكرت.. هل كان لهما حميلتان أيضاً؟، وهل خططتا لمستقبل وردي ضاع ذات يوم، انتهت ثانية التفكير. وعدت إلى خيط الحكى ألنقطه..

فرغت الخيمة في ثوان معدودة كأنها لم تكن تحوي سواهما، وكانا وحيدين وعالقين في مواجهة الصوت الذي كان مفصلاً لربط الآلاف إلى وتده، والآن يربطهما فقط، وبنفس مقدرته الغريبة. استمعا في البداية إلى تعريف موجز عن مغزى الثورة، ليست ثورة جياع كما يظن الكفرة والملحدون، ولكنها ثورة عزة، لم تقم من أجل الدنيا، ولكن من أجل الدين، ولن تنطفئ أبداً، لأنها أوقدت بيد الحق، وليس يد الباطل..

لم تكن ثمة فرصة ليلغا رسالة الحاكم العام أو يطمحا في مفاوضة من أي نوع، وبدا إن الصوت كان يعرف، ويجلدهما بمعرفته:

- لن نرد على رأس الكفر، ومغتصب خير البلاد، لأنه هالك في القريب العاجل إن شاء الله، ولكن نملككما رسالة إلى التركي، مغتصب مدينة السور، هو من ملتنا، ولكنه عالق بأذيال الكفر.. خذا رسالتنا وارحلا في سلام.. سلام علينا وعلى المتقين، وبئس للكفر وأذياله.

انقطعت حبال الصوت، وتحررا، وجاء عدد من المثلثين، لم يمسهما أبدا، فقط سلموهما الرسالة، ثم أخرجوهما من المعسكر إلى فداحة الطريق. كانا منهكين وجائعين، وعلى قناعة تامة بأنهما التقيا بصوت المثقي، وتلك الرسالة التي سلمت لهما، هي رسالة منه بكل تأكيد.

كانت الرسالة الجمرة، في يد الرسول أرقم، ويوسف دامير لا يلمسها، يخاف أن تحرق أصابعه لو لمسها.. وبصوت مرتكب النزوات المرتعش الذي واجهني به في بيت خلية الزنج (المزينة) يوم أن حدثته عن الثور وقرونة، يردد:

- خذها أنت يا ميخائيل.. اقرأها أرجوك.. اقرأها كلها حتى لو جعلتني فاسداً.. لو جعلتني مخنثا كولهان..

لم أكن في حال أفضل من حاله بلا شك، وقد وصفه المثقي في حديثه للرسولين إن كان ذلك الصوت هو فعلاً، صوت المثقي، كواحد من الملة، لكن متسخ، بعكسي الذي قطعاً أتبع بعقيدتي القبطية، لذلك الهالك في القريب العاجل.. أنا هالك في القريب العاجل إذن، هالك بلا مستقبل وردي في ظلال (خميلة)، بلا مجد ولا أحلام ولا أي شيء آخر. كدت أبكي لكنني تماسكت، ليس من أجلي، ولكن من أجل هيبة

للكام رأيتها تتمزق أمام رسولين قد تعلق في ذهنهما ممزقة، وأود أن أرتقها، حين أرتق هيبتي الشخصية، استلمت الرسالة من يد التركي، وشممت ما ظننته رائحة مسك تفوح من ورقها الأصفر الخشن، فضضتها لأقرأ، وكانت قراءة عادية متماسكة، وكأني أقرأ قصيدة (ضمني يا حب)، للإسباني (ريماس) التي حفظتها حتى بأخطاء ترجمتها، لأن حميلة كانت تحفظها كذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

من الإمام المتقي.. قائد ثورة الجهاد، وناصر الحق، والمنادي بعزة الوطن ورفع هامته، وراياته السماء، إلى التركي، ذيل الكفار في مدينة من أنقى المدن في البلاد..
أما بعد.

(فإنه لا يصح إلا الصحيح، ولا يطل إلا ما هو باطل في الأصل ومنبوذ، وما كنا لنخاطبكم، أو نخسر دواة وحريراً لنراسلكم، إلا حقنا للدماء، وخفاة من انغراس الرمح في صدر يقول لا إله إلا الله، وإنكم قد بذرتم الثروة، وربيت الجوع، واتخذتم الغواني خليات، وجعلتم للفساد أجنحة، وللهو أمزجة، وابتعدتم عن الدين، حتى لكأن مآذن (الإستانة) تستغيث، و(الفتاح محمد)، يتململ في قبره وإنكم قد جئتم إلى البلاد أذياً، وبقيتم أذياً.. وإن العفن قد فاح حتى شمنناه، وبدأنا التطهير. سلمونا مدينة (السور) بخيرها وشرها، بطهرها ودنسها، ولكم العهد أن نطهركم، ونسقيكم المجد ونعلمكم ما خفي عنكم، ونجعلكم خدماً للعزة. سلمونا الزنديق (طلحان)، الذي تطاول علينا وعلى عقيدتنا، ونعرف بأنه يحتمي بكم. سلمونا العازبات والأرامل والمطلقات لنزوجهن من حاملي ريح الجنة، فلا حياة مجيدة لمدينة تحوم فيها الشبهات. فإن فعلتم بما أمرنا، صدقنا فيما أخبرنا، وإن لم

تفعلوا، خبتم وفزنا في الدارين.. هذه الفانية وتلك التي نشم ريحها.
يقول سيدنا وإمامنا (أبو عامر) رحمه الله:

وما تلك الحصون.. حصون مجد
يرفرف في الحضور وفي الغياب
ولكن مرتعاً في يوم بأس
توجهه الخناجر في الرقاب.

سلام على المتقين وبئس لأذيال الكفر والمنافقين).

انتهت الرسالة الجمرة، انتهت قصيدة (ريماس) الحاملة بكل
هوسها، وألغازها، وبقي سؤال ملح، كان يضغط على ذهني، وأظنه
يضغط أيضاً على ذهن الحاكم الذي بلع كل شيء ورد في الرسالة بما
فيه شعر الرقاب وجزها، وتعلم (الفتاح) في قبره، ولم يستطع أن يلعب
ذلك التساؤل:

من هو الزنديق طلحان، الذي تناول على التقي وعقيدته،
تطاولاً جعله فقرة هامة في رسالة مهووسة كهذه؟ وكيف يحتمي بنا،
وأنا لم اسمع به أبداً من قبل، ولا سمع به يوسف داميير.. الذي يحك
رأسه العاري، ويتجههم، يسألني:

- من هو الزنديق طلحان يا ميخائيل بك؟ من هو؟

كنت أفكر بضراوة، والجلسة الآن صامتة. الرسولان صامتان..
الحاكم صامت بضراوة، ولعله يفكر مثلي، والإفريقي (كيكور)، لم
يستوعب حرفاً جديداً، وصمت. من (طلحان) يا عقلي جامع
الضرائب، الذي لا ينسى حتى ماشطات الشعر، وبائعات حلوى
(المشكول) الفقيرات في هجير الشوارع، ليستخرج من فقرهن ثروة؟
كنت في الواقع، خبيراً في أسماء القبائل، خبيراً في ألقابها بحكم احتكاكي
الطويل بها أثناء تجوالي لآتي بالحصاد، التقيت بأسماء قرية الشبه باسم

ذلك الزنديق، لكنني لم ألتق باسمه أبداً، لا عند البدو ولا عند الحضرة، ولا حتى في اليهود أو هنود البنيان الذين جاءوا إلى البلاد بأسماء غريبة، وأنتمجوا أجيالاً بأسماء أغرب. في لحظة من لحظات اليأس، شككت بأنني زنديق وإن اسمي طللحان، شككت في قريسي الشاعر (مسمى طاؤوس) لأنه معتاد على اتخاذاً أسماء بذيقة وغريبة التكوين حين يواجه بمأزق، وأيضاً فيه خامات الزنادقة الذين لو دعى الأمر لترندقوا. شككت في صهري جماري، تاجر الشعبة الكبير، وحتى في القائد موسى عرديب، وإمام المسجد الذي أقبل، سيدنا (مفتاح الفلاح).

قلت وزهني مريض، والصمت على أشده..

- أمهلي بعض الوقت سيدي.. وسأعثر عليه.

كان الرسولان قد طلبا من الحاكم أن يجهز لهما مخدعاً في أي ركن من أي شارع، أو حتى إسطليل للخيل، لأن النوم لا يأتيهما أبداً في الغرف ذات الهدوء والبهرجة، ولأن الشوارع كانت متاحة ولا تحتاج إلى تجهيز، فقد خرجا ليركنا نتحاوم حول رسالة الجمر. أنا أحاول أن أعدل الهالك، أحوله إلى دعاية، والحاكم الذليل لا يحاول أن ينقطع عن جسد الهالك الأكيد، ولكن ينقب في البحث عن ضوء.

اليوم كنا على موعد مع العرس الغريب للملكة نديمة، وسنذهب ونحضر بوجهين لا يفصحان أبداً عن صدمة.. هكذا اتفقنا، سأنسى هلاكي الذي على وشك الوقوع، لأنني من ملة الهالك الذي يرقد بعيداً في عاصمة قد لا يمسهأ ضر أبداً، والنجدة تأتيها عبر بواخر النيل، وطرق السفر، وسينسى يوسف دامير مؤقتاً، إنه ذليل يعذب مأذن (الأستانة) وقبر (الفتاح)، وإنه بات مسئولاً أكثر من أي وقت مضى، عن مدينة تقترب النار من أطرافها، وتلك المعضلة الكبيرة.. معضلة الزنديق طللحان. لقد كنت في قمة الفضول برغم كل شيء، أريد أن

أعرف من ذلك الذي ذكره الموس، ربما لأصادقه أو أندھش أمامه، فقد
دخل التاريخ بلا شك، ولكن من باب يدخل منه الميتون.

أراها نجمة وسط الحضور

تلوّح بالبراءة والحرير

نديمة يا حبيبة كل قلب.

ويا نبع المدينة والغدير.

كانت الطبول تتراقص، المغني جريح ملعوناً حين يرفع صوته إلى
أعلى، ويرمي في الحضور، يرفع ويرمي، وتتزاحم حول عروسين غريبين
في زمن غريب.. مبروك يا ملكة.. مبروك يا بكباشي، وزمن الحفل قد
انتهى، ليبدأ زمن الرعب.. احتككت بقريبي مسمى طاؤوس، وهو
منتفخ يطالع المسرح الخالي حيث بقايا أغنيته ما تزال عالقة، سألته في
يأس.. هل أنت طلحان الزنديق يا مسمى؟

حذق في وجهي مندهشاً:

- طلحان الزنديق؟.. ما هذا الاسم المهلهل أخي ميخائيل؟..

أخذت (حميلة) إلى بيتها، وأنا أحسدها على أحلامها الملونة التي
حتماً ستحلمها برفقة عطر (هابي دريمز)، كنت مزروعاً في لجة
الليل، على ظهر فرسي العبار، أحذق في الظلام، ولا أعثر على شيء.

الفأس تقترب من الرأس.

والنار التي أوقدت بترف حول مدينة السور، والتهمت جزءاً كبيراً من أقاليمها، الآن لها أزرع من لب حقيقي، بدأت تخلق في المدينة بلا هودة. رجع عدد من المستكشفين الذين أرسلناهم للتقصي أو الاندساس في اللعبة ومحاولة تفكيكها، وكانوا مضخمين بالسنة تحكي المرارة، وأعصاب مهتزة بالكاد يتماسكون بها أمام الأسئلة والأجوبة، وقد أخبرتنا (حمائم رحط) التي كانت شابة من إحدى قبائل البدو، تخصصت في قراءة الكف وأجادتها، وتطوعت باختيارها للذهاب إلى منبع النار برغم اعتراضي واعتراض الحاكم، إنما أرضت فحولة مائة همجي شربوا دماءها ودموعها، ولا شيء آخر، غير ألم في الحوض، ووخز في الصدر، وأعراض مرض (الداموس) الذي كان من أمراض حي (ونسة) المتسخ.

أخبرنا آخر. إنه نجا بلا أسنان، ولم يقل ثالث شيئاً، لأنه عاد بلا لسان.

كنت أتساءل، ولا ينقطع عن ذهني التساؤل، هل فعلاً ثورة جهاديين تلك التي تشتعل وتأكلنا كحطب وقش، أم فوضى فقراء ومشتهين ومخابيل لا يفرقون بين دم ودم؟.

كنت في طريقي لزيارة (شفيق بهجت) الذي كان مصرياً مقيماً في مدينة السور منذ زمن بعيد، ويعمل في تدريس علم الانحطاط، الذي

لم يكن علماً نافعاً في رأيي ورأي الكثيرين ممن أعرفهم، ولا يجد إقبالاً كبيراً من أبناء المدينة، ودارسوه بالكاد يحصلون على لقمة العيش، ولطالما شككنا في أمر ذلك المصري، شككنا بأنه هو الذي أسس جماعة الذكرى والتاريخ، تلك الجماعة السرية، التي تزعجنا إلى حد ما، بالرغم من تعاملنا معها أحياناً، وتزويدها بالمعلومات التي نود رؤيتها على الحوايط بالقائها في الطرق، وتلتقطها أحبارهم لتدوينها بعد ذلك. لم تكن تلك الزيارة من تفصيل حاكم المدينة دامي، ولا كان سيرضى لو علم بها، ولكنّها من تفصيلي الشخصي، حيث تذكرت ذلك المدرس الغريب فجأة، وأردت أن أسأله عن مفهومه لتلك الثورة، وأيضاً إن كان يعرف زنديقاً اسمه (طلحان) ضالماً في تسمم الجور.

استقبلني المصري الذي كان أعزباً وانطوائياً لا يظهر في المدينة كثيراً، ويكن كرهاً معلناً لحكومات الدنيا كلها، في الطريق العام، رافضاً حتى أن تطأ قدمي أرض بيته الذي كان في حي (أرض الكوثر)، ذلك الحي الذي اخترعه الفقر بجدارة. نادى على غلام عابر، أعطاه بعض النقود، وكلفه بإحضار علبة من تبغ (الدردار) الخشن، وواجهني في برود وسوء ظن لم أستغربه:

- عندي خمسة تلاميذ فقط يا سيد ميخائيل.. لا أحصل منهم إلا على القليل، ولا تنطبق علي شروط دافعي الضرائب.
- لم آتي لأسألك عن ضريبة، ولكن عن ضوء.
- لست فانوساً لأضيء لأحد. أنا معلم كما تعرف.

تجاوزت عن بروده وتعاليه، وكرهي باعتباري حكومياً تافهاً يستضاف في الطرق بين السابلة، وأيضاً عن رائحة تبغه الخائفة التي تحاومت حول رئتي، ودخلت إلى تساؤلي، وفوجئت إن الرجل كان ملماً حتى بأخبار تلك الثورات التي اندلعت في أحراش إفريقيا،

وصحاري العدم، وتوئات بحر البلطيق البعيد، طاف بي في رموز وألفاز، وحدثني عن علم الانحطاط الذي تخصص فيه، باعتباره العلم الوحيد الذي من خلاله تتجادل الأمم، وتتعرف على مصائرهما، نحن نبذر الانحطاط حين نجوع الناس، حين نعريهم من كسائهم، حين نطالسهم بتأمل النجوم وكتابة شعر الغزل والتنزه في السوق والساحات الخضراء، وحين نخترع ثورة مثل ثورة المتقي التي ليست من تأليفه بالتأكيد، ولكن نحن ألقناها، وعيناه ممثلاً يؤدي دور ناثر.. لا ننظر إلى الواقع المحيط يا سيد.. ولكن حاول النظر إلى الواقع الذي يحتويه المحيط.

- وذلك الجنون في أتباعه.. تلك الأخطاء الرهيبة؟

- قد يكون ذلك من مكونات السيناريو المكتوب يا سيد، وقد يكون خروجاً عن النص، يحدث حتى في أكثر النصوص إحكاماً، عليكم بالعثور على النص الأصلي - ومقارنته بالذي يمثل أمامكم.

- وطلحان الزنديق؟.. هل تعرفه؟

- أين سمعت بذلك الاسم؟

لم يكن من المناسب أن أخبر رجلاً بمقت الحكومة صراحة، وتشك هي في أمره باعتباره محرض الحوائط الأول، بما تضمنته رسالة مهووسة وردت إلينا، لكنني كنت أحترمه بشدة في تلك اللحظة، أحترم إضاءته المحتملة لما كان خافياً، ولعله يضيء أكثر لو أضأت أكثر. لا يهمني ما قد يصدر من لوم في حقني من قبل حاكم المدينة، لو وجدت الرسالة مدونة على حائط أو مرسومة على رمل الطرق، ولكن أريد الصيد في هذه اللحظة بالذات:

- شخص طالب به المتقي في رسالة غريبة بعث بها إلى الحاكم، تطالبه أيضاً بتسليم مدينة السور حقناً للدماء.

كان المصري الانطوائي يضحك، لفافة الدردار هي الخامسة التي يشعلها وأختنق، والسعال الذي يرافق ذلك النوع من المتعة، جاف إلى أقصى حد، ولأول مرة اقترب مني، ضرب بيده على كتفي، وقال من بين ضحكاته:

- لستم أذكاء يا سيد ميخائيل ولا أستغرب أن يأكلكم المتقي في وجبة واحدة، طلحان الزنديق ذلك، ليس شخصاً من لحم ودم، كما تصورتكم ولكنه رمز.. نعم رمز لكل من ابتسم أو ضحك، أو شم عطراً أو نام أو قعد، أو صافح صديقاً، والثورة تشتعل.. باختصار شديد.. جميعنا في النار.. جميعنا طلحان الزنديق.

غادرت الانطوائي المصري، ولا أعرف حتى في أي يوم من أيام الأسبوع كنا. كنت أطلع الزنديق طلحان في السوق الكبير، في سوق (أبي جهل) الشعبي، في شوارع الحفر والغبار، في ملتقى مواصلات الريف الذي كان خالياً إلا من حمارين هزيلين، وراكبين عصبيين، يصران على الرحيل، وخزي العين المغلق بإصرار، بدواعي شهر العسل، خاطبت أبي رجائي، بلقب طلحان، وظنه اسماً جديداً لإصبع الخاتم المفقود، وسد أذنيه عن سماعه، وقلت للحاكم دامير في مكتبه وأمام الرسولين التركيين الذين كانا هناك، ويسألان عن رد الحاكم على رسالة المتقي، ليحملانه:

- لقد حللت معضلة طلحان الزنديق يا سيدي.. ولكني في الواقع عقدتها أكثر.

- وكيف ذلك؟

هتف الحاكم.. ويده كالمعتاد تمشان الذباب غير الموجود.
وباختصار وضع كل حرف في مكانه من دون زيادة، حكيت له عن إضاعة المصري بهجت، مدرس الانحطاط الذي يكرهنا ونكرهه، ولم

أحس في عيني الحاكم لوماً، أو بوادر قصاص قد يقتضيه مني، تنهد في ارتياح مؤقت.. مزق رسالة يبدو أنه كان قد شرع في كتابتها، وفي سلة للمهملات، كانت ترقد تحت مكتبه، بحث عن أكثر الأوراق اتساخاً، بصق فيها بصقة كبيرة، ثم كورها، سلمها لواحد من الرسلين التركيين قائلاً:

- هذا رد طلحان الزنديق.. خذاه للمتقي.. مع التحية والسلام.
وضعها الرسول في جيبه من دون كلمة، ونهض متبوعاً بزميله..
وخرجوا.. كنت أنظر إليهما وأكاد أدمع.. أرى رجلين لا يحملان
منكراً صريحاً فقط، ولكن كفناً متقناً، فصله لهما ذلك التركي
المتفطرس، وفي لحظة من لحظات التعالي المحتضر.
- قد يهلكا يا سيدي.

صحت..

- لا تهتم يا ميخائيل بك.. لقد هلكا في اليوم الذي غادرا فيه
العاصمة.

كان (ولهان الحمري)، ضيفاً غير مدعو من أحد، لكنه اقتحم
جلستنا فجأة، شمت رائحة عطره الصندل وهو بالباب، وشمها الببغاء
(كيكور) الذي أخذ يصيح في هستيريا.. قليل الأدب.. قليل الذوق..
ولهان.. يا مزينة.. لم يدعه الحاكم للجلوس، وخاطبه مباشرة كما
يخاطب عنزة خرجت من مراحيض:

- اذهب يا حمري عن وجهي.. وعد حين يصبح أنفي مزكوماً..
يوم تؤدي وظيفتك، واقتنع بأدائك.
- لكن يا جنتل..

تلك العبارة التي تزعج الحاكم، وتزعجني أيضاً، ولا يود ذلك
السفيه تحسينها، ورفعنا إلى درجة (البكوية)، أو على الأقل رفع الحاكم

الذي يحمل تلك الدرجة بالفعل. رجوت يوسف دامير أن نسمعه،
وقلت له، قد يكون حائراً ومتخبطاً، ويحتاج إلى إرشاد، لكن الحاكم
كنسه بشدة، كان يصيح منفعلاً:

- لا نفصل للسفء وظائفهم.. هم يجيدون تفصيلها أكثر منا..
اذهب.

وحين خرجت بعد ذلك، تاركاً الحاكم في فوضاه بعد أن أخبرني
صراحة بمأجته إلى ساعة فقط في بيت النزوة، عند المزينة لتجميع
بعض الأفكار، وجدت ولهان ينتظرن، كان متوتراً وغاضباً، وصاح
بصوت الأنثى في ساعة الترميل:

- لماذا توظفوني وتنسوني يا جنتل؟.. بيتي بلا دقيق ولا خبز، ولا
مرق، وإحدى قواريري، تموت من حمى النفاس.. ولا أعثر على ثمن
لبخة (القرض) لأداويها.

بكى، وكان بكاء حقيقياً شارك فيه كل جسده الهرموني، بما فيه
ثدياه المتضخمان. لقد أغلقت بيت ولهان بالشمع الأحمر في ذلك اليوم،
أوقفت تجارتها إلى الأبد، ونسيت في قمة انشغالي بإرهاصات الحرب،
إن في ذلك البيت أرواحاً تعيسة، كانت تدق على طبل الصفيح..
تغني.. وتكاد تبكي:

لا تلم يا لائم

نحن ذكرى حمائم

الحياة لعوبه

والهوى أكذوبة.

كنت على ظهر فرسي العُبار، وولهان على ظهر حمار بطيء،
وتعب، طفت به على محلات الغذاء الشحيح في السوق، من دون
إحساس بأنني أجز عاراً، أو فضيحة برغم آلاف النظرات التي كانت

تجلدني، ومئات الأسئلة التي أتلقاها ولا أردّها، ملأت حماره بما استطاع
حملة، ووضعت على يده كل قرش وجدته في جيبتي..

جلسست بجوار (خميلة جماري) في بيت والدها الأنيق، في حي (كاهير) الراقي، حيث أقيم وتقيم هي، ويقيم معظم أثرياء المدينة ووجهائها. وقد اكتمل الشقاء لاستقبال المتقي وأتباعه، ودحرهم الكبير، الذي أكدّه قادة الجيش بعد أن رتقوا صقورهم ونجومهم على الأكتاف، وأزالوا رائحة العتة من ثيابهم، ولم أستطع تذوق ذلك الطعم أبداً.

كانت ساحة المجد قد حفرت كلها، وجهزت كخنادق آمنة لاحتواء المأزومين والعاجزين والذين قد يجرحون في الحرب أو يصابون بالمستيريا، الخنادق عند مدخلي المدينة المحتملين، مملوءة بالخطب والقش وثقاب إشعال النار، وعدد من الخطط والمناورات التي استخرجت من كتاب (فاسكو) العسكري، الذي وصفه الحاكم بالسخف، قد وزعت، ورصت طوابير من المجندين الذين حصدوا من الأحياء، ودربوا على قرقة السيوف، ووخز الحراب، واستخدام البنادق الصدئة، على عجلة، أمام تلك الخنادق.. لم تكن ثمة أخبار، أي أخبار من حكومة العاصمة البعيدة، ولا سمعنا بجيش جرجار ولا حتى حطام جيش، في طريقه إلى نصرتنا، وأرقم وجاويد، رسولا الهلاك، التعسان.. غادرا بالكفن متقن التفصيل، ولا يعرف أحد إن كانا ما يزالان رسولان قد يعودا بجمر جديد، أم جثتان مهملتان في عراء التيه بلا غطاء ولا قبر.

كنا في مـرـجـل يـغـلي، يـغـلي ويـغـلي، ولا أـحـد يـمـلـك القـدـرة عـلـى
إـطـفـائـه. كان الـغـلـاء عـلـى أشـدـه، الـجـوع عـلـى أشـدـه، العـري عـلـى أشـدـه،
ولم تـكـن التـظـلـمـات الشـعـيـة تـأـتـي هـمـسـاً كـما كان فـي السـابـق، ولـكـن
ألفاظاً نابية نسمعها في ترف، وحجارة تلقى على مجلس المدينة بلا
توقف، ونبال صيد للعصافير حولها الصبية الجائعون إلى نبال رجم ممتلئة
بالمأساة، ولأول مرة ظهرت في المدينة بواذر مرض (التخمة الكاذبة)،
الذي يصيب المصارين بالهلع، فتضخ غازاتها وتتفخ حتى الموت.

كان الحاكم دامير قد سعى وفي وقت متأخر جداً، إلى محاولة
سحب عبارة (ما ترونه مناسباً) من الأسواق، وأذان تجار لم يحفظوها
فقط، لكنهم ملأوها بالخطب، وحولوها إلى موقد، واستبدالها بعبارة
أكثر ملاءمة، بعد أن اكتشف مرارة طعمها الذي حرمه شخصياً من
لحوم الطباء المجففة التي يعيشها، لكن التجار كانوا حذرين، وملاعين،
ولهم قراءات لا تتبع الواقع تماماً، ولكنها تخرع واقعها، كانوا يرون في
الحرب القادمة برغم كل الدلائل، وأخبار الذكرى والتاريخ التي توثق
باستمرار، مجرد كذبة كبيرة، وميدان ثراء جديد، تعود بعده الحياة إلى
بجراها الطبيعي. اجتمعنا بتجار المحاصيل، وتجار الكساء، والذين يبيعون
الشمع وصابون الغسيل، رفعنا أصواتنا ورفعوها، مددنا الأيدي
ومدوها، اشتبكنا واشتبكوا، وخرجنا بنتيجة أن الذي يستطيع أن يأكل
ويلبس، ويضيء ليله ويستحم، هو الذي يستحق أن يبقى مواطناً بعد
الحرب... وكانت نتيجة بشعة، لخصها صهري (جماري)، نيابة عن
زملائه من التجار. وألقى بها حارة وحارقة، ليس في وجوهنا نحن
مسئولي الحكومة فقط، ولكن في وجه المدينة كلها.

في إحدى الليالي، كنت برفقة الحاكم دامير، على ظهر فرسينا
المرهقين من تقصي التبعات. كنا نتفقد الحياة وقد غدت لا حياة، نتفقد

البؤس، وقد غدا سمة، نتفقد (الزنديق طلحان)، يترنح في الحوارى والأزقة والحفر ومسامات الليل التى اتسعت ومصت، ونحشر فى بيوت العزل التى أنشئت مؤخراً لمرضى (التخمة الكاذبة) الذين يتضخمون ويفجرون، ولا نستطيع إلا أن نبكيهم، سألتى الحاكم عن مصادر الثروة التى أتحكم فيها، وما موقعها فى كل ذلك؟، واكتشفت فى تلك اللحظة فقط، إننا بلا ثروة.

توقف مجيء القوافل التجارية التى كانت تضخ فى عروق الحكومة ضرائباً مهولة، وذات وقع.

توقف ورود ضرائب الرعى والزراعة، وحصاد المواسم فى قمم الجبال، وحتى من بيوت المتعة التى لم تعد فيها نساء يمكن قدرة إجادة المتعة كما فى السابق، ولا مستمتعون، يخترعون الإثارة بأسنانهم وأضراسهم ويستمتعون. جندت الغرائز محاولة درء الجوع أو درء الموت، وتابت العشرات من النساء الخرائب، أملاً فى موت شريف. وقد بدأ التجار برغم إيقادهم للشح، وتأجيجه وحصاد ثماره، يتباطأون فى الدفع وقد لا يدفعون.

كنا محاصرين بلا شك.

يسألنى الحاكم فى هلع:

- هل نحن محاصرون يا ميخائيل؟ هل نحن محاصرون؟

بدأت أقرأ ذهني المتعب، أحاول العثور على مكونات الحصار فى تلك الكتب القديمة التى قرأتها ذات يوم فى مدرسة المعلم (جبير)، واستنتجت بأننا بالفعل فى قلب حصار محكم من دون أن ندري، أو ندري لكننا نتصنع عدم الدراية. لم يدخل أحد إلى المدينة منذ زمن، ولم يخرج أحد، لا ذهب مستكشف منا، ولا عاد رسول منهم يحمل الجمر، وأرقام وجاويد، صلة الجمر بيننا وبينهم، ميتان أو مفقودان.

حصار محكم بالرغم من أن حراس الخنادق الميثوثين في المداخل، لم يسمعون قعقة لسيف، أو طنطنة لرمح، أو شهقة لبارود، ولا رأوا جهادياً واحداً معطراً بريح الجنة، يهلل ويكبر، في مرمى رؤيائهم، أو حواسهم التي لم تنم أبداً منذ نشطوا وتحفروا..
- للأسف يا سيدي.

إحدى يديه تمسك بلجام الفرس، والأخرى مجنحة لتهش ذباب الليل وبعوضه، الذي كان موجوداً بالفعل، يتحاور حول وجهي ووجهه، وأحس بغازات تصيح في بطني، وأكاد أموت رعباً، وأنا أتذكر مرضي (التخمة الكاذبة) ينفجرون واحداً تلو آخر، ولا تجدي في حقهم وصفات الطب، أو قراءات القارئين.
- من يحاصرنا يا ميخائيل؟ المتقي. أم الخوف؟
- لا أدري يا سيدي.. لا أحد يدري.

توقفنا بالقرب من بيت (المزينة)، خلية الزنج، الذي كان غارقاً في صمت كتيب وموحش، لكن الحاكم لم يفارق فرسه، ولا أبدى رغبة في طرق الباب، هي تنهيدة تنهدها بعمق، ورأسه منكس ولكز جواده ليمضي. توقفنا بالقرب من خزي العين، وكان جثة ضخمة تربض في وحشة الليل، ومقهى فريداً لم يكن مغلقاً بدواعي شهر العسل، فقد انتهى شهر العسل بالفعل، وبعد خمسة عشر يوماً من بدايته، ولم يكن عسلاً بأي حال من الأحوال، ولكن تباريح يؤس..
اكتشفت الملكة النافهة الحبيبة، نديمة مشغول، بأنها تزوجت تسعة وعشرين مرضاً عضالاً تتصارع في جسد رجل، كان يأتي بشعر مصبوغ وقلب محطم، وامتلكها في النهاية، حين امتلك خاتم اليهودي غالي الثمن. اكتشفت إن البكباشي صبير الذي ينحدر من عائلة من رقيق الشمال، تحرروا فيما بعد، كان بلا رغبة، ولا مروءة ولا ذاكرة

تتعرف على حرارة الأنثى، وسقط قربها في سرير العسل، كما تسقط ذبابة غريرة في حساء يغلي.. كان يسألها عن دواء الصداع وتغلي، يسألها عن دواء تشنج الورك، وتغلي، عن دواء (الأسقربوط) والملازيا، وبل الرئة وحتى دواء وخز القلب، وضيق التنفس، وتغلي، وفي اليوم الخامس عشر، في موعد سقوطه وأسئلته، لم يقل شيئاً، فأيقنت أنها قد ترملت في تلك اللحظة، وإلى الأبد. كان البكباشي قد مات بالفعل، وذهبنا أنا والحاكم، وعدد من الناس، أجلوا توهانهم، ومحنهم، وذهبوا. كانت الملكة فارهة برغم انطفائها، حناؤها على اليدين، حناء عرس، ترتدي ذهبها كله، وفستانها الأزرق ذا الحواف الملتهبة، وهمست في أذني بعد أن أشعلت لفافة من تبغ الدردار، وسعلت بعنف.. بأنها تحررت من ألم الضمير، وسفاهة الوطن، والآن جاهزة لبدء حياتها الجديدة، واحدة من السبايا في بيت واطئ وبلا أخلاق. تلك اللحظة بالذات، أيقنت أنها ليست تركية ولا كردية، ولكن من غجر الشام الذين يملكون القدرة على اختراع الوطن وإغائه في أي لحظة. وحين دفنا البكباشي في مقبرة المدينة، وبصبحته نوط الشجاعة الذي ناله، ونائي من القصب كان يعزف عليه أحياناً، ورافقتنا حتى آخر حفنة من تراب، همست في أذني مرة أخرى.. سألتك حتماً، حتى بعد أن أبدأ حياتي الجديدة يا ميخائيل بك.. فقط لا تمت في الحرب... لا تمت.

لم أكن أستطيع أن أعدها بشيء.. فلم أكن أملك مصيري، ولا هي تملك مصيرها، ولا أي أحد آخر. هززت رأسي بلا معنى ومضيت، ولا تفارقي فقرة الهلاك التي وردت في رسالة الجمر تلك.

في زقاق ضحل، وبالتحديد في حي (كف عفريت)، الذي أخذنا سواعده القوية، وأحلام مستقبله، أرسلناها إلى المواجهة، ووصلنا إليه بعد ساعات من الدوران في المدينة، هتف الحاكم وهو يشير بيديه:

- انظر يا ميخائيل.. أرى عزرائيل.. هناك.. هناك.

- عزرائيل؟

- ألا تعرفه يا ميخائيل بك؟.. ألم يرد ذكره في كتابكم المقدس؟
كنت أعرف ملك الموت عزرائيل بلا شك، أعرفه ولا أدري
كيف أعرفه، ولا أستطيع الجزم بوجوده أو عدم وجوده في الكتاب
المقدس، حيث لم أقرأ ذلك الكتاب منذ زمن طويل، ولعله كل الزمن
الذي أعقب خروجي من تلك المدرسة التي كنت أتلقى فيها علمي
عند المعلم جبير، وحتى صلاة الآحاد التي كان يؤمها أقباط المدينة
كلهم: في بيت عبادة متواضع خصص لهم، برعاية قس مصري عجوز،
اسمه طوني، ويسمونه طوني العفريت، عمدي ساعة ولادتي، وتجري أمي
إليها والذي بذكرته التعب، ويده المفرودة أمام وجهه بحثاً عن موضع
الخاتم، لم أكن أحضرها ولا أجد ضرورة لحضورها..

مددت بصري إلى تلك (الهناك) التي أشار إليها الحاكم. كانت ثمة
سواعد متهالكة لشيوخ يمشون في بطاء، يحملون نعشين مدثرين
بالخرق، على أضواء فوانيس خابئة، ونساء نائحات ومغبرن بالتراب،
يتبعنهم. لكننا فرسينا في توتر وانطلقنا، كنا نفر من طعم الموت، نفر
من عزرائيل الذي كان تماماً مثل طلحان الزندقي، موجوداً في كل شبر،
وكل حفرة من حفر المدينة.

للمرة الرابعة كنا عند باب (المزينة) خليعة الزنج، وللمرة الرابعة
يتنهد الحاكم، ويطلق الباب بتنهد العميق، وأجد نفسي فجأة أسأله:

- هل تود الدخول يا سيدي لتجميع بعض الأفكار؟

وكأننا كان سؤالي مدية حررته من حبل كان يتقيد به، وجدت
يوسف دامير العجوز، الذي يشكو من ألم ركبتيه باستمرار، يقفز عن
ظهر حصانه كصبي، يهرول إلى الباب هرولة مسعور، وتبتلعه

النزوة. كنت أبتعد، وأتلفت، أنخيل عزرائيل خلفي، يطاردني، وأكاد أسمع صوته يضحك أو يردد أغنية التعيسات في حي (ونسة)..
الحياة لعوبه

والهوى أكذوبه.

كانت حميلة دافئة كعادتها لكنّها مطفأة، ولأول مرة أشاهد دمعتين غير مغريتين، تشقان طريقهما في وجه لا يعترف بالبكاء أصلاً، ولا يبكي إلا نادراً. كانت تعرف بلا شك، والمدينة كلها تعرف، ولعل البلاد كلها تعرف الآن، إننا في مدينة السور التي كانت حتى عهد قريب، منارة من منارات الوطن، ومورداً هاماً من موارد ثروته، وأيضاً قبلة لسياح يأتون من بعيد، غموت بلا نصرة ولا أمل.. لن نتحدث عن الحب في تلك اللحظة، لأن الحب يبقى دائماً، ترفاً ثانوياً، حين ترتفع الخطوب إلى مستوى ترؤس التفكير، تصبح قصائد (لوني) و(ريماس)، بكل مهائنها البنفسجي، وشذاها المعطر، مجرد لغو لا يسمن ولا يغني من جوع، وتلك اللوحة الفخمة التي كانت من أعمال الإيطالي (جيوفاني)، وأراها معلقة على الحائط أمامي، تمثل قافلة من النساء البدويات، يرقصن حول بئر، مجرد تفاهة لن تلغي الموت، ولن تعالج (التخمة الكاذبة).. كانت حميلة دافئة، بحكم جمالها وأنوثتها الرهيبة، ومنطفئة بحكم الرياح الملتهبة التي أطفأت حتى أكثر القلوب بشاشة.. قلبها هي حميلة. لن نفرش مسرح (يوتوبيا) المتخيل، ببساط المخمل الأحمر، ونزنيه بالورد وضحكات السعادة، لن نسمي ولداً منون تيمنا بأبيها، الذي أحبه كصهر أنجب حميلة، وأمقته كتاجر بشع ساهم في تقطير عطر الحرب، ولا بنتاً مرياً.. تيمنا بأمي مرياً توموس الهائمة الجميلة في بيتها ومجتمعها، ولن تتعدى هذه الجلسة ذلك الحوار الذي كان ماسخ الطعم إلى أقصى حد ولا يشبه حوارات العشاق في شيء:

- نحن محاصرون يا ميخائيل؟
- نعم.. بكل تأكيد.
- وهل سنموت؟
- ربما.
- أين الحكومة المركزية يا ميخائيل؟ هل يتركوننا هكذا لمصيرنا؟
- لا أدري.. لا يوجد أي خبر.. لا يوجد أمل.. وحتى الرسولان
التركيان، لم يعودا مرة أخرى.
- يجب أن نهرب يا ميخائيل.. يجب أن نترك المدينة ونهرب..
- لا ينفع يا حميلة.. لا ينفع، فقد فات الأوان، الجهاديون
يسدون الطرق والموت في كل مكان.. كل شيء.. لا ينفع يا حبيبي.
- قلت حبيبي، وأخذت أحرق في بطنها، أحاول النفاذ إلى تحت
القميص البيتي الأبيض الذي ترتديه، ولم تكن ترتدي قميصاً بيثية بلا
زركشة في وجودي أبداً.. هي بلا شك بعيدة عن مرض (التخمة
الكاذبة)، لأنها في بيت التخمة الحقيقية، التخمة البشعة التي اخترعت
الكاذبة، لكن رغم ذلك كنت خائفاً.. وخائفاً بشدة. استلفت ذكرى
ابتسامة من أيامنا السعيدة، ابتسمت بها، ولم تستلف هي أي ذكرى..

- 9 -

مدينة السور في الرmq الأخير.

جدباء ويايسة، ومريضة بالحمى والتباريح، والتخمة الكاذبة، التي لم تعد حكراً على أحياء الخيش والصفيح والوسخ، من أمثال (ونسة) و(أرض الكوثر)، وكف عفريت، لكنّها اقتربت حتى من حي (كاهير) الثري في طعمه ومعماره، وحي (لونا وراجيف) الأكثر ثراء، حيث يقيم اليهود والإغريق، وهنود البنيان المسيطرون على تجارة الذهب والقماش بالكامل.

كان صهري جماري، وزملاؤه من تجار الشعب، قد لانوا قليلاً أمام طوفان أحسوا به قد يتلعمهم في فورانه، أمام دمار حقيقي، وليس ميدان ركض للحصاد الغني، أفرجوا عن القليل من السلع، وظل الكثير راكداً في مخازنهم على أمل أن تكون الحرب مجرد شكوك تنزاح ذات يوم عن كاهل المدينة. كان رغيّف الخبز الذي اعتادت الأفواه على التهامه في لقمة أو لقمتين، قد غدا وجبة كاملة تقسم على أربع جياع، عصيدة الدخن المملة فيما مضى، ما أحلى طعمها الآن، حين يتم العثور على طعمها، الدواب بدأت تهلك، ماشية اللحم بلا لحم، أئداء الحليب تحت الغنم والنعاج بلا لبن. وموظفو الدولة الذين كانت رواتبهم جزءاً من رذاذ الثروة نشره على جيوبهم كل شهر، الآن بلا رواتب. كنا حقيقة بلا مخرج، ولا مدخل يقود إلى مخرج، بلا خيط، لا أبيض ولا أسود، ولا أي حجة

أخرى تبقينا كباراً على رأس مدينة لم تكن في الحقيقة مدينة، ولكن قيراً محفوراً بإتقان.

أخذت أمي وأبي وخطيبي حميلة، وما استطعت للمته من الأهل والأقارب، إلى ساحة المجد الآمنة كما كنا نأمل، السرداب الضخم الذي يحرسه ستون من خيرة الجنود، بما فيهم أخي رزق الذي أتم تدريبه بجدارة. أخذنا المئات من الأطفال، والآلاف من كبار السن، وحتى ما تبقى من خرائب حي (ونسه)، أو فئات الأحياء التي نفدت من التخمّة الكاذبة، كان ثمة زاد قليل، وماء وفير استخرج من آبار السقاية، والأهم من ذلك، ثمة مدينة صغيرة في سرداب، تملك عارها واحتشامها معاً. فقرها وغناها معاً، وربما تموت هكذا كما عاشت دائماً هكذا..

إنما الحرب ولا شيء آخر.

كنا نعقد جلسات التشاور العصبية إلى أقصى حد، في قاعة المجلس الكبيرة بانتظام، حيث لا وجود الآن للإفريقي (كيكور)، الذي أصيب بالتخمّة الكاذبة بعد أن انتقلت عدواها للطيور والدواب، وانفجر ذات يوم في قفصه، مخلفاً أسى وذكرى وأصداء كلمات.. كنا نستدعي حتى المجانين لنسألهم، نستدعي الشحاذين، والذين في خوف عروقهم بقايا دم، نخدق في أحبار الذكرى والتاريخ التي كانت تعرينا ونززعنا فيما مضى، ولم تعد تكتب الآن سوى عبارة واحدة هي الموت، ولا ترسم سوى جمجمة بغیضة بلا لحم، وحاولنا أن نستنير بالمصري بمحت، مدرس علم الانحطاط الانطوائي، فأبى بشدة، ثار في وجهي، ووجه الحاكم، مبيناً سخف الحكومة في محاولة تعديل نص كتبته ذات يوم، وخرج الآن عن السيطرة.. كتبتم ثورة المثقي حين جتتم غزاة، حين غنيتم ورقصتم، وحين لم تكونوا قراء حقيقيين، لبداية

المرحلة على مسرح قرية (أباخيت) المتواضع. هدده الحاكم بإلغاء علم الانحطاط من علوم المدينة إلى الأبد، فضحك واستمر يضحك حتى بعد أن خنقته أنفاس لفاقة تبغ الدردار الخشن.

حددت ساعات عمل السوق، للذين ما زالوا يملكون خواص غزو السوق، لشراء القليل أو التنزه بلا معنى، بأوامر من الحاكم، حدد المشي في الشوارع للذين ما زالوا يملكون سيقاناً للمشى، بأوامر من الحاكم، حددت ساعات القيلولة، وساعات النومة، وساعات الحسد، وكاد أن يحدد وقت للقبل، وتلاقح الأجساد والعناق، لولا أنه لم تكن ثمة مروة لتلك الممارسات. الشهر الأول يشبه الثاني بمجذارة، والثالث الذي انفلتت منه حتى الآن خمسة عشر يوماً ركيكة، لا يشبه الشهرين الأولين، ولكن يفوقهما جوعاً وعرياً.

في أحد الأيام جاءت إلى مكتبي الموحش الذي لا أبقى فيه إلا نادراً بعد أن غدا ظهر فرسي (العبار) مكتباً متنقلاً، الملكة نديمة مشغول، خرجت من سرداب ساحة المجد المحصن بصعوبة، بعد أن اضطرت إلى تذكير الحراس عشرات المرات، إنها ما تزال نديمة مشغول، برغم زواجها وترملها، وإغلاقها لخزي العين الفريد، وبرغم أنها تتزين الآن بزينة (السكسك)، وترتدي أسخف ملابس ترتديها المرأة، وتعطر بعطر الجوع وقرص المصارين، الذي ليس عطراً محترماً لأمثالها، كانوا يطالعونها بلا تعابير، يلحسون ماضيها ويصقونه، وسمحوا لها بالخروج فقط حين كذبت بشدة، قالت أنا خليعة الحاكم الجديدة، واستدعاني الآن بأوامر من الجسد.

فوجئت بحضورها الذي لم أكن أتوقعه، وفاجأتني أكثر حين لم أستطع التعرف عليها أبداً، رأيتها ترتدي ملابس سوداء من قطن ثقيل،

تمتد حتى كفيها وقدميها، تضع طرحة سوداء تغطي بها الرأس، وعلى وجهها حمار أزرق، لا يظهر سوى العينين فقط، اضطرت إلى رفعه حتى أجدها وسط ذلك الزي، لم تجلس على مقعد قدمته لها، برغم إلحاحي ولا أشعلت لفافة من تبغها الخائق.. قالت.. جئت أودعك يا ميخائيل بك على أمل اللقاء.. فقط لا تمت في الحرب. وخرجت، وأكاد أسمع بكاء قلبها، يتقافز إلى أذني.

الذين شاهدوها على مدخل (بوادر)، أحد مدخلي المدينة المهيئين لاستقبال الغزاة، بعد ذلك بساعتين هما ساعتا المشي الذي مشته بقدميها، قالوا شاهدنا امرأة مجهولة، بقلب أسد وقوة ثور، صرعت حراساً عديدين منعوها من عبور الخنادق، قفزت إلى ما وراء الرؤية وذهبت.. ولا أحد يعرف كيف ذهبت وإلى أين تذهب. كنت منقبضاً بشدة، لكنني لست يائساً، أحس بأنها كانت تخترع وطناً جديداً، تماماً كالذي اخترعته هنا وعاشته، وربما ألتقيها قريباً في ذلك الوطن. كانت نديمة مشغول في الحقيقة، ترفاً ملوناً في مدينة السور، وامرأة حفرت تذكاراتها بجدارة في كل شبر مشته.

القائد موسى عرديب، الذي كان مرابطاً في الحدود، يتابع الوهن عن قرب، ولا يسمح للجوع أو مرض النخمة الكاذبة، أن يمس جنوده، الآن يقتحم اجتماعاً متأزماً، نوّه الحاكم في بدايته، بأنه قد يكون الأخير، لأن لا جديد لديه ليمنحه، ولا لدى أحد آخر من الذين يحضرون وينصرفون... وعلى الجميع أن يحكموا رقابهم، لأنه لا توجد حكومة لتحمي أحداً، والعاصمة البعيدة قد تخلت عنا كما يبدو.. أليس كذلك يا ميخائيل؟

وأحاول أن أرد، ولا أعثر على رد، وكنت مستغرباً بشدة من حكومة تتركنا في النار، ولا تمد يداً.

صرخ القائد عرديب في أزمة الاجتماع موجهاً صراخه إلى الحاكم:
- لقد عاد أحد التركيين يا سيدي.. إنه أرقم.

هيينا من مقاعدنا كالمسلوعين لنشاهد عند الباب أحد الرجلين
الذين أرسلنا إلى الموت منذ أكثر من شهرين والآن يعودان نصفاً فقط..
كان النصف مرهقاً ومتهاكاً، سقط جواده في منتصف الطريق،
وأكمل هو الطريق مشياً وزحفاً، وحين ظهر على مرمى البصر في
الحدود، ظنه العسكريون جهادياً جاء يحمل قلبه على يديه، وكاد
يموت، حاصرته السهام من كل صوب، وانغرس أحدها في قدمه.
لم نعطف على تعبته الشديد أو جرحه المضمّد بالخرق، وصرخنا
أنا والحاكم في صوت مرتجف، هو صوت الملح:
- وأين جاويد؟

- حوكم بتهمة الزندقة يا سيدي، حين سلم رسالتكم إلى أحد
مساعدتي (الْمَقِّي).. قائد اسمه عبّادي طلسم، وشرح مكوناتها له.
- وهل قتلوه؟

صرخنا مرة أخرى، والملح على أشده.
- لا أعرف حقيقة أيها السادة.. لم أشهد محاكمته، ولم أعر على
أحد يخبرني بالحكم.. لكنكم تعرفون الأحكام في تلك التهم.

خيّم الكثير من الصمت، والكثير من الاكتئاب، وبدأ يوسف
دامير مطرقاً، ولا شك يعاني من وخز ضميره المتفطرس، حين ألبس
رسولاً لا يعنيه من الأمر سوى إيصال الرسائل، قمة نعرف كلنا
عقوبتها. كان أرقم جائعاً بلا شك، لكن لم يكن ثمة طعام حاضر، وقد
التم ما تبقى من ترف المدينة في سرداب ساحة المجد.. منحناه رغيفاً مرّاً
من ردة القمح، لم يسأل عن طعمه، والتهمة، مد يده إلى جيبه، أخرج
رسالة جديدة، حمرة جديدة، مدّها للحاكم الذي لم يلمسها أيضاً:

- اقرأها أنت يا ميخائيل بك.. لقد تعودت على قراءة المخازي..
أليس كذلك؟

كانت الجمرة الجديدة.. قصيدة (ريماس) الجديدة، أشد لسعاً من
سابقها، تفوح منها رائحة المسك بلا جدال كأنها تود تذكيرنا بريح
يعتقد المتقي بقداسته، وتلخص في هوس غريب، تلك النهاية التي كنا
نعد لها منذ أن وردتنا الإرهاصات، ولا نستطيع أن نجزم.. إن كان
إعدادنا صائباً أم لا..

بسم الله الرحمن الرحيم

من المتقي.. إمام المجاهدين، وسيد المحصنين، وحاصد رقاب
الكفار، وأذيالهم.. والشاهد على دحرهم وفرارهم في القريب العاجل..
إلى المرتد خائن مدينة السور
أما بعد..

فإننا قد بينا ووضحنا، وتنفضنا من الوزر وأنتم ترتدون،
وخاطبناكم بالخبر والدواة، وتخطبوننا ببصاق ألسنتكم، وإنه قد أزفت
الزائفة، وحانت اللحظة، وإننا بإذنه تعالى، في مخادع كفركم نظهرها،
وخلف رقاب إلحادكم.. نجزها، ولن نترك دماً يأتينا باختياره، ويحمل
السيف، حتى لو كان من ملتنا، خيطوا أكفانكم لترتدوها، وجهزوا
قبوركم لتدفنوا فيها، واذهبوا إلى مزبلة التاريخ. يقول سيدنا (أبو عامر)
رحمه الله.

وما أذنبت حين أقمت ملكي

على جثث الزنادقة اللثام

فرنا في الدارين.. هذه الفانية، وتلك التي نشم ريحها.

كنت أود أن أسأل الرسول عن المتقي، وإن كان قد رآه هذه
المسرة أو التقى بصوته، إن كان قد صادف امرأة من غجر الشام مغطاة

الوجه، وهائمة في العراء أو تحت لهب النار، لكنه وقف منتصباً، ردد في صرامة شديدة، بأن لا أسئلة ولا أجوبة، لأن مهمته قد انتهت في هذه المنطقة، وإن المتقي قد عمم أوصافه على كل بقعة تغلي بمجاهديه، ومنحه تصريحاً بالذهاب إلى حيث يشاء.. وإنه ذاهب إلى حيث يشاء. وبقينا في القاعة الواجمة، نتذكر ماضياً سلساً كنا نعيشه، أو نبكي بدموع فقد، هو فقدنا.. انتهت مهمة أرقم، وابتدأت مهمة الموت.. لا نود أن نستضيف الموت، لا نريد عزرائيل.. لكن عزرائيل هنا.. هنا خلفك يا يوسف دامر.. خلفي أنا ميخائيل رجائي.. خلف كل الجالسين في القاعة، وهناك.. في الشوارع.. في الحفر، وفي سرداب المجد حيث تضطرب أحلام بنفسجية، وأحلام أفكها التعب.. وحيث لن يعثر رجائي رشدي على إصبع الخاتم أبداً.

- 10 -

لم يكن جيشاً جراراً، ذلك الذي اقتحم الخنادق، وأكل النار
وسف رمادها، وتسلى بسيوف ورماح العسكرين، واتخذ من سواعد
المحاربين الذين حشدناهم للمواجهة، أوتاداً يقطر منها الدم، ألصق بها
راياته الخضراء، ولكن وباء غريباً لم أشهد له مثيلاً من قبل.

كنا على الحدود أنا والحاكم نستطلع الأمر، حين علمنا بظهور
غبار كثيف في الأفق، حين اتضحت الرؤيا أكثر، حين استحالت إلى
كابوس. وحين تضخم الكابوس، وأصبحنا بالكاد نعرف إن كنا
حقيقين أم مجرد أوهام عالقة بذيل الحقيقة. رأيت الحاكم الموقر يوسف
دامير، يسقط عن ظهر جواده وفي عنقه وخز سيف، ولم استطع بكاءه
أو انتشال ما تبقى فيه من روح.. رأيت القائد موسى عرديب يسقط
مطعوناً في قلبه، وبقايا صوته العسكري، تراكض وسط الغبار، ولا
يلتقطها أحد، رأيت العشرات ممن أعرفهم ولا أعرفهم، يسقطون،
وشمت طعم الدم لأول مرة في حياتي، وكان حاراً جداً. لم تكن
الخنادق التي اشتعلت فيها النار وانفجرت على أطرافها حبات البارود،
شركاً، ولا خطط فاسكو السخيفة المستخرجة من كتابه التاريخي،
شركاً، ولا الروح المعنوية التي حرصنا طيلة تلك الأشهر الماضية على
إبقائها عالية برغم المرض والحصار.. وكان الهدير الذي يهدر.. يسقط
الشرك.. يسقط الإلحاد، هو الشرك الحقيقي الذي قضى على شراكتنا
المهترئة.. لحسها كما يلحس العسل.

قلت لصديقي العبّار المشوش الذهن، والذي يصهل كمنحنون..
موت أم ننحو يا عبار؟.. فلكرني قبل أن ألكزه وانطلق. كان يتقي النار
بالنار، وسهام الجهاديين في الحدود، بسهام الجهاديين التي كانت لا
تحبو إلى داخل المدينة، ولكنها تنز أراً. الحفاة العراة، المثلثون.. لابسو
الأبيض والأخضر المرقّع، لابسو الفوضى وعطر الدم، من يا ترى المتقي
من بينهم؟.. ولا أحد يعرف، وأتذكر صراخ (عطايا) بائع الروب
والخميرة يوم حاورناه في (خزي العين).. كلهم المتقي.. كلهم المتقي..
كلهم المتقي.. كان (التقلاوي ديدام) فرّاش مجلسنا السابق الذي اختفى
في تلك الليلة المهووسة، موجوداً في داخل المدير.. رأني ورأيت، تأملني
وتأملته، رفع حربته إلى عنقي، وراوغتها.. عدد من الذين عرفتهم أو
صادفتهم.. رفعوا سيوفهم، وراوغتها..

وصلت إلى مبنى مجلس المدينة بصعوبة، ولم يكن ثمة مجلس لمدينة،
ولكن ذكرى لقاعات ومكاتب وأوراق، الآن مجلودة بسياط النار
وتحترق، وصلت إلى ساحة المجد التي أمناها كما اعتقدنا، وأنا مشوش
باحتمال ضياع أهلي.. وضياح محبوبتي وإرث الحياة وتاريخها كله، ولم
تكن الساحة آمنة، ولكن شركاً ولعنة، حيث هتك الجهاديون عفتها
وتناثروا داخلاً وخارجاً، وكانوا يلمون غنائمها النظيفة يرصونها جانباً،
ويصقون على تلك التي كانت متسخة ولا تبدو غنائماً.. لكزت العبّار
بشدة وتواريت. قصدت أماكناً لم تكن أماكناً.. وأحياء لم تعد أحياء..
وشوارعاً لا تبدو شوارعاً بأي حال من الأحوال، أشم الغبار والدم،
وأضع يدي على أذني حتى لا يصرعني المدير في تجواله وترصده،
وتوقفت في النهاية أمام خزي العين المجلود بسياط النار أيضاً، ربطت
العبّار إلى جذع شجرة ميتة، وارتميت على الأرض بجواره، أغمضت
عيني، وبدأت أستعيد صلوات مقدسة لم أكن أستعيدها أبداً من قبل،

أتلوها بأخطاء الحفظ والهلع، وأنتظر.. كنت أسمع عن سكينه الموت وبقينه، وأحاول الآن أن أجد تلك السكينه وذلك البقين.

فجأة وجدت نفسي واقفاً على قدمي، ثمه سيف مسنون في رقبتي، ورمح غادر يلتصق بظهري، وعدد من المثلثين يرتدون ثياباً بيضاء متسخة بالطين والدم، يخاطبونني في قرف.. تشهد يا كافر.. تشهد يا كافر.. أود أن أتشهد حقيقة، لكني لا أعرف الشهادة.. وأسمع صوتاً يأتي من العدم والنصل قد بدا يحز في العنق.. لا تقتلوا من لم يرفع السيف.. لا تقتلوه.. خذوه إلى حيث أمر سيدنا المتقي.

كنا طوابير مهلهلة وفزعة من الأقباط واليهود، وهنود البنيان، وآخرين ليسوا من ملة غير ملة المتقي، ولكن صنفوا عصاة حين واجهوا السيف بالسيف، والرمح بالرمح، في وسط السوق الكبير.. الذي بدا لي قد عاد القهقري إلى أيام (حمزة وابنه).. كان نصفه متهدماً، ونصفه يحترق، الهدير قد خفت قليلاً، لكن طعم الدم ما يزال طعم الدم، وسمع الهمس الذي يتسرب من بين السنة شوشها الملح..

منون جماري تاجر المحاصيل الكبير.. قتل حين حاول الدفاع عن مخازنه.

حاكم المدينة.. يوسف دامير مزقت جثته إلى أشلاء وتركت للصقور تنهشها.

فندوري تاجر الخمر الإغريقي.. نطق بالشهادة حين طالبوه بنطقها، لكنه لم ينحو.. اعتبروه منافقاً.

أنقبض بشدة، أتلقت والفزع على أشده، أنقب في وسط الرجال الضائعين، الرجال ذوي الملامح المخدوشة أو المهروسة، أبحث عن يد يسرى مفرودة أمام وجهه، وخاتم زواج مفقود، ولا أجد شيئاً وأعثر على (ولهان الخمري)، قليل أدب الحرب المقترض، باكياً حتى بتديه

الضخمين. أتلقت لأبحث عن شباب يانعين، يشبهون أخي (رزق) في شعره المنسدل، وحاجبيه الكثيفين ولا أجد، نساء تائهات وجماليات ربما بينهن مريا توموس أمي، أو حميلة جماري حبيتي، وألح حميلة.. هي حية.. هي موجودة، ألم صوتاً باكياً.. أبكي به.. يا حميلة.. يا حميلة، ولا تلتفت، تلقي بخاتمها الذهبي الذي أهديته إياها في عيد ميلادها العشرين، ولا تلتفت، ويهشها سيف سنين لتمضي.. اليهودي (إيزاك)، تاجر الذهب ذائع الصيت. يبكي زوجته (أم إيليا) التي انتحرت بالسّم منذ سنوات، ويبكي نفسه.. يلكرني بشدة. انظر يا بك.. انظر. كان عبّادي طلسم، الحمال السابق في سوق (أبسي جهل) الشعبي، قد هبط عن ظهر حصانه الأسود، أميراً مدثراً بالثوب الأخضر، ذي الرقع والعمامة الخضراء ومسبحة ضخمة من ثمار (اللالوب)، تتراقص بين أصابعه.. وحاملو حراب الدم، يفسحون له مجالاً واسعاً ليتسلقنا، ليطلق تسلقي أنا بالذات كأنه يستعيد أو يطرد تذكراً، ليردد بصوت كأنه ينبع من كل بقعة في جسده العريض:

- ضموا القبطي إلى كتيبة صقور.. ضموه إلى سرية الطبخ.

أين المتقي؟.. أسأل تشوشي، وأنا أنقاد بسيوف كتيبة (صقور) إلى مصر غامض. أين المتقي؟.. وأسمع همساً مجاوراً.. المتقي في أحد أحياء المدينة، يوجه الثورة لتلهم المدن كلها.

الفصل الثالث

التوترات الثانية

- 1 -

- القائد يريدك يا سعد.

كان التقلاوي ديدام مساعد القائد هو الذي يخاطبني، وكانت ساعة قيلولة جلقة على برش مقشّر من سعف الدوم، وسط المواعد وقدور الطعام، ورائحة فوضى العفن والفضلات، هنا لا يأتي النعاس أبداً، ولكن تحوم الذكريات، وفي تلك اللحظة بالذات كنت راكباً على ذكرى فرسي العبّار، أطوف بها في شوارع المدينة العامرة شارعاً شارعاً، أدخل بها حي (كاهير) الراقي، وحي (لونا وراجيف) الأرقى، أبحث عن بستان مزدهر بالورد البنفسجي، لأقطف باقة وارفة، أقدمها هدية لحميّلة.. تحب الورد البنفسجي بشدة، تحب الثياب البنفسجية والعطور البنفسجية، وصنادل الجلد التي تلوّنها بالبنفسجي، وقالت في أكثر من لقاء.. إن طعمها بنفسجي.. وعلي أن أصبر حتى أتذوقه كاملاً. كنت بلا شك خائناً لوعدي الذي وعدت به المراهق (توما)، وأعتقد جازماً إنه يخون وعدي أيضاً ويستدعي (حميلات) بلا حصر، يحاول أن يلون بمن ليايه البائسة.

فضت فموض الدليل في مواجهة القوي.. الطباخ أمام مساعد القائد، التقلاوي أخضر مرقّع، على خصره الأيمن سيفه الفضي في الغمد، وأعلى كتفه الأيسر يربض صقر بجناحين خطرين.. أحاول أن أستعيده فرأشاً بلا مروءة من (كف عفريت)، تزوج من لا أحد في ليلة مهووسة مشتعلة، وأخاف من جرح التذكر. أحاول تكتيفه بجبال

وظيفتي القديمة، وأمره أن يعد شاي القيلولة، ولا أملك وظيفة أو حباً..

- القائد في خيمته.. اذهب..

أول ما لفت انتباهي حين واجهت القائد في خيمته الكبيرة التي تبعد قليلاً عن خيام الجند، ذلك الصفاء الذي ينبعث من عينيه، لم تكونا جمرتين كما اعتدت على رؤيتهما دائماً، ولا بدا لي ذلك الرهيب الذي قد يقتلع عيني فجأة، أو يغرس سوطاً من جلد ثور معمر، في اللحم وينتزعه. أمامه طبق ممتلئ بفاكهة النبق، لم يكن من زاد خيمتنا التي هي خيمة الزاد ولا بد يأتي من طرق أخرى. وعلى يده اليمنى مسبحة ثمار (اللالوب) الضخمة، ذلك النوع من المسابح الذي كان يباع في سوق أبي جهل، ويستخدمه رجال التصوف بكثافة، كان يحرك حباتها في شروود.

قلت: السلام عليكم سيدي الأمير.

قال: وعليكم السلام.

دعاني للجلوس بجانبه لأول مرة، وترددت كثيراً قبل أن أجلس. كنت خائفاً بشدة، بالرغم من عدم وجود خامات التخويف في تلك القيلولة الجلفسة. كنت أجد الضوء كاملاً بلا شك، أجد التهليل والتكبير والهوس، وقد أضفت عدة سور بهية أخرى، ملئ بالتحاليم السماوية، إلى حصيلة الحفظ في ذهني، ومستعد لقراءتها أمامه.. فقط لا أود أن يسألني عن حميلة.. لا أود ذلك:

- لم تحدثني عن حميلة جماري يا سعد.

صوته ليس شرساً أبداً، ولكنه متودد، عيناه ما تزالان صافيتان، ويده الآن بعيدة تماماً عن مسبحته (اللالوب)، ورأيتها تلامس خده الأيمن، تعلق ما خلته خدشاً طفيفاً مغطى ببقعة دم.

تشجعت وسط ذلك الضعف، وتلك المودة الطارئة، كنت أريد أن أفهم، أو أعمق ما فهمته، وربما أجد فرصة لأسأله عن أهلي الذين لا أعرف مصيرهم حتى الآن. وجدت صوتي ينساب سلساً من حلقي:

- أي نوع من الحديث يا سيدي؟

- طباعها مثلاً.. هل تخاف الظلام ومواء القطط؟.. هل اعتادت أن تمشي وهي نائمة؟.. هل تملأ فراشها حصى ورملاً قبل أن ترقد عليه؟.. باختصار شديد..

دق القائد على الأرض بيده وقد بدأت مودته تتأرجح.. وثمة جمر بدأ يلتهب في عينيه:

- باختصار شديد.. هل هي امرأة صالحة؟

في خلال ذلك العام الذي قضيته عاشقاً لخميلة، وزوجاً مستقبلياً يقترب بخطى أكيدة من دخول قفصها الذهبي، عرفت خارجها المحب بجدارة، خارجها الذي يميل إلى تذوق الحياة السلسة بكل أشكالها وألوانها، تحب السهر حتى الفجر، واللون البنفسجي، وفوضى الأزياء حين تفوضها بمقصاتها الخاصة، وأشعار (ريماس ريكو) الإسباني التي كلها شجن وعصافير، وخیالات عشاق تحت أشجار المانجو، والتي جلبت بعضها حين عادت وما زال الجديد يأتيها مترجماً، وبخط أنيق من أصدقاء والدها في مصر. نعم تخاف الظلام ومواء القطط كأني امرأة. تخاف العناكب وسحالي الشقوق كأني امرأة، تخاف لو تركت وحيدة ولو شمت رائحة غدر ولو تحرش بها الطريق حين تمشي فيه، تطيل أظافرها حيناً، وتقصرها حيناً، وربما في ساعة نزوة عابرة، تنام باكراً وهي تبكي بعد أن تعطف على خادم مسكين. وفي آخر لقاء لنا قبل سقوط المدينة بيومين، أخبرتني إنها تجرب هذه الأيام ملابس

(الكستور) الشعبية وطلاءات الأظافر المصنوعة محلياً، من نشارة الخشب، لا لشيء محدد، فقط تجربها. لكني لم أسمع أبداً عن مشي أثناء النوم، أو جلب للحصى والرمل إلى فراش يضم تلك اليبانة، ولم أشاهد نومها بالطبع لأعرف شيئاً كهذا ربما كان من العيوب التي لا تطفو على السطح إلا بعد سقوط الفأس في الرأس، وإن كنت أستبعد ذلك تماماً. أيضاً لم أكن أملك معنى محدداً لصلاح المرأة، ولا سعت لامتلاكه في أي يوم من الأيام، أمي الهائمة (مريا توموس)، كانت صالحة، لأنها أمي، عمي (فداية) التي تركت (السور) منذ عدة أعوام وعادت إلى مصر، صالحة لأنها عمي فداية، والملكة الحبيبة التافهة (نديمة مشغول) صالحة لأنها اخترعت حياة لم يخترعها لها أحد. وفي شبابي المبكر، حين كنت أمر على بيوت بائعات الهوى في حي (ونسة) المتسخ، وأرى تلك الوجوه والأجساد التي تكذب بالنظرة والابتسامة والسلام، والعناق، أقول في نفسي.. هن صالحات بلا شك.. فقط يحتجن إلى وقت ليظهر صلاحهن.. أردت أن يمنحني الحمال قائد جهادي كتيبة صقور، مفهومه الشخصي للصلاح حتى ألبسه حميلة وأرى إن كان في قياسها أم لا؟.. لكن لا أستطيع مطالبته..

- سيدي.. كنا مخطوبين لعام واحد فقط، ولم أر فيها شيئاً غير

عادي.. هي امرأة عادية و..

- العام ليست فترة قصيرة..

زبحر..

- العام يكفي لزراعة موسم كامل من الذرة وحصاده، لتلقيح

قطيع من الماعز، ورؤية نتاجه، لجز الكفر من تحت قدميك، حتى قدمي

حاكم الملحددين في العاصمة.. يكفي لغرس العزة في كل شبر.. لا

تلاعبني يا سعد.. لا تلاعبني..

كان كمرجل ضخم حين غلى، وحين فاض، وحين كاد يغرقني
بفيضانه، لولا ابتعادي. ليست مسألة طباح يلعب قائداً يدري تماماً إنه
قد يسحقه في أي لحظة، ولا مسألة مستفسر يبحث عن أجوبة شافية،
ولكن هياج مغتاز تراكم على قلبه الغيظ. كان عبّادي طلسم، يملك
حبيبي بلا شك، يملكها في واحد من بيوت السبايا التي أعدت في
المدينة لإرضاء شهوة النصر، ولا يملكها في الوقت نفسه، الحصى
والرمل، المشي أثناء النوم، وذلك الخدش المرسوم بالدم على خد
الجهادي، وربما أشياء أخرى يعزوها إلى عدم الصلاح، ولا يود
فهمها.. كنت وبرغم الحريق الذي شوى قلبي حتى شمت رائحته،
مبتهجاً.. لقد انتصرت حميلة، بينما بقيت مهزوماً.. اخترعت أدواتها
التي تواجهها، ولم أفعل، رضيت بمهنة الطبّاح الذليل وأنا الموظف
المحترم. لن أنهرم.. لن أنهرم.. جمعت ثورتي الخاصة في تلك اللحظة،
بصقتها في وجه ثورة القائد:

- حميلة حبيبي أنا أيها القائد.. ملكي أنا.. أنا مسلم.. أنا
موحد.. أعطني حقي.

وكأنني في تلك الثورة التي ثرثها، دلقت ماء من إبريق، أو مزقت
واحداً من بروش السعف، أو ربما فعلت أكثر من ذلك.. لا أذكر.

كان (بيت الغسيل) الذي أخذت إليه بعد ذلك، في الواقع سجنًا
مبنياً من خشب أشجار (التبلدي) المعمرة والقوية، وملحقاً بالكتيبة،
ويقع مباشرة خلف خيمة مساعد القائد ديدام. يحرسه عدة أفراد من
سرية (جبارين)، إحدى سرايات الكتيبة التي كلها من أبناء قبيلة
(الفولاني)، حيث ينحدر القائد طلسم، ومعروفين بالشراسة ولوي
الأعناق حتى كسرهما، ويتولى أمر المحكومين داخله، عسكري تدل
نجومه على الكتف ونياشينه على الصدر، إنه برتبة قائمقام، كان اسمه

(برهاني)، ولم يكن واحداً من جنود الحكومة الذين كانوا تحت إمرة (موسى عرديب)، وكانوا تحت سمعي وبصري ويتبعون لمجلسنا الحاكم حتى ساعة الغزو، ولعله كان قائداً في مدينة أخرى أو واحداً من الجهاديين الذين نبعوا من الفقر وهوامش القرى، يرتدي زياً بلا ماض. كان الجهاديون واعين بفداحة الثورة التي أشعلوها ضد حكم يملك الحديد والنار، ولا يملكون إلا الشرر، وهدير الحناجر. واعين بتمردات قد تحدث وسط فوضويين التموها هكذا بلا عدة ولا عتاد، وخيانات قد تنبع في وسط حراس ثورهم، ومن ثم أنشأوا تلك السجون الخشبية، أسموها بيوت الغسيل، وألحقوها بكل الكتائب التي تحيط بمدينة السور، تماماً كالسجن الملحق بكتيبتنا وأساق إليه الآن. كانت تعليمات القائد الحمّال واضحة في حقي، سلمها لسرية (جبارين)، وسلموها بدورهم لمشرف الغسيل، أن أغسل من شوائب النصرانية التي ما تزال عالقة بعقيدتي، أن ينظف قلبي، وتنظف مشاعري حتى أشفى، لم تكن ثمة وسيلة محددة للغسيل، لأن القائمقام هو الذي يحددها، ولا زمن معلوم لانتهائه، لأنه من يحدد الزمن.

كان الداخل موحشاً بشدة، ثلاث غرف متماسكة بلا أسقف، فرشت بحصى مدبب يشتعل حين تشتعل الشمس، ولا ينظف حتى لو انطفأت. كانت حيطانها خشنة، وعليها أوتاد حادة يعلّق عليها المغسولون، وعدة أسطال ضخمة مملوءة بمواد الغسيل موزعة هنا وهناك. عثرت على (ولهان الخمري) الذي لم أكن أعلم بوجوده بيننا، ولم أره من يوم ارتعشنا في السوق الكبير، حين كان يبكي بعينه وثنديه الضخمين، مثبتاً إلى أحد تلك الأوتاد، وعلى ثديه المتدليين كثندي امرأة، آثار عناكب، رضعت وارتوت وذهبت، واستغربت كيف يغسلون رجلاً كولهان، وماذا ينتظرون من وراء غسله، وهو

الذي لا يجدي سواك الدنيا كلها، في تنظيف ساعة واحدة من ساعات عمره الذي تجاوز الستين، قلت للقائم مقام برهاني، حرره.. حرره يا شيخ، وخلت نظراته الملتبهة، تذكرني بموقعي في الكتيبة، وموقعي الحالي في ضيافة غسيله، شمت آثار أجساد شويت، وأثار عيون اقتلعت، وكانت دهشتي عظيمة حين عثرت على (ودعة) المصاّص، معالج السموم وتشنج العضلات، ولم أكن قد انتبهت إلى غيابه عن المعسكر. كان مغروساً حتى عنقه في سطل ممتلئ بالقار وبراز العناكب، ويصرخ في جنون.. سآتي بالعقارب.. آتي بالثعابين، ألها من كل جحر.. اخرجوني. كنت مندهشاً ومرتباً، ولم أستطع سؤاله، ولا أظنه كان قادراً على إجابتي حتى لو سألت، وأخبرني القائم مقام طوعية، بأنهم يغسلونه هكذا بسبب البطالة، فقد مضى أكثر من شهرين على انضمامه للكتيبة، ولا عقرب لدغت بجنداً، أو أفعى فحّت بجوار أحد، أو التوت قدم لمجاهد، ليقوم بتدليكها. هذا نذير شؤم.. ودليل على اتساخ النية، يردد.. والمصاّص لا يتوقف عن الصراخ.

كان مشرف الغسيل كما يبدو، متشوقاً لانتهاكي، أزال هلاهيل الطباخ التي كنت أرنديها، عن جسدي بسرعة، وألبسني خرقة أخرى بلا لون، كانت تضج برائحة جرد ميت، لبستها وتقيأت، وعلى مدى أكثر من ساعتين، كنت مربوطاً على حائط خشن، على وتد حاد، وثمة سوط رفيع، وجارح من سياط نبات (القنا)، يتحرك في لحمي ويدميه.. ويأتي صوت برهاني.. يأتي هدير آخر، ليصرع ما تبقى من الحواس..

تب إلى الله.. تب يا كافر..

ولا أعرف كيف أتوب، ولا هي مفردات التوبة التي ستعجبه، أو تعجب القائد.

كنا أنا وودعة المصّاص، نمنح ساعات قليلة خارج نطاق الغسيل.. نطاق العذاب، بينما ولهان الخمري، معزولاً وخاضعاً للبربرية طوال اليوم. لم تكن نغتنم تلك الساعات لنريح أجسادنا أو نطرد الدم عن لحمنا وخرقنا الممزقة، ولكن لنلهث بها، أو نستهي فيها الموت الذي يتحاوم، ولا يغرس سيفه أبداً. وفي خلال تلك الساعات الهشة تصادقنا، أنا وودعة المصّاص، لم تكن صداقة قوامها الحديث المتبادل، وضخ فوران النفس لفوران النفس، ولكن صداقة عينين دامتيتين، تأملان عينين دامتيتين، وقلب واجف، يدق أمام قلب واجف، وعذاب رهيب، يترأى لعذاب رهيب.

في أحد الأيام، مات (ولهان الخمري)، وصلت أسياخ الحديد حتى مصارينه وحزمتها. كان تاجر القوارير المحطمة، وقليل الذوق الذي عين لزمان الحرب، ولا أعرف أبداً إن كان قد أدى مهمته أم لا، ملقى أمامنا بلا روح، عيناه واسعتان كأنهما تعضان على نظرة أخيرة، ولا تفلتاهما، وجسده المرموي الذي طالما كان مائعاً، ومندلقاً، الآن يابس ومحطم. بكينا أنا والمصّاص بدموع واحدة، لم تكن نبكي ولهان الخمري الذي لم يره المصّاص أبداً من قبل ولا يعرف تاريخه، ولكننا نحبي جلالة الموت، نؤدي واجب الخضوع لسلطة الموت، تلك التي أذابت الخمري، ولا بد ستديننا. لموه بسرعة من أمامنا، ولم يفلحوا في لم هلعلنا.. أو دموعنا التي كانت تشيعه.

في تلك الفترة، كان بيت الغسيل يطرق باستمرار، ولا تنقطع عنه الأرجل، جيء بجندي من سرية رامبي الأقواس والنبال، قيل صلى ذات صباح وفي عينيه بقايا نعاس، وفتفت أظافره كلها. جيء بآخر من سرية الموت، شكوا بنواياه تجاه الثورة واحتمال فراره إذا نشبت الحرب، ذلك حين تدرب بسيف غير مسنون، واستطاع برهاني في يوم واحد

فقط، أن يستخرج النوايا من داخله، ينظفها جيداً ويعيدها إليه. لكن أغرب المغسولين، كان حصاناً من أحصنة الحرب القوية، يستخدمه قائد الكتيبة أحياناً في تنقله إلى مدينة السور، وكان قد سقط في حفرة لا يسقط فيها حتى سخل رضيع. يصادقني المصّاص بعذابه وأبادله الصداقة بعذابني، ونأكل معاً عصيدة التبلدي المرة، كعذاب متقن آخر، تعذب به غريزة الجوع.

صباح عادي مثل أي صباح معذب، وقد مضى شهر كامل، ماتت فيه الحواس كلها، أصبحت لسعات العناكب، لا تؤلم، براز الجرذان، لا يستدعي القبيح من مكانه، والحجارة المدببة المشتعلة، كأنها أكاسير ترطيب للجلد.. سمعنا هرجاً عالياً في الخارج، وأصوات سرية (جبّارين) ذات الحلق المادرة تصرخ.. يا ودعة.. يا مصاص.. يا قائم مقام.. كان من الواضح إن ثمة خطب قد حدث في المعسكر، ومهمة ما، تنتظر البدوي الذي ينحدر من قبيلة (آل بطاح)، أخيراً.. وإنه راحل.. أنزله القائم مقام من وتد الغسيل الذي كان معلقاً عليه، دلق على وجهه ماء نظيفاً، وأعاد إليه ثوبه الأبيض الذي كان مكوراً في أحد الأركان، دحرجه إلى الباب، سلمه لمجندي السرية، وعاد لمواصلة غسيلي.. وغسيل فرد آخر لم أكن أعرفه ولم أره من قبل ولا دلت ملامحه الهزيلة عن جرم محدد. كنت بائساً إلى أقصى حد، ومحطماً إلى أقصى حد، أتذكر وجهه ولهان الخمري، وعينيهِ اللتين لم تردا أن تفلتا الحياة حتى بعد أن أفلتت. أتذكر الكابوس الذي رأيت فيه حبيبي (حميلة)، بهيمة صحراوية، مثقلة بأثداء الدم والجهاديون يرضعونها حتى تجف، ولا أتذكر طعمها البنفسجي. أتذكر الحاكم (دامير) الذي اقتربت منه كثيراً في أيامه الأخيرة، مبعثراً عند باب خلية الزنج (المزينة)، وميتاً على صهوة جواد، أتذكر القائد موسى عرديب، وأغنية

البائسات (لا تلم يا لائم)، وأبحث عن مفردات للتوبة، لا بد قد وعيتها
أثناء رحلة الغسيل الطويلة، ولا أعثر على مفردة واحدة، كنت وحيداً
ومأزوماً، وبرهاني يتكرر الآن لغة جديدة، يشدني من أماكني السرية،
يضخمها بالوجع والورم.. يهدر.. تب أيها الكافر.. تب أيها المرتد..
أود سؤاله عن معنى التوبة.. ولا أستطيع.

أخيراً انتهى غسيل المتسخ بجدارة، وخرجت من عزلة البؤس إلى غموض المصير. كان أكثر ما يدهشني أنني لم أمت، بالرغم من أنني اشتجيت الموت حقيقة، تمنيت أن ينفجر عرق في الصدر، أو يتوقف القلب عن الضخ، أو تتمزق المصارين، كما حدث في موت (ولهان الخمري). أخرجني القائمقام برهاني، من وسط براز العناكب بلا صراخ ولا هدير، رشني بالماء كما رش ودعة المصّاص، أعاد لي هلاهيل الطباخ القديمة لأرتديها.. ولقنني مفهومه الخاص بالتوبة التي جاءت أخيراً، حين اعترفت أمامه بأنني كنت متسخاً بشوائب النصرانية، والآن أنظف من ضوء النهار.. ثم دحرجني إلى الباب، سلّمني لسرية (جبارين) القوية، التي كنت أتوقعها ستجري إلى خيمة القائد مباشرة، لينقب عن ضوء النهار في وجهي المليء بالجروح والدم، ويطالب بسيرة جيبتي البنفسجية، لكن مجندوها تركوني أمام بيت الغسيل من دون إرشاد، وتخرجت إلى داخل المعسكر.

أول ما فعلته، هو أن ذهبت إلى الخيمة الممزقة، حيث دفنت الحاتم الثمين، لم أكن أريد أن أعانقه وأضمه إلى قلبي، لأتذكر به حميلة فقط، ولكن لأحييه باعتباره كان في إصبع من الأصابع التي حدثت غريزة الجهادي الحمال، ولقّعت وجهه بالدم. كنت أتلفت في حذر وأصابعي تنبش الرمل، أخاف من عيون قد ترائي وتفضحني، وأخاف أن أعود إلى برهاني وغسيله ولا أموت مرة واحدة ولكن مائة

مرة. أخيراً أصبح الخاتم في يدي، أصبح في حواسي، في أحلام ربما أحلمها، ويناديني بصوت خميلة الدافئ المنعش، أن أضمه، أن أقبله، أن أضيع بين نقوشه كما كنت أضيع في لقاءات الوجد.. أسمى هذه النقشة منون، وتلك مرياً.. لا.. لا.. سأعدل الأسماء، أبحث عن اسمين آخرين يشبهان عقيدتي الجديدة التي كنت أحبها بالرغم من كل شيء. ربطت الخاتم على سرتي قريباً من الأحشاء، واستمرت في التجرجر نحو خيمة الطبخ، حيث لا مكان للأحلام، إلا تلك التي تأتي بها قسراً ونحن في كامل الوعي.

استقبلني زملائي الطباخون بالدموع، يكون ويرفعون أكمامهم إلى العيون، يزيلون دمعاً قديماً، ويحتلبون آخراً.. (حربي) الذي كان سقا في مدينة السور، يقيم في حي (كف عفريت)، يتحاوم بالماء على حماره المنهك يسقي ويحصل على القليل، وأصبح طباحاً من دون خبرة.. مناحي الذي جاء من حي (أرض الكوثر)، وكان بلا قبيلة ولا رزق سوى ذلك الذي تحصل عليه امرأته من الدوران ساعات طويلة في المدينة، يحي المشلول من صغره، ويطهو الطعام بمشقة، أو لا يطهو معتمداً على شفقة الآخرين، (ززماء)، العسكري الذي كان قرب القائد (موسى عرديب) حين سقط، وما زال يباهي بلطخة من دم قائده، ملطوعة على صدره، لا تبهت أبداً. (دمير) الأخرس الذي لموه من فوق جثة أبيه الذي كان واحداً ممن التموا للدفاع عن المدينة ومات والمدينة تسقط، وتوما المراهق الذي أصبح اسمه حسون، شريك في اشتهااء خميلة، يلماها بأدواته الخاصة في ليالي الجوع.. لكن أين توما المراهق؟.. لم يكن ثمة خروف مصروع في الخارج عليه آثار تسوما، ولا خروف معلق تسلخه يدان ولا حساء يغلي على النار، تصب عليه البهارات. أين توما المراهق.. أين حسون؟. يدمعون ويرفعون الأكمام لكنس دمع، وإيقاد آخر.. وينهمرون.

كان توما كما عرفت بعد أن سكن دمع الطباخين، قد افتدى المصّاص بروحه، كانا صديقين حميمين، ولم أكن أعرف بذلك، لكن الآخرين كانوا يعرفون. كان المصّاص قد علمه الرجولة خفية، الرجولة الحقة في الجسد الحي، وليس رجولة الوهم على فراش خاو وأوراق مدرسية، كانا ينسرقان في الليل إلى أشلاء المدينة الممزقة، يتلثمان ويضيعان، يغمران، ويضيعان، وصنعا عالماً سرياً حافلاً بأخطاء اللذة، لم يستطع توما احتمال زواله بعد أن غاب المصّاص في بيت الغسيل بسبب البطالة، وأراد أن يعيده. ذلك اليوم كان مهتاجاً بشدة، صرع خروفين في هياج، سلخ جلدهما في هياج، ومضى يبحث في الشقوق والحفر خلف الخيام، حتى عثر على عقرب أسود ممتليء بالغدر، غرسه في لحمه وصرخ، وحين جاعوا بودعة من بيت الغسيل، كان السم قد وصل إلى الروح وأذاهما. واكتشف المصّاص طعمها في لسانه.. ردد وهو يمص ويصق:

- هذا ليس طعم السم، ولكنه طعم الروح.

كنت مصعوقاً بشدة، ولا أكاد أصدق، أتذكر الولد الذي شاركني تعاسة الفقد، حتى بكينا معاً وتعاهدنا عهداً لم أف به، ولا أظنه وفي به، ابن حارس نادي (يوتويا) الذي فقد أباه وأمه، الذي لم أكن أعرفه جيداً حين كان توما عاشق حبيبي الوهمي، وعرفته حين أصبح حسون، طابخ الثريد، وسالخ خراف السعر لخمسائة فرد مسعور. افتدى المصّاص بروحه.. عبارة لم أحسها طرية، ولا انسابت إلى داخلي كما تنساب العبارات، وحتى لو صنع له المصّاص عرشاً من اللذة، قصوراً من الرجولة الحية، لـ أرقده على فراش نساء حي (كاهير)، وحي (لونا وراجيف)، لا أظنه يموت مفتدياً. كان توما في الغالب قد يئس، قد تحطم، قد رأى لون المصير كما لم نره، شم

رائحته كما لم نشمها، واخترع نهاية الزهد تلك، أن يموت بسم عقرب أسود وغادر، ولعله كان الوسيلة الوحيدة المتاحة ليمتطيها، ويمضي. في ذهني المتوعلك، عثرت فجأة على دليل يأسه وتحطمه، كان ذلك قبل يومين من رحلتي في غسيل برهاني، حين كنا نجلس معاً وسألته بلا مقدمات عن رأيه في لون مصيرنا.. قال.. ابحث عن لون مصيرك يا عم، أما أنا فقد لونت مصيري وانتهى الأمر.. لم يقل لونه بأي لون من الألوان القائمة التي تتحاوم حولنا، ولم يضيف حرفاً آخر، وهب واقفاً لأن كبشاً متمرداً أطاح برجلين، ولن يصصره سوى المراهق القوي.

كان ودعة المصّاص الآن، واقفاً على باب الخيمة، وقد بدا لي أكثر نخولاً من أي وقت مضى، حتى حين كانت مواد الغسيل تعلقه وتمص لحمه بلا هوادة. كان قد احتال على نظم المعسكر التي لا تسمح بتواجد المجندين في غير أماكنهم، وجاء لعناقي أو ربما ليعزيني في وفاة ولد صغير لم يكن عدلاً أن يوجد بيننا وأن يموت هكذا بلا عمر. صرخ في أحد الأطباء أن يخرج إلى ساحة الخيام، يصرخ.. إن عقرباً قد لدغ سعد المبروك، وأخرج في نفس الوقت عقرباً منهوكاً وخاملاً من جيبه، غرس ذيله في جلدي، وأخذ يمص.. ومن بين بصاقه وأسنانه الزرقاء كان يخرج حديث كنت أفهم بعضه ولا أفهم البعض الآخر، وتأتي من محجريه الضيقين كجرحين قديمين، دموع تختلط بالدم والبصاق. لم تكن ثمة فرصة لأسأله عن صداقة توما، وعن مراقد اللذة التي وفرها له، وعن طعم روحه كيف كان يبدو؟ والخيمة الآن غاصة بالمجندين الذين اندلقوا على صيحة الطباخ وكان التقلاوي لوحة ناقصة، بلا سيف على الخصر ولا صقر على الكتف، يتأمل المهمة الكاذبة في نفاد صبر. حين ترك المصّاص جلدي وخرج برفقة الآخرين، كنت أقل تشوشاً، وأحس برغبة جارفة في فعل أي شيء آخر غير البكاء.

كان توما قد صنف شهيداً، كما عرفت بعد ذلك، لفوه براءة
خضراء مرقعة، هي شعار المتقي الذي اختطه لنفسه، ولأمراء جهاده
الكبار، والذي غرسه في مدينة السور، ويطمح إلى غرسه في كل شبر
آخر، بما فيها أشبار العاصمة البعيدة الغامضة. بخروه ببخور (التيمنان)
ذي الرائحة السفاضة، رشوه بالمسك الذي هو ريح الجنة، وزفوه إلى
واحدة من بنات الحور، كانت بانتظاره حيث ذهب. وفي ساعة دفنه
التي احتشد لها الجميع بلا استثناء، قالوا إن القائد (عبّادي طلسم)، أمر
أحد المجندين أن يدق طبلاً نحاسياً من طبول الحرب، ويزغرد، وردد هو
بصوت القيادة وصوت قبيلة (الفولاني) العريض، نشيداً حماسياً
مجلجلاً، احتفاءً بذلك العرس المجيد. وحين سألت عن إمكان أن
أزور قبره، لأبكيه، ارتعد الطبّاخون كلهم، كانت زيارة الشهداء في
عرف المجاهدين، تدنيساً لعزتهم، وإقلاقاً لمضاجعهم التي تؤوي بنات
الحور.

فيما تبقى من ذلك اليوم، كنت راقدًا على فراش المرض، ليست
حمى كاملة من تلك التي تحدث في اللدغ الحقيقي، وتأتي بالعرق
والهلاوس، ولكن ارتعاشات قليلة أخبرني المصّاص قبل رحيله، إنها
أصوات جنود الدم، حين يعاركون عدوًا مسكينًا بأصواتهم فقط. فقد
كان السم الذي غرسه في دمي، مجرد مسكنة لعقرب مسكين. صنع لي
(حربي) الطبّاخ مرقاً دافئاً، أبيضاً بشدة، وأبرني (زمزام) ببقايا ورك،
مجرح بالأسنان، لم أستطع تذوقه، لم يسأل عني الأمير طلسم كما كنت
أتوقع، لكن التقلاوي عاد مرة أخرى، كان مكتملاً هذه المرة، السيف
على الخصر في موضعه، والصقر أعلى الكتف، وثمة إرشادات عن كيفية
الصلاة بالإصبع التي يجب أداؤها حتى لو كان المريض على حافة
الغيوبة، كانت تخرج من لسانه.

لم أكن قي الحقيقة أحب التقلاوي ديدام، لا ذلك القدم الذي خدم خدمة بائسة في مجلس المدينة لأكثر من عشر سنوات، ولا هذا الجديد الذي يتلون الآن بالأخضر المرقع، يمشي بالخطوات المنغمة ويتباهى بكونه قائداً جهادياً. وبالرغم من أنه منح لقب الأمير من قبل المتقي شخصياً، كما سمعت، إلا أنني لم أجد فيه ما يملأ القلب أو حتى نصفه، ولا أستطيع مهما امتلأت خوفاً أو تعيماً، إلا أن أستعيده قديماً، يصنع الشاي والقهوة، ويتراكم بين مكاتب المجلس حاملاً ورقاً من توقيع إلى توقيع، أو يتصعلك في أزقة (كف عفريت)، ونواصي سوق (أبي جهل) الشعبي، يغازل الفقيرات، بغزل أولاد الريف الذي كله فسوق ولعنة. أذكر إنني ذهبت مرة إلى قراهم التي تقع جنوب مدينة السور، حيث المطر مجرد رذاذ منهك، والرعي أبقار، وأغنام وإبل هالكة، كنت أبحث عن الثروة، وعدت بالرماد، وعثرت في تلك القرى على عشرات مثله، لا بد الآن يساهمون بفوضاهم، في تلك الثورة غريبة الأطوار التي تقول أيجديات علم (الانحطاط) كما علمني الانطوائي المصري، إنها بدأت نصاً حكومياً كان يمكن أن يمثل وينتهي في قرية (أباحيت)، لكنه خرج عن السيطرة.

كان يقف أمامي وأنقب في وجهه، وصقره الرابض كمحنة، أعثر على قديمه بسهولة، ولا أتذوق جديده. ووجدت نفسي أسأله فجأة، ولا أدري هل كان ذلك عن وعي، أم جزءاً من أصوات جنود الدم، خرج في شكل سؤال:

- سيدي الأمير.. كيف وصلتكم إلى هذه المكانة الرفيعة في قيادة

الثورة؟

ازدراني بنظراته الغليظة، حين أبعداها عن وجهي تماماً، رماها في وعاء ممتلئ بالعفن والشحوم والفضلات، ازدراني بسيفه الفضفي، حين

لم يمد يده إليه ولم يتحسسه، بصقره حين تركه رابضاً كمحنة ولم يلكزه، لكن أعظم ازدرآته كانت، حين خرج من خيمة الطبخ، من دون أن يبدو غاضباً أو مزجراً.

كان الطباخون يرتعدون، يذلّون على وجهي الماء البارد، ويدثروني بالخرق، ويأتي المصّاص شاحباً وأزرق اللسان، يغرس فمه في موضع اللدغة النظيف، ويستغرب. لم أكن محمواً كما ظن الجميع، فقط أصوات جنود الدم، خرجت إلى السطح، ولا شيء آخر.

- 3 -

فجأة ترقيت.. نعم ترقيت إلى وظيفة أعلى، ولا أعرف أبداً كيف جاءت تلك الترقية، لطباخ هزيل، عالق بأذيال النصرانية، وتم غسيله في بيت (برهاني) لأيام طويلة حتى جف. غاب الأمير عبّادي في جوف المدينة يومين عريضين بناء على طلب المتقي، الذي جاء يحمله رسول قيل إن اسمه (عكرمة الضراب)، وشاهدته يهبط عن جواده الرمادي، أمام خيمة القائد، واكتشفت من مشيته وهزة رأسه، وريشة من ريش الدجاج، خلف أذنه تستخدم في الكتابة، إنه قريبي الشاعر (مسمى طاؤوس)، الذي كان يبيع قصائد الشعر للريفيين في (خزي العين)، ولم أندھش أبداً.. الزنديق إذا دعا الأمر.. مادح الجنود الخيالة الذين لم يملكوا أبداً إيجاءات مدح، وناظم آخر أغنية محتالة، ترنح بها المغني (جريح)، في خزي العين قبل أن يندثر، والآن رسول المتقي، لأن الضرورة لا بد قد حتمت ذلك ولا أعرف كيف عثر على المتقي، الذي لا أعرف حتى الآن إن كان حقيقة أم مجرد خيالات فقراء.

لم أخطر أحداً باكتشافي، ولا ظننته اكتشافاً ثرياً، ولكن مجرد حدث عادي، تماماً كالأحداث التي كانت تجري في مدينة السور، حين كانت مدينة.. مخلوف الجنون عارياً في الطرق، يبحث عن أحشاش من النار، ليبنى بها سفينة نوح، إحدى بائعات الهوى من حي (ونس)، تابت فجأة وتوقفت عن دفع الضرائب، فقيرة من حي (أرض الكوثر)، باعت طفلاً لسائح.. دجال إفريقي يأتي فقيراً، ويفر حاصداً ثروة.. هكذا.

أرسلوا في طلب غداء للرسول المحترم، وأعددها كما طلب، ذكروا إنه يحب اللحم مشوياً، يحب طعم الملح و(الجهان) على حسائه، فشويونا اللحم، وأكثرنا من الملح والجهان على الحساء، وقالوا يحمل أنباء جديدة للقائد، ولم نسأل، لأن لا أخباراً جديدة ولا قديمة، ستحفر كوة في ظلام المصير. وقد سمعنا في الآونة الأخيرة إن حكومة العاصمة قد بترت (السور) وضواحيها، وأريافها التي تغلي بهوس المثقي وأتباعه، عن جسد الوطن، وتفرغت لابتكار وسائل للحماية لبقية الجسد، لكن لم يكن ذلك مؤكداً.

كان مسمى قد اختفى عن عيني أثناء إرهابات الحرب، وبالتحديد، في ذلك اليوم الذي أقيم فيه عرس الغراب، عرس الملكة نديمة، والبكباشي صبير الذي لم تحبه أبداً. لم يكن واحداً من السواعد التي التمت من كل شبر لتفتدي المدينة، لم يكن في صحة من تجمعوا للاحتفاء في سرداب ساحة المجد، ولا كان مرتبكاً، ومفزوعاً مثلنا، يوم ارتبكنا وفرعنا في السوق الكبير.. سوق حمزة وابنه، ولم تنعه الأخبار التي تواترت ونعت من مات. في الحقيقة لم يكن ذكره يرد إلى خاطري أبداً في تلك الأيام العصيبة، بالرغم من قرابتنا المؤكدة، حيث يعتبر واحداً من أبناء العمومة، فلم يكن مسمى الذي كان قد تجاوز الخمسين، بلا عيال ولا زوجة، من ذلك النوع الذي يترك في الذهن خامات ذكرى.

ترك القائد أمر الكتيبة في غيابه، للتقلاوي ديدام، ورافق الرسول عكرمة الضراب، الذي هو مسمى طاؤوس إلى المدينة، منوها بصوت القيادة وصوت قبيلة (الفولاني) المجلجل، إنه سيعود بعد يومين. وكانت تلك اليومين، هي ألغن يومين أحضرهما في صحة الكتيبة، امتلأتا بصوت التقلاوي الغليظ، بخطواته الراكضة بين الخيام، بسيفه الذي

أكل إصبعاً لأحد المجندين، وصقره الذي كان يتسلى بخصيات الرجال،
يعتصرها بين مخالبه، ويتهزئ. وفي اللحظة التي اقترب فيها من سرية
(جبارين)، أقرباء الأمير طلسم، وحراس بيت الغسيل، وأراد تحديد
مهامها والتأكد من كفاءتها لحراسة ذلك المستودع، تصدى له (جبريل
لالو)، قائد السرية بأن وقف طويلاً وعريضاً أمام صوته، فألغى انتفاشه
في شأها.

من ناحيتي، لم يتغير أي شيء كما كنت أتوقع وأخاف من
توقعي، وكأن ذلك السؤال الذي باغته به، في يوم لدغتي المسكينة،
كان عن حالة الطقس، أو تحية.. هي السلام عليكم ورحمة الله. كان
يزور خيمتنا في حمى زيارته للخيام، قد يسأل عن مقادير الملح التي تثير
الدم، قد يمد يده إلى النار، يتناول قرصاً لاسعاً من القمح، يتذوقه، وقد
يفلت صقره، يتركه يرعى في العفن والفضلات، ولكن ليس في خصيتي
أبداً، وقد غلفتها بعشرات الخرق، تحسباً لمكر الصقر. وفي أوقات
الصلاة، خاصة تلك التي تقرأ آياتها جهراً، كان يزيح سيدنا (مفتاح
الفلاح) بخشونة، ويقرأ بصوته الغليظ، قراءة لم تكن تعجبني، ولا أظنها
تعجب أحداً.

أخيراً عاد القائد الحمال من مهمته في المدينة، سمعنا صوت خيل
تسهل، وحوافر تحفر، وصوت آلة (الكارور) العصية على النفخ، يترنح
بأنفاس اليمني (جبار القرنين)، وظننا أنها لغة الحرب ترطن وتتوغل في
الرطانة، وخرجنا إلى الساحة التي تتوسط الخيام، وكل يحمل أداة موته
أو انتصاره. حتى نحن الطباخون الذين دربنا من قبل، كنا نحمل
السيوف والحراب، والدعر.

كانت الساحة مضاءة بفوانيس شحيحة الضوء، كأنها امتصت ما
تبقى من ضوء النهار، والآن تدلّقه بشح، القائد يقف في المنتصف تماماً،

أخضر الثوب والعمامة، وبين أصابعه ورقة صفراء مطوية، عن يمينه
التقلاوي بلا غطرسة ولا صقر ولا سيف في الغمد، واليمني جبار
القرنين، ما زال يضح أنفاسه في الكارور، حتى غدا حلقاً منتفخاً،
وحتى بعد أن تقيأت الخيام كلها، وتجمع قيؤها مكتملاً بالعدة والعتاد
في وسط الساحة.. رأيت حاملي النبال يحملونها بترف، رامبي القوس
والنشاب، على وشك أن يرموا، المدربين على ثقل السيوف والحراب،
تلمع أدواقهم على الأكف، وأولئك الحداثيين ممن تعلموا رطانة البنادق،
يجهزون بنادقهم بالرطانة.
- حسنا يا جبار..

هدر صوت القيادة، صوت قبيلة الفولاني الكبير، وتوقف ضجيج
الكارور.

- ليست هي الحرب يا أحباب.. ولكن رسالة من سيدنا المتقي
أعزه الله. أثنوا على المتقي يا أحباب. أثنوا على المتقي.
بغثة هدرت الحناجر بمديرها الذي قهرنا في يوم الغزو، أكثر مما
قهرتنا السيوف، والحراب، هدر بنغماته ورطاناته المختلفة، بقبائله
وشرازم قبائله وتضفر ليتعانق، ويتصافح، ويسري في بداية ذلك الليل
الغريب، وأكاد أسد أذني حتى لا أسقط:
- أعزه الله.. أكرمه الله.

كانت نظرات القائد الآن تتقافز بين المجندين، تعض برهة على
وجهه، وتقلته لتعض على آخره، والفوانيس شحيحة الضوء، لا تمنح
الملامح كاملة، ولكنها تمنح الإحساس بوجود ملامح، تابعت نظرات
القائد في ركضها، وعدم ركضها، وتحيلتها برهة تتوقف عندي، تعض
على وجهي أكثر مما عضت على وجوه الآخرين، دقيقة، دقيقة، وعشر،
تماماً مثلما حدث في يوم السقوط، يوم هبط الحمال عن فرسه

وسط الحراب والذعر، ويوم عينت طباحاً برغم مكانتي وقدري، والآن
أرتبك أمام ذلك العض الجديد، ولا أدري ماذا سيحدث.
- اقترِب يا سعد.

واقتربت. كياني يهتز، وأحاول التماسك، الورقة المطوية تنسل من
يد القائد وتمتد نحوّي، ولا أخاف لمسها أبداً، ليست حجرة بالتأكيد من
ذلك الجمر الذي كان يأتي به التركيان أرقم وجاويد، ويخاف الحاكم
دامير من لسه حتى لا يحترق ويأمرني بالاحتراق به، ولكنّها بالقطع
قصيدة حاملة. قصيدة (ريماس) التي كلها نجوى، وأصوات عصافير تحت
أشجار المانجو، أو على حافة غدير.

- اقرأ رسالة المتقي يا سعد.. اقرأها على الأحياب.
كان صوتي نشطاً بشدة، وأنا أواجه الجند، أربطهم إلى صوت
المتقي كما تخيلته، كما رسمه التركيان الرسولان، وأحاول رسمه الآن:

بسم الله الرحمن الرحيم

من الإمام المتقي، ناصر الحق وحارس الدين، وغارس الخوف في
قلوب الواجفين، إلى أحيابه حاملي رايات الجهاد.

نقرئكم السلام، وندعو لكم بتمام الإلفة والوئام، وإنه قد بان ما
خفي، وانكشف ما كان مدسوساً، ودخلنا السور لنطهرها من الدنس،
ونغرس على أرضها بذور العزة، ونخرجر الكفار وأذيالهم إلى هلاكهم،
وقد أبلّيتُم أيما بلاء وأحسنتُم أيما إحسان، وإننا نبشركم بريح الجنة، ونثق
في بلائكم يوم الزحف الكبير، من منا لا يحب الجنة، من منا لا يشتهي
بنات الحور، من منا لا يود نيل الشهادة. سأزوركم قريباً يا أحياب،
أتملى من نور وجوهكم الطيبة، وأدعو لكم بالخير.

سلام علينا في الدارين.. هذه الفانية، وتلك التي نشم ريحها،
وبئس للكفار وأذيالهم.

انتهت القصيدة الحاملة، وهدرت الحناجر بالرطانات كلها، أعر
الله المتقي.. أكرم الله المتقي. كان نص (أباخيت) المتواضع، بتواضع
القرية التي مثل فيها لأول مرة، قد اتسع بجدارة، ويسعى الآن ليمثل
على مسارح الوطن كلها. فحت آلة (الكارور) على حلق اليماني،
معلنة انتهاء الهدير، تشتت المجندون إلى خيامهم، وليلهم الذي قد
يضمونه نعاساً، وقد يضمونه ترفاً في تسلية الورق والحظ، وقد
يسرقون منه ساعات بذية، ينفقونها في سوءات المدينة التي لن تنقطع
عنها السوءات برغم كل شيء، شاهدت المصا، نخبلاً ومسكيناً
ومقوس الظهر، يتحرج نحو خيمته، شاهدت مشرف الغسيل
(برهاني)، مدحجاً بالنجوم والصقور، يمشي بنخبلاء، وأمسك بي
صوت القائد الكبير في لحظة لم أستطع فيها مراوغته والإفلات من
حصاره:

- تعال معي يا سعد.. تعال.

لم نكن وحدنا في الخيمة الكبيرة هذه المرة، لكن التقلوي كان
هناك، واليماني جبار القرنين أيضاً، بحلقه الذي ما يزال منتفخاً من
صراع آلة الكارور. جلست على أحد بروش السعف المقشرة، كما
أمرني القائد، أتوقع كل شيء، حتى العودة إلى غسيل برهاني، ولكن
ليس السؤال عن صلاح حميلة أو سيرة حياتها، ليس هذا ليل البنفسج
بلا شك، والخيمة ليست لنا وحدنا، أنا والقائد، ولكنه ليل آخر سأتابع
وحله ومرارته، وأرى ما وراء ذلك النداء.

- منذ الآن لم تعد طباحاً يا سعد. ستصبح تابعاً للقائد.. هذه

هي وظيفتك الجديدة.. هل تفهم؟

ردد القائد، ويداه الجافتان، تعبثان بمسبحة الصوفيين المنسوجة من
ثمار (اللالوب).

لم أكن في الحقيقة قد فهمت ولا ظننت إنني سأفهم أبداً، لكن جبار القرنين، الذي كان يبدو وثيق الصلة بالخفايا، وتجاوز مهماته نفخ الكارور، وتفصيل الدروع، وترويض خيل الحرب ذات الصهيل القوي، أفهمني، وبناء على إشارة من القائد.

كانت وظيفة التابع في واقع الأمر، وظيفة ذليلة أخرى، لكنها في نظر الجهاديين، أرفع شأنًا من وظيفة الطباخ المفصلة أصلاً لمنهوكي القوى، وفئات القبائل، كانت تختص بملازمة القائد في كل لحظة من لحظات يقظته، تجهيز ماء وضوئه، تجهيز سجادة صلاته إذا صلى منفرداً، تجهيز ثوبه الذي سيرتديه، تجهيز أفراحه وأحزانه، ومده بخامات خطبه التي قد يلقيها أمام الجنود، وأيضاً كتابة رسائله إذا ما راسل أحداً، ومرافقته إلى داخل المدينة، إذا دخل المدينة، والموت بقربه أو مده بحلاوة النصر، إذا ما قامت الحرب ومات فيها أو انتصر. كانت باختصار شديد، وظيفة خادم، وخادم مطيع، يستيقظ قبل أن يستيقظ القائد، ولا ينام حتى ينام.

لم يكن للأمير عبّادي، تابع حتى تلك اللحظة، ومنذ أن نزلنا من داخل المدينة بعد أن تورمت، وسقطت، والجهاديون في كتية صقور، بكل طوائفهم وأمزجتهم وفوضاهم، يتطلعون، يودون لو اختبروا تبعاً للأمير، والأمير لا يبدو مغرماً بأحد، ولم يشر أبداً إلى حاجته لتابع. كان ينجز شؤونه الخاصة بنفسه. وكنت دائماً ما أستغرب حين أسمع عن ذلك الطموح، ولم يخطر ببالي أبداً أن أصبح ذلك الذي حلم به الآخرون ولم ينالوه. كنت في قمة البؤس حقيقة، أتوجس من وظيفة قد تقرّبي من النار، أكثر مما تبعدني عنها، قد تثير الغيرة والحسد في مجتمع بائس حتى وهو بلا غيرة أو حسد، وفكرت في قريبي مسمى.. عكرمة الضراب، رسول التقي، وإنه من نصب لي

الشرك حتى أسقط، لكن مسمى ليس حصيفاً في نصب الشراك، لم يستعد احتياله لمصلحته، ولا أظنه حتى يعلم بوجودي هنا في قلب النار التي لامسها على صهوة جواد ومضى. فكرت في حميلة التي في قلبي، وفي شهوة القائد وسبيه، واقتنعت بأنها لم تنصب الشرك حقيقة، لكن الشرك نصب من خامات رونقها. يريدني القائد الحمال خادماً ليمتطيني، ليذهب بي إلى البنفسج، ذهاب خادم وسيد، لم ينقب في وجهي حتى، لبحث عن ضوء النهار الذي رسمه برهاني كما اعتقد، ولم يتأكد إن كنت جهادياً حقيقياً، أم ما أزال عالقاً بأدران النصرانية التي هبت ثورته لجزها من العرق. في خيمة الطبخ كانت ثمة خصوصية، حتى لو كانت خصوصية طائر جريح، خصوصية طباخ مهزوم، نعد الطعام، ولا شيء آخر، وننتظر الحرب لنموت أو نغيا عرايا، أو نعود إلى السور لترتق جروحها، وربما يفس أحدنا وتحطم، واختار ميتة زاهدة كميته توما المراهق، ولولا إنني كنت في قلب حميلة، وكانت هي في قلبي، وشهوة القائد الحمال، لربما كنت كحربي، أو مناحي، أو العسكري زمزام، أو المشلول يحيى، بعيداً عن النار الحقيقية، لا أقرها.

كنت في حاجة لمن يرحم هواجسي، يهشها بعيداً عني، بحاجة لمن يمنحني صدرًا حتى لو كان صدرًا بلا عواطف، لأرتمي فيه قليلاً، وبحاجة ماسة لعقرب حقيقي من عقارب الغدر، يغرسه المصّاص في دمي، ويمص باصقا طعم الروح.

قلت للقائد في داخل أفكاري فقط، إنني لا أصلح، وما طاش قولي إلى أبعد من الأفكار، وشاهدت في وسط الخدر والتوهان، جبار القرنين اليمني، يقترب مني، يسلمني سيفاً ودرعاً جديدين لا تشبهان سيوف ودروع الطباخين القديمة المهترئة، وملابس بيضاء رسمت عليها شارة خضراء، هي لا بد شارة التابع التي تميزه.

كنت في طريقي إلى خيمتي القديمة، أستبدل قميصي، وأفكاري،
وأهر البؤس الحديد ببهارات جديدة تشبهه، حين لحق بي الثقلوي
ديدام، كان ودوداً إلى درجة لم أصدقها، بارك لي وظيفتي الجديدة
باحترام، وابتسم وكانت ابتسامة لم أستطع قراءة ما وراءها أبداً. لم
تكن القديمة الخاضعة، ولا الجديدة ذات السطوة، ولكن أخرى لم
استطع قراءتها. كنت على وشك الدخول إلى خيمتي حين مد يده إلى
جيبه، أخرج زجاجة صفراء صغيرة، عليها غطاء ذهبي، غرسها في
يدي وهو يردد:

- ربح الجنة.. ربح الجنة يا شيخ.

جهّزت لي على عجل، خيمة صغيرة من قماش كان أزرق داكناً في أحد الأيام، وتبخر لونه، بجوار خيمة القائد. كانت في الواقع ملتصقة بالخيمة الكبيرة، بحيث أمكنني أن أعد أنفاسه الغزيرة، أسمع نحثته، وأتلدذ بكوابيسه التي كانت ممتلئة بالغزوات ونضال السيوف، والتجشؤ، وسيرة سيدنا المتّقي، أعزه الله وأكرمه، وسمعت في إحداها اسم (حميلة النعناع) يتردد بلا شك، وارتجفت، لكنني ألغيت ارتجافي بسرعة، وتماسكت، وأنا أكذب على نفسي، وأحيل نعناعة الكابوس، امرأة أخرى، غير حبيبي التي لم تكن أبداً من فصيلة النعناع. ولكن من فصيلة البنفسج. كان خاتمها ذو الفواريص الثلاث - مربوطاً إلى وسطي بخيط من خيوط (الدوبارة)، أتخسسه في وقت انفرادي بنفسي، وأتأكد من بقاءه هكذا قريباً من الأحشاء. ترى هل انهزمت حميلة بغسيل آخر في بيوت السبايا يشبه غسيل برهاني؟.. أم ما تزال تناضل بضعف، ضاحخة الكوابيس التي أسمعها وأكذب سماعها إلى نوم الحمال؟. كان بلا شك يذهب إلى المدينة كما يذهب الآخرون، بلا شك يقضي ساعات كما يقضون، لكن لا يهمس أحد بتسلل القائد كما يهمسون في تسلل الآخرين، ولا كان ممنوعاً على رجل مثله، يعيش وسط القحط، وكتيبة كلها رعا، أن يقضي ساعات من المتعة الصحيحة المعافاة، وسط غنائم غنمها.

في الصباح أجهز ماء الوضوء على الإبريقين الفخاريين، في الظهر والمساء أجهزه، أتأكد من وصول الطعام حاراً من خيمة الطبخ، حيث كلف (حربي) السقا بإعداد طعامه بعد أن رحلت. أتحاوم حول الثياب الخضراء المرقعة، أزيد رقعة وأعمق أخرى بناء على مفردات الزهد، وربما أفردتها تحت ثقلي، وأجلس عليها ساعات حتى تبدو ثياب قائد خالية من التجعد. كنت أنظف الدروع من غبارها، أتأكد من حدة السيوف والحراب، بتمريرها على جلدي، لأنجرح. وحين يخرج القائد في طوافه اليومي لنصرة جنوده، وإهدائهم أحلام الموت، وريح الجنة المتخيلة، وسماعهم يشنون على الإمام المتقي بذلك المدير مختلف الرطانات، أخرج معه، أشاهد الغيرة في وجوه غبورة، وأشم الحسد في قلوب تحسدني في المعاناة. وكان الكثيرون بما فيهم قادة السرايا أمثال (لالو)، و(دهمان)، يقتربون مني خلصة، يتأملون شارة التابع تلمع على صدري وتميزني، وينتهدون.

كان التقلاوي يرافقنا في ذلك الطواف باستمرار، سيفه في الغمد، وصقره على الكتف، وحوارات عن الكفاءة والولاء، والاستعداد للحرب، دائماً ما تدور بينه وبين قائد الكتيبة.

لم يحدثني الأمير طاسم في اليومين الأولين كثيراً، بدا مشتتاً في تأملي، وتقييم نشاطي وضوء النهار في وجهي، ودائماً مسبحة الصوفيين، تتراقص بين أصابعه.

في اليوم الثالث، وكنت معه في الخيمة الكبيرة، أمزق ثوباً جديداً أرسل من المدينة، وأحيطه خياطة الزهد، رأيت الجمر القديم ينط إلى عينه بغتة، ثم ينطفئ.. قال:

- اجلس يا سعد..

ولم أجلس، لأن التابع لا يجلس أبداً في حضرة الأمير، كما علمني اليميني جبّار القرنين، ولأن خوفاً داهمني في تلك اللحظة، أن يحدث جلوسني، بقعة معتمة في ضوء النهار، الذي جاهدت طوال يومين ماضيين، أن أبقيه ساطعاً على وجهي وخدمتي. ظلت واقفاً مصلوباً، ويدي اليميني على شارة التابع، كأني أستمد منها صلابة الوقوف. لا بد ستعود سيرة حميلة مرة أخرى إلى حوارنا، بعد أن كانت ألفاظ كابوس في اليومين الأخيرين. ولا بد أن أعدل في تلك السيرة، حتى لا أعود إلى غسيل برهاني، وقد لا أنجو هذه المرة. كنت أكتب سيرة مترفة في ذهني، وأكتب بسرعة.. تخاف مواء القطط، تخاف بصاق الثعالب، تخاف حتى من ثرثرة الجارات إن ثثرن، وماشطات الشعر، إن مشطن شعراً. تمشي وهي نائمة في كل ليلة، وقد عثر عليها نفر من شرطة الخيالة ذات يوم، تمشي في ليل المدينة، وعليها ثياب عبدة، وأعادوها إلى بيت ظنوه بيتها، وكان في الواقع بيت لص نهب منها حتى ثياب العبد، وألقاها عارية في الطريق. لا بأس.. متسخة بشدة، تعشق الحصى والرمل، ولا تنام إلا وقشور ثمار الدوم، مبعثرة على فراشها. كنت أكتب في الذهن، أكتب بسرعة، وفي لحظة لمست الخاتم المخبأ في السرة، بقرب الأحشاء، كأني أعتذر، والقائد يعث بمسبحة الصوفيين، وحلقه تورم الآن:

- هل حقاً لا تعرف عيوب امرأة كنت خطيبها ذات يوم يا سعد؟

- أعرف يا سيدي.. أعرف جيداً.

رددت، ولمسة أخرى للخاتم المخبأ، تكونت وزالت سريعاً..

أعتذر يا حميلة.. أعتذر يا حبيبي.. أعتذر بشدة. وإذا ما تعدل المصير ذات يوم، والتقينا في ليل وردي، أو صباح زاه، سأبكي عند قدميك، سأطلب الصفح.

لم يطلب الأمير قائمة بتلك العيوب، كما قدرت واستعديت،
لكنه قفز إلى ما وراءها، ورمى باستفسار جديد:

- وهل تظنها ستصلح ذات يوم يا سعد؟

- طبعاً يا سيدي.. العيوب تختفي بمرور الزمن، والشخص
المصدوم من فقد شيء أو قريب عزيز، لم يكن يتوقع فقده، يحتاج إلى
وقت طويل لينسى، غمماً كما نسيت أهلي الهالكين.

كانت حصاة ألقيتها في مجرى حوار، قد يظل هكذا راكداً
يتحاور حول جسد الحبيبة التي يملكها الحمال، ولا يستطيع لمسها، وقد
يثور فجأة، يستل سيفاً سنيناً، ويمزقني، لم أنس أهلي أبداً.. لم أنسهم
حتى وعناكب الغسيل تلغقني، وروائح الجرذان الميتة تعفن دمي، مر يا
توموس المائمة في مطبخها ومملكتها، تعد الفجور اللذيذ، الفتى رزق،
ذا الشعر المجعد وابتسامة الأطفال، ومشية العسكر التي كان يعشقها منذ
الصغر، ورجائي صاحب الإصبع المفقود، الذي ما أزاح يده اليسرى
أبداً من أمام عيني، ولا ضمها إلى جسده، من يوم أن لسعه كلل المخ.
لم أنسهم.. لم أنسهم حقيقة.

- أحسنت يا سعد..

ردد القائد..

- كانوا هالكين بالفعل، عمي وصم، وما نطقوا بالشهادتين.

إذن فقد ماتوا.. مات أهلي بالفعل، ذلك المصير الذي كنت أود
معرفته منذ أن انضمت إلى البؤس، ولا أود، الضوء الذي أردته أن
يشع، وخفت من إشعاعه، والطعنة التي تحاول الآن أن تزعزع عقيدتي،
ولا أود أن أتزعزع. كانوا غنائماً تالفة بلا شك، وسخ غنائم أحرقه
الجهاديون في ساحة المجد غير الآمنة، حين لموا الترف النظيف، وأحرقوا
الوسخ.. كان أخي رزق عسكرياً متطوعاً، لا بد قاتل ومات عسكرياً،

لكن مر يا الهائمة. رجائي فاقد الحس والإصبع، هل قاتلا أيضاً؟، هل رفعا سلاحاً في وجه أحد؟.. السيناريو اللعين، مسرحية الهمج، حين خرجت عن مسرح (أباحيت) المتواضع في أرضه وجمهوره، وتمثل الآن في كل شبر.. أحسنت يا سعد.. ولم أحسن حقيقة لكنني نافقت. أحسست ببوادر دموع، وخفت أن يعتبرها الحمال عاراً، أو شعيرات ذيل عالق بالماضي، فتركتها تتجمد على العين، أو تنحدر داخلها.. لكن الحمال يلمحها، ولا يزجر:

- لا بأس يا سعد.. لا بأس.. أنت الآن في النعيم.. قريب من الجنة.. خذ..

أخرج من جيبه قارورة من المسك، شبيهة بتلك التي دسها التفلوي في يدي ساعة أن عينت تابعاً، فتحها ورش محتوياتها على وجهي وملابسي، والآن وقفتي ليست متصلة تماماً، ولكنها وقفة كسيح يحاول ألا يبدو كسيحاً.

- لا بأس.. لا بأس يا مبروك.

وأحس تلك (اللا بأس)، حوار سيف، أو رشقة سكين، وأحسد الحاكم الراحل، يوسف دامير، إنه مات في الوقت المناسب، وولهان الخمري، تاجر الجلد والعظم، إنه غسل حتى جذور المصارين. لم يبق من طعم الماضي سوى طعم حميلة، لكن طعمها الآن مر، ولا أملك حولاً ولا قوة لتغييره.

- قريباً سندخل السور، أنا وأنت يا سعد.. سأزوجك من المجاهدة (ضو) التي ستساعدك، ستكون عريساً لواحدة من حوريات الأرض.. خذ..

ورشة أخرى من المسك.. من ريح الجنة التي تخيلها الجهاديون.. ويسرفون في استهلاكها.

كنت لاهثاً، أدفن الحزن مؤقتاً، وأحاول الالتقاط، أعود بذهن
جامع الثروة القديم، إلى مدينة السور - أيام أن كانت مدينة، تماماً
مثلما فعلت، حين ظهر طلحان الزنديق في رسالة الهوس، واكتشفنا بعد
ذلك إنه مجرد رمز. كانت المدينة وبقدر امتلائها بالوسخ والفقر،
ووعورة السحنات، تضم حوريات بلا شك، حوريات عشن في قلوب
العشاق، وحوريات أقمن في نزف الأغنيات التي ردها (جريح)،
وغيره من المغنين الذين كانوا يلعبون وينطفون. حميلة جماري حورية
الحوريات بدمها القبطي، وبنفسجها المشع.. الهندية (ساراما)، التي
كانت تقسم في حي (لونا وراجيف) وتخطر في الأسواق في ساعة
زحامها فقط، لتصرع المزدحمين، حورية بلا شك.. ماريكار، ابنة تاجر
الخمور فندوري، الذي قتل يوم الغزو لأنه أطلق الشهادة أمام وجه
السيف، حورية أيضاً، وحتى الملكة التافهة الحبيبة، نديمة مشغول،
كانت حورية، إذا راق عندها المزاج، سالت دماؤها الشهرية سلسلة،
وسقط ثقل العمر..

كثيرات.. كثيرات بلا شك، لكن أيهن ضوء؟
أيهن التي كانت عاراً في الماضي، وتحولت إلى ضوء؟.. من يا عقلي
جامع الضرائب.. من؟

كنت أستبعد حميلة لأنها خارج اللعب، ومسورة بالشهوة الكبيرة،
استبعد الملكة نديمة لأنها ضاعت في الحدود، خارج نطاق الرؤية، وربما
اخترعت قبراً في العراء، كان وطنها الأخير.. ربما كانت ضوء، من البدو
الذين يضخون إلى الحياة، بنات حور جلفات بلا رونق، وربما كانت
من حطام القرى التي نهب الجهاديون خيرها.. وشرها.. وحورياتها.

كان أكثر ما يحيرني في ذلك الطرح، ليس مقايضة حميلة التي لا بد
يرمي القائد، أن أواجهها، وأدخلها بنفسها سلسلة إلى حياته، بواحدة

قد تكون حورية في الأرض، وقد لا تكون، ولكن حمل السيف.. حمل الحربة، الطعن بالسيف، الطعن بالحربة، وريح الجنة الذي يبعثر من القناني، ويلصق بشهوات الأرض. هل حقاً هي تعاليم المتقي الذي لا أعرف أحداً التقاه حتى الآن، وأتخفنا بوصفه؟، أم خيالات متخيلين، تعصب عصابات، ورسائل يكتبها قطاع الطرق في صحراء (شرشر) التي كانت تحكم بالخرق والأثمال، وفتافيت الخبز؟. لا أستطيع التفكير. لا أستطيع التخيل.

أردت أن استفسر من القائد طلسم عن ملامح ضو. عن صوته، هل هو ناعم أم خشن، عن دفنها لو كانت دافئة، وهل أملك خيار رفضها لو لم تدخل إلى قلبي؟. أردت أن أسأل عن جدوى الزواج، لرجل عالق في كتيبة محاربة، تنتظر رطانة الحرب بين ليلة وأخرى، وربما يهلك، وما جرؤت. كانت تعاليم الجهاديين واضحة، وشديدة الوضوح، لا سؤال في شأن قيادي أبداً، ولا إرادة إلا تلك التي يرسمها من حول له رسمها. الذي يسأل يرتد، والذي يرتد، قد يغسل بلا رجعة، ولم أكن مستعداً لغسيل جديد.

كان القائد يقرأني بلا شك، وأخاله لم يغفل سطرأ واحداً، من تلك الهواجس التي كتبها في ذهني، ولم استغرب أبداً كما استغربت من قبل، أن يصبح حامل سفاهات سوق أبي جهل، وثقافته الفقيرة على ظهره، قائداً كبيراً في نص (أباخيت) الرهيب.. كان فطناً تحت جمر العينين، وثعلباً خلف صوت قبيلة (الفلواني) المجلجل.

- ستقيم لك هنا في المعسكر، عرساً مجيداً يا سعد، ونمنحك وقتاً

تقضيه مع امرأتك كلما سنحت فرصة.. هذا يرضيك يا سعد.

كان استثناء صاخباً بلا شك، ذلك الذي أمنحه الآن، استثناء ينتقيني من وسط خمسمائة فرد مسعور، كلهم يملكون الجسد ولغته،

ويودون قطعاً أن يحيلوا سرقات الليل المثلثة، إلى منح رسمية، تمنح لهم في وسط النهار. تماماً كالماء والخبز.

لن أجادل في الأمر، ولن أغسل بلا عودة.

بغثة سمعنا صوت حوافر لجواد، حفرت حتى مدخل الخيمة، وكان التقلوي ديدام، بأنافته الصادمة كلها، واقفاً بالباب، ويخبر عن رسول قدم لتوه من قبل الإمام المتقي. رددنا أنا والقائد.. هدرنا.. أعزه الله.. أكرمه الله، وهب القائد من صدره ومسبحته، ليشاركني وقفتي المصلوبة الكسيحة، ويأذن بدخول الرسول.

لم يكن قريسي مسمى - عكرمة الضراب، كما توقعت، واستعدت لمقاومة نظراته ومحاولة قهرها، ورسول المتقي بلا شك، أرفع مكانة من تابع لقائد من قادة الحرب، قد يستبدل في أي لحظة وتلقى توابعه في المزبلة، لكنه كان رجلاً من حي (كف عفريت) اسمه (النصيب)، كان فيما مضى جرسوناً عادياً في مقهى (خزي العين)، وواحداً من تلك السواعد التي لمناها لافتداء المدينة، حين قررنا افتدائها. كنت أعرفه لأنني أعرف (خزي العين) جيداً، وأعرفه، لأن أخته (ذهبية)، كانت في يوم من الأيام، أجمل فتاة خرقاء في مدينة السور على الإطلاق، قبل أن تموت برفسة حمار غاضب، أرادت أن تنتف شعرة من ذيله.

لم يجلس (النصيب) على أي برش من تلك البروش السعفية، الممددة على أرض الخيمة، لم يطلب غداء مشوياً، ولا حساء ممتلاً بالملح والحبهان، كما فعل قريسي عكرمة الضراب، ولا حتى بدت في بطنه الضامر علامات غازات تعلق وتنخفض بفعل جوع. خاطب القائد مباشرة، بعد التحية:

- يقرئكم سيدنا المتقي السلام، ويخبركم عن نيته زيارتكم غداً إن شاء الله للاطمئنان على استعداداتكم.

- هل جد جديد؟

يسأله القائد، وأخال حلقه يابساً، لأن السؤال لم يكن رطباً، كان جافاً إلى أقصى حد.

- لدينا أخبار عن جنود يأتون من مصر عبر بواخر النيل، ودروب الصحراء، لدعم الحكومة في العاصمة.. لن يصلوا إلينا قبل ستة أشهر على الأقل، لكن سيدنا المتقي يريد أن تبقى الروح المعنوية روح حرب، كما لو أنهم سيصلون غداً، وقد يأمر بتحريك الكتائب لملاقاهم بعيداً عن السور، ودحرهم في الصحراء.

حيا الرسول قائد الكتيبة مرة أخرى، ومضى، وينط إلى ذهني المرهق بكثرة الوسوس، قول (ودعة المصّاص).. دعنا نستمتع.. دعنا يا صانع الثريد. ترى ماذا سيقول ودعة المصّاص، حين يشرك برفقة زملائه المسعورين، في احتفال عرس سيقام علانية وتحت السمع والبصر، لذلك الذي لم يكن أبداً سارقاً لليل، ولا ملثماً، يضيع خلصة في ما تبقى من وسخ السور.

تلك الليلة لم أتم أبداً، ولا نام القائد عبّادي طلسم، ولا أظن نام أحد آخر من المجندين الذين لهم (كارور) جبار القرنين في الساحة الكبيرة، وفتتهم بعد أن أعلموا بالزيارة الميمونة لقائد الجهاد. لم أسمع شخيراً أو كابوساً بطعم الدم والتنعاع، ينبعث من الخيمة الملاصقة، وكانت نunchات متقطعة، أو حبال صمت.

التممت في خيمتي، وظللت أبكي بكاء محاسن الجرداء يوم أن عادت إلى السور بلا عيال، وبكاء الملكة نديمة، حين لبست خاتم الذهب غالي الثمن، لتتزوج من القلب المحطم، وصبغة الشعر، وجاهدت قدر الإمكان ألا يطير بكائي إلى بقطة القائد في الخيمة المجاورة. وفي اللحظات القليلة التي يحف فيها دمعي، ويستحدي المنابع

لتنحلب من جديد، كنت أرسم صورة المتقي في ذهني، صورة الخيال الذي قد يصبح حقيقة غداً، وقد يظل خيلاً إلى الأبد. أرسمه شيخاً في السبعين، يقود الجهاد بلا عمر، ولكن بقيود صوت فقط.. أرسمه عريضاً وناشفاً وفظ التقاطيع، كعبّادي طلسم، وجبريل لالو، قائد سرية جبارين، وناحلاً مقوس الظهر، كودعة المصاص، وأدق في تلك الصورة التي رسمها الرسام الراحل، (لسام كوستاوي) لمقهى خزي العين في زمن الحرب، وعثرت عليها بين أوراقه، ولم تنقشع عن ذهني أبداً، لعله كان هناك، في واحدة من زوايا الرسم، ولكن لم أنتبه. لعله غارس السكين في تلك القلوب الدامية، أو لعله الشجرة التي كانت تراقب الموت، وأغصانها من حديد.

طففت بالذكرى، على مطبخ مريا الهائمة، أكلت من رقاق الذرة، ولحم ظبي مبهر بجدارة، طففت على إصبع الخاتم الذي سقط في حمى الكلل، وتوقفت عند وجه الصبي ذي الشعر المجعد، والهوس العسكري.. وسمعت صوت مريا يناديني، أن أحذر البرد، والسقوط عن ظهر الفرس.

كان صوت القائد يناديني بلا شك.. يا سعد.. يا مبروك، نهضت ملسوعاً وأسهرت.. كان يقظاً بشدة، وأراد من يشاركه بعض الهواجس، حتى لو كان تابعاً ما زال دمع الذكرى، عالقا بعينه.

-5-

الصباح رباح، وصباح معسكر كتيبة صفور، صباح بطعم جديد.
منح المجندون وجبات صباحية من طحين الذرة، وأقراص الشعير
المدهونة بالسمن البلدي، وشراب (الحميض) الغني بالفتنينات
والأملاح، لتنشيط دمائهم. منحواشارات حضراء عليها رسم صقر،
سهر اليميني (جبار القرنين)، وثلاثة من الجنود، انتقاهم لمساعدته، في
تفصيلها طوال الليل، على أضواء فوانيس لا تمنح العين رؤية، ولكن
رماد رؤية. منحوا الأصوات في كامل جلجلتها، الهتاف في كامل
طبقاته، والثناء على المثقي، جماً يجب أن يظل على اللسان من دون
إحساس بأنه جمر. ولأول مرة ظهرت إلى العيان، قصيدة من الشعر
المادح، تصف المثقي بالزهد والتقوى والورع، وتضعه في مكانه المنشود
في الجنة، قيل أنها من نظم اليميني جبار القرنين، وستلقى في حمى زيارة
المثقي، وكنت مقتنعاً بإحساسي فقط، بأنها من نظم قريبي مسمى
طاؤوس، وأنها المدخل الذي عبر به إلى اسمه الجديد.. عكرمة الضراب،
ووظيفته الجديدة، رسول المثقي في الأرض.

كانت كتيبة صفور، باستثنائي أنا تابع القائد، والتقلاوي
المساعد، والإمام مفتاح الفلاح، واليميني جبار القرنين، وسرية الطبخ
ذات الإنهاك وفئات القبائل، والقائمقام برهاني مشرف الغسيل الوعر،
وودعة المصاّص الذي لا يصنف جندياً ولا مهللاً ولا مكبراً، مكونة من
خمس سرايا، في كل سرية مائة فرد مدربون على مهامهم، سرية حاملي

النبال والأقواس، سرية المحاربين بالسيوف والحراب، سرية الموت التي تقاتل حتى بالخصى والعصى، وبنادق الإفرنج، وسرية (جبارين)، أقرباء القائد طلسم، حراس بيت الغسيل في زمن الركود، ودالقو المهدير المر، إذا ما جاء وقت دلقه. كان لكل سرية قائد، هؤلاء يضفرهم التقلاوي تحت إمرته، ويستقلص بهم تحت إمرة القائد طلسم. كانت خطة المهرجان قد وضعت بدقة، أن تمر السرايا أمام مشعل الثورة وحامل لوائها، سرية بعد سرية، تستعرض زيتها، واكتمالها، واستعدادها للشهادة، وربما يموت أحد أفرادها في حمى المهرجان، إذا دعا الأمر.

مررنا على تلك السرايا التي انتظمت على فحيح الكارور، حين فتح بلحق جبار القرنين، وأبدى القائد الحمّال إعجابه ورضائه التام، وبدا لي في تلك اللحظة، بعيداً تماماً عن لحم حبيبي السبية، وإنه فصل لمهمة أخرى غير مهمة غزو البيوت الخاضعة في مدينة السور.. هي مهمة الموت. كان يرتدي أكثر ثيابه زهداً، تلك التي مزقتها، ورقعتها بيدي، وأمر عدداً من الجنود بلم بروش السعف - ووسائد الريش الممزقة من خيمته، وتركها مجرد خيمة.. تماماً كخييام عرب (الظلمان) المعروفين برداءة السكّني، ورداءة الترحل، كما قال الرسولان التركيّان أرقم وجاويد. كان يرمي إلى ترك انطباع الزهد، عالقا بذهن المثقي، بلا شك، وربما كان يطمح في منصب أمير أمراء الجهاد، الذي ما يزال شاغراً، لم نسمع عن شخص وضع فيه.

كان ودعة المصّاص، موجوداً في الساحة الكبيرة، منفرداً على مسافة عدة أمتار من إحدى السرايا، يحمل في جيبه عقرباً مفرغاً من السم، كان قد اصطاده في الليل من أحد الشقوق، وفرغه، ومستعداً لغرسه في لحمه الخاص، ومعه إذا أمر بذلك. وكانت أكثر الفقرات التي حيكت، غرابة، تلك التي حاكها برهاني، مشرف الغسيل الوعر،

حين جمع عناكباً بلا حصر، عباً سطلاً كبيراً بالقار حتى حلقه،
وارتدى ثياب مرتد متسخ. وقال للقائد الذي بدا مندهشاً من تلك
الحياكة..

لا تقلق يا سيدي الأمير.. كنت أود أن أغسل نفسي منذ زمن،
وجاءت الفرصة.

الشمس في اكتمال سطوعها الآن، والتوتر في اكتمال سطوعه
أيضاً، المسك.. ريح الجنة متناثر على كل شبر من أشبار المعسكر،
والتاريخ الذي سينكتب في أي لحظة من لحظات ذلك اليوم، يبدو
خاضعاً لسيطرة من سيكتبه. لدواته وأقلامه المعبأة حبراً أو المفرغة من
الحبر، سنواجه المتقي بلا شك، كل الدلائل تؤكد، مثل نص أباحيت،
ونص السور والقرى والجبال، وربما نص العاصمة التي ستدك برغم
الجنود الذين يتعلمون عبر بواخر النيل، وطرق قوافل الصحراء.. كان
فضولي الشخصي يود لقياه، فضول الجند وتوترهم يريد، وودعة
المصّاص يبدو لعيني، لا ينقطع عن العبث في جيبه، والتأكد من وجود
عقره الذي قد يدخل التاريخ، حين تفتح بوابة الدخول.
المتقي أعزه الله.. أكرمه الله..

الهدير يصرخ، التوتر في الأعماق يصرخ، وحوافر الخيل تصرخ،
وحتى الدواب وقطعان الماعز التي ترعى في بقايا الحشيش الخريفي، كان
الغبار قد ملأ الجو، غطى على رائحة المسك، غطى على الرؤية..
أثنا على الإمام المتقي..
أعزه الله.. أكرمه الله.

في لحظة لم أعد أستطيع أن أميز بين حلقي وحلوق الآخرين، بين
صوتي وصوت تلك الدابة أو ذلك الفرس.. كان القائد بعيداً عني،
الستقلاوي بعيداً أيضاً، واليمني جبار القرنين يرفع الكارور إلى حلقه

استعداداً للفحيح وضبط المرج. اقتحم المعسكر في تلك اللحظة، بسة
أحصنة، كلها رمادية، على أعناقها غرر بيضاء، وكلها تحمل ملثمين
يرتدون الأخضر المرقع والعمائم الخضراء، وعلى صدورهم تراقص
مسابح (الالوب) الصوفية.

التقطت أنفاسي وترنحي، وبدأت أتفحص، أحاول العثور على
مجد مميز، أو صلاح غامر، ينط من فوق تلك الأحصنة، ويجلدنا بنوره،
كانوا كلهم المتقي.. كلهم المتقي، ويأتي صراخ (عطايا) بائع الروب
والخميرة حين رده في (خزي العين) قافراً إلى ذهني.. كلهم المتقي..
كلهم المتقي.

كانت الأحصنة الآن ملثميها، قد دخلت خيمة القائد طلسم
الكبيرة، كأنها قد زودت بخط سير محدد ينتهي هناك. صمت الهدير
برهة، وجاء لحن الكارور بطيئاً ومتقطعاً، والأعناق تمتطي في اتجاه
الخيمة، العيون تنهش قماشها الذي شققت الشمس بعضه، وتود لو
شفته كاملاً. اختفى الأمير عبّادي طلسم في الخيمة لدقائق، ثم عاد
ليقف في الوسط، وقفة لم تدل على أرقه وسهره حتى الفجر، أعلن
بصوت أعرض كثيراً من صوته العريض أصلاً، إن سيدنا وإمامنا
المتقي، في ضيافتنا، ويود أن يستعرض السرايا، ويخاطب الأحباب..
لم يسد أي هرج بالرغم من اقتناعي الشديد، بأن المهرج كان يشتعل
في كل قلب، والأسئلة تنكتب في كل ذهن.. لماذا لا يظهر المتقي
لأحبابه علناً، ولماذا يستعرضهم من بين الشقوق، ويجلدهم بالصوت
من خلف خيمة، ولا يمنحهم نوره الذي يودون أن يمسكوا به، وقد
سهروا لهذه اللحظة التي يبدو أنها تخونهم، وأحسها تخونني أكثر من
أي فرد آخر.

سرية الموت بقيادة المجاهد حنداق المجدّر.

وتعتبر السرية بكامل هندامها، ورائحة الموت التي تنبعث من حلق أفرادها، وعرقهم، أمام شقوق الخيمة الكبيرة، تستعرض المهارة في فرد العضلات وثنيها، وتقاتل الهواء المشبع برائحة المسك حتى لأكاد أسمعته يتكسر.

سرية جبّارين بقيادة المجاهد جبريل لالو..

وتعتبر سرية أقرباء القائد طلسم.. ضاحكة للهدير الذي كاد بالفعل أن يذيب الخيمة، ويكشف النور.

سرية رامبي القوس، والنبال بقيادة المجاهد دهماني، وتعتبر.. وبقية السرايا تعتبر، حتى سرية الطبخ الهزيلة تعتبر، وقد حمل رايتها العسكري (زمزام)، وكان شعارها مختلفاً عن شعارات باقي السرايا الخضراء، حيث ارتدت هلاهيلاً فصلت من جلود الماعز وأحذية من ذات الجلود وأشاهد المشلول يحيي، زاحفاً في غبارها.

كان مشهداً كبيراً ومؤثراً جداً، حين وقف ودعة المصّاص أمام شق كبير في الخيمة، لا بد قد ضمن إن عيني المتقي تسعان خلفه، أخرج العقرب المفرغ من جيبه، غرسه في كوعه الأيسر، والتوى في حنكة، ليمص ويصق، يمص ويصق، ملفياً للمستحيل الذي لا جدال فيه، أن يستطيع أي أحد أن يمص أو يلحس كوعه. لم تسنح لجبّار القرنين، أن يلقي قصيدته، أو قصيدة قريبي مسمى المادحة، ولا لبرهاني أن يغتسل بفاره وبراز عناكبه، كما كان يطمح، لأن بيت الغسيل لم يكن في نطاق الرؤية، ولحسته متجهماً، يرتدي هلاهيل المرتد الوسخة، وينزوي في ركن بعيد من أركان الساحة.

الكارور يفح معلناً بداية خطبة الإمام المتقي، وتحول الجميع إلى أذن واحدة، تود أن تمتص، وترتبط بذلك الحبل المبارك.. بقصيدة ريماس الحاملة التي سيسمعونها لأول مرة، حية من دون رسائل يتفاخر بها الرسل:

بسم الله الرحمن الرحيم

أقرئكم مني خالص السلام يا أحباب، وأحيي دماءكم الأصيله
وأنتم تجودون بها دفاقة لنصرة الحق، واجتثاث الباطل. وقد أخبرنا
وكررنا، إننا لم نقم بثورتنا من أجل دنيا تجرفنا، ولكن للدين، لاجتثات
الكفر، وغرس العزة في كل شبر.. من منا لا يريد العزة. من منا لا يود
نصرة الحق.. من..

لم يكن صوتاً كصوتي ولا صوت أبي أيام كان يملك صوتاً، ولا
صوت الأمير عبّادي طلسم، ولا أي صوت آخر استمعت إليه في حياتي
كلها، كان حبلاً غزير الأمطار، شدنا من أعناقنا، ومرغنا في التراب، شدنا
من ثيابنا وعرانا، شدنا من رئات التنفس، ولهث بنا، ورأيت المجندين وقد
ترنخوا بلا مروعة، والمعسكر الكبير، مجرد علبة من علب الصفيح، يتلاعب
بها موج بحر هادر. تحدث عن مغزى الثورة باستفاضة، عن الشهادة التي
هي أسمى من كل ترف في الأرض، ورسم لكل جسد مشدوه أمامه في
تلك الساحة، نهرأ من العسل، يغرف منه، ووسادة من الحرير، يتكى
عليها، وبنت حور مزينة بالصفاء واللائي، تنتظره. قال إن الثورة ما زالت
وليدة، برغم انتصاراتها الكبيرة، وإنه لا يظهر للعيان لأنه يتبع الرؤيا التي
تأتيه كل ليلة في المنام، وتخبره أن يقود الثورة في خفاء حتى تنغرس راياتها
الخضراء في كامل بلاد الفسق وتطهرها..

لا نضن عليكم بوجهنا طوعاً يا أحباب.. ولكن نتبع الرؤيا.. نتبع
الأمر.. حتى يعم الخير.

سلام علينا في الدارين، هذه الفانية.. وتلك التي أرى ملاحمها على
وجوهكم الطيبة.

انتهت رنة الصوت، انتهت قصيدة ريماس الأكثر تأثيراً، لكن
الحبال لم تنقطع، ظللنا مضفرين بها، لأكثر من عشر دقائق، نترنج

وتشدنا، ولم نستيقظ إلا بعد أن فح الكارور بالحلل اليماني، وكان فحيجه، مجرد نحنة هزيلة، إذا ما قيس بالصوت وجبروته. رأيت القائد عبّادي طلسم، يترنح بحبل الصوت، متجهاً إلى داخل الخيمة، ورأيت الأحصنة الرمادية، بغيرها البيضاء، وملثمها الخضضر تخرج جسارة، وتحفر في اتجاه البعيد، كان الغبار يكتف ما تبقى من رائحة عطر الجنة، والهدير الذي استيقظ ببطء وبله، يتضفر خلف الأحصنة، يطاردها في الظهر:

أعز الله المتقي.. أكرم الله المتقي.

كان من بين جنود الكتبية، وبالتحديد في سرية حاملي القوس والنبال، صبي ذو وجه طفولي مليح، وجسد باسق، اسمه (مقهور)، لم يكن يعرف أحد من أين جاء، ولا دلت ملامحه الطفولية المليحة، عن قبيلة ينتمي إليها، وسط تلك القبائل التي تبعت هوس المتقي، وتضفرت بمجذائل ثورته. وقد تردد همساً في وسط جنود الكتبية، إن مقهور حلم مرات عدة، بأنه ابن منسي للإمام المتقي، ولد وترى بعيداً عنه، وقد أخبره الحلم إنه سيجتمع بأبيه في أحد الأيام، وكان من نتيجة ذلك الهمس الذي تمدد، ووصل حتى أسماع القيادة، أن حوكم الصبي، اقتيد بسواعد سرية (جبارين) الفولانية إلى بيت برهاني، حيث غسل بتوافه الغسيل كلها، لشهر كامل، وخرج نظيفاً ونشطاً في سريته، ينغمس في لعبة الأقواس والنبال، يعذب طيف الحرب كبقية المخذنين، ولا يردد إنه حلم بأبوة المتقي أو غيره أبداً. وحين عيّنت تابعاً للقائد، وأصبحت أملك ساقين تستطيعان أن تلجا الخيام، وتنزهان في المعسكر من دون وجل، اقتربت من مقهور. رأيت فيه وجه توما الذي انتحر محطماً وزاهداً، وخلد شهيداً تزوج بواحدة من بنات الحور، سأله عن ذلك الحلم المخبول، ولم يرتعد، رد في ثبات.. ليس خبلاً

يا مبروك، ولكن المتقي أبسي، وحلمت أيضاً بصوته وهو مثل صوتي.. أنظر.. يخط حلقه ويضخم طبقات صوت المراهقين، ويردد.. من منا لا يحب ريح الجنة.. من منا لا يحب بنات الحور.. من منا لا يود اجتثاث الكفر من جذوره، وأكد أضحك.. لم أتخيل أبداً قرابة يمكن أن تكون بين صوته وذلك الحبل الذي صيغ من جدائل الأساطير، كما قال التركيان أرقم وجاويد، سألته عن أبيه الذي رباه، قال لم أره أبداً ولم يخبرني عنه أحد، عن أمه التي توجعت في ولادته، قال.. اسمها سكينه الهلالية كما أخبروني، وماتت أثناء الوجع، عن قبيلته ومن أين جاء.. قال، قبيلة المتقي.. قبيلة الرجال الأفذاذ، وجئت منها.

أيقنت بهوس الصبي، وإنه لا شك قد شرب نص أباخيت الرهيب، بكأس أخرى لم يشرب منها الآخرون، تماماً كما شرب (توما) ملاحه حميلة وبنفسجها، بكأسه الخاص الذي كان يستعيدها عارية ونزقة، لم تذكر سيرة المتقي قبيلة محددة، ولا زوجة أو ولداً معروفاً أو منسياً، حتى ذلك الوقت، وما تعدت تلك السيرة حدود نقائه وزهده، وقيادته للجهاد، وكانت أبجديات طاعته معروفة للجميع، وبعيدة تماماً، عن حياة قد يكون عاشها بالفعل، قبل أن ينطلق شرساً في نص أباخيت. اقتنعت بهوس الصبي أكثر، منحتة ثقتي كاملة، وحذرته من لعق الأحلام غير المجدية، وكان يتأملني بعينين ضامرتين، ويردد.. هو أبسي.. أبسي بلا شك. وبالرغم من أن معسكرنا كان يضم سحنات وقبائلاً شتى، إلا أنني لم أعثر أبداً على أحد جاء من أباخيت ليضيء لنا ما خفي من سيرة المتقي، وأمر مقهور، أو لعلهم كانوا يبتنا، لكن لا أحد يود أن يفصح.

في ساعة المهرجان، وأثناء استعراض السرايا، شاهدت مقهور وركزت في مشاهدته. كان عادياً جداً، عبر بقوسه وسهامه كما عبر

الآخرون، توقف برهة عند شق الخيمة، ولحته يهتز برشاقة ويصوب سهمه إلى طائر تعس مر في تلك اللحظة بأجواء المعسكر، ويسقطه، لكنه تحرك أخيراً، وأكمل العبور.. كنت خائفاً من هفوة، خائفاً من صياح خارج النص، يدخله حلق الصبي قسراً في النص، ويحدث ما لا يستطيع أحد تخمينه، لكن الأمر انتهى، أو تأجل حتى خرجت الخيل من خيمة القائد، وركضت باتجاه البعيد. كنت أشاهد وسط دهشتي وهلعي، نظرات الصبي مقهور تتبع غبار الخيل، قدميه تتبعان، وصوته صارخاً بأقصى حد للصراخ، لا يردد.. أعز الله المتقي.. أكرم الله المتقي.. ولكن.. أبي.. أبي..

في ذلك اليوم، عقدت جلسة طارئة للنظر في أمر الصبي مقهور، ضمت فداحة القائد طلسم، وغلظة التقلاوي ديدام، ورقة لا تشبه حلق الكارور، عند اليمني جبار الرنين، وحضرهما كتابع يلزم قائده في أي لحظة من لحظات اليقظة. تصارعت الآراء لأكثر من ساعة، تقلب الأمر على عدة وجوه، واستسلمت في النهاية لصوت القائد الكبير.. ردد ومسبحة الصوفيين، تراقص بين أصابعه، ونظراته العريضة مثبتة علي:

- دعوه لسعد المبروك.. سيحمله ينسى.. أليس كذلك

يا سعد؟

قلت: نعم يا سيدي..

وكنتم سعيدياً، برغم تلك المهمة التي لا أعرف كيف أنجزها، وهوس الصبي لا يشبه الهوس، كان اتحماً سافراً لنطفة رجل رمز، لا يود أحد أن يعرف أكثر من أنه رمز لا يخضع لتوافه الآخرين. لم يبد التقلاوي سعيدياً بتلك النتيجة، لكنه امتثل، ولا عبرت ملامح جبار القرنين اليمانية الوعرة، عن أي انفعال خاص.

أمرني القائد عبّادي طلسم، ألا أرافقه بقية ذلك اليوم، وأن أترك
خيمة القيادة جرداء، حتى الغد، لا تعاد إليها البروش السعفية، أو
وسائد الريش، أو حتى أباريق الماء والثياب المرقّعة. لم أفهم غرضه من
ذلك، لكنه بدا سعيداً، وسمعت له لأول مرة ينشد، وكان يردد نشيد
(النونوة) الذي يصف التقوى، كفتاة مليحة، بصفائر من ليل، وعينين
من عسجد، ولا يردد إلا في لحظات النشوة الكاملة.

- اليوم سترافقني إلى داخل السور يا سعد.
ألقى بها القائد في وجهي، وكأنه يلقي بلحافين متناقضين في نفس اللحظة، أحدهما معطر بالطيب، والآخر جمر يشتعل.
كان ذهابي إلى السور بعد تلك الغيبة الطويلة في لجة البؤس وتخوم الصحراء، هو اللحاف المعطر بالطيب، ورؤيتها بائسة ومهدمة، وغاصة بالذكريات القديمة، ذكريات الحياة، هو الجمر الذي يشتعل بلا رحمة ويأكل الأحشاء. كيف يا ترى حال السور، كيف حالها ومعيشتها وأحياءها، أو رماد أحيائها؟، كيف سوقها، ومقاهيها وأنديتها، و(خزني عينها) الفريد؟، من مات، ومن لم يموت؟، وفي أي بيت من بيوتها المستعرة بالمكابدات، تركد حميلة التي ما زالت تعذب مخيلتي، وتعذب نوم القائد، ثمده بالكوابيس. قطعاً ستكون متغيرة الطعم.. أو بلا طعم، وقطعاً تسكمني فيها، إن تسكمت، كتابع مسكين على ظهر حمار منهك، لن يشبه أبداً تسكمني كمسئول عن ثروة الحكومة، عن وجوه جمعها وإنفاقها، وعلى ظهر فرس صديق، مفقد بشدة.. هو فرسي العبّار. المهمة قطعاً لا علاقة لها بالثورة، أو الجهاد، أو لقاء المتقي، ولم ترد أي أخبار جديدة، عن الحرب أو جند الحكومة الذين يتلملمون ويستعدون للقتال، وما حضر في تلك الأيام سوى رسول واحد فقط، وكان رسولاً هزياً في أمر هزيل، يحمل رسالة ثناء وشكر للإعرابي ودعة المصاّص، كانت معطرة برائحة المسك،

وممهوره بنختم المُنْقِي، وارتعد الإعرابي الذي من آل بطاح بشدة، حين سلمتها إليه، بناء على أوامر من القائد. كان ودعة قد اقترب من النار بلا شك، حين تسكع أمام شق الخيمة في ذلك اليوم، ومص كوع المستحيل الذي لا يمض، والآن يخاف من سرقة الليل والضياح به في أخطاء المدينة، وألا يستطيع زيارة (حنو) التي كانت إحدى قوارير (ولهان) المحطمة، نفدت من الموت والتخمة الكاذبة، ومضاعفات مرض (الداموس)، وسيوف الجهاديين، والتم إليها المصّاص في حمى ليله المسروق، حين كان يسرقه برفقة (توما)، والآن يسرقه وحده. كان يكي في صمت، وأستغرب بشدة من رجل غارق في الحمى الجهادية، معطر بريح الجنة، وما زال يعبث بتوافه الجسد، ولدى قارورة محطمة وبائسة.

هي مهمة البنفسج إذن، تلك التي سننجزها أنا والقائد معاً، وقد سمعت بالأمس كابوساً بطعم النعناع، يصارع نعاس القائد، وحميلة النعناع كانت بداخله بلا حصى ولا رمل، ولا خوف من الققط، ولا مشي أثناء النوم، فقد ضحها الكابوس هذه المرة سلسلة إلى النعاس. مهمة لاستمالة المجاهدة ضو، حورية الأرض التي عجزت عن فك شفرتها، وما استطعت أن أكون لها وجهاً ولا جسداً ولا مشاعراً برغم اجتهادي الطويل. وأقنعت نفسي في لحظة غباء سخي، إنها حميلة جماري، والقائد يكافني بما.. ولا أعرف لماذا يكافني بما. عشت في متعة ذلك الاقتناع لفترة، والخاتم القريب من الأحشاء، يغشني، يردد هي.. هي وأزجره في النهاية.. أعود إلى لحظات التبعثر.. لن تكون حميلة حورية الأرض التي ستسعدني أبداً.

في خلال تلك المدة التي قضيتها تابعاً للقائد، وبعد زيارة المُنْقِي لمعسكرنا، وربطنا بحبال صوته الأسطورة، وفكه لشفرة التخفي التي

كانت تحيرنا، ذهب عبّادي طلسم إلى المدينة مرتين، ولم يطلب مني مرافقته، عاد في الأولى مغتماً ويابس التقاطيع، وفرحت من غمه ويباس تقاطيعه، من صمود خميلة الذي أتخيله، إن كان قد ذهب لعراك صمودها، عاد في الثانية منشرحاً، يردد نشيد (النونة) المجلجل، وقلقت.. خفت أن يكون الصمود قد اندحر، لكن لا أستطيع أن أمسك بشيء.

كان تكليفي بأمر الصبي المهورس، ابن المتقي المزعوم.. مقهور، عبأً آخر، جاهدت ألا أجعله عبأً. كنت أستاذن يقظة القائد في أحيان كثيرة وأباغته في واحدة من خيام رامبي القوس والنبال حيث يقيم، خاصة حين يأتي التقلاوي، ويتمدد في البروش السعفية، عارضاً آراء فجة، ونظريات في الحرب الجهادية، أكثر بؤساً من نظريات (فاسكو) التي وردت في كتابه السخيف وأسقطتنا، تعيده إلى ذهني، ذلك الفراش القدم الذي كان يعد شاي القيلولة، ويغازل فقيرات المدينة بألفاظ أبناء الريف التي كلها فسوق ولعنة، أو حين يبدأ جبار القرنين، في درس (عظمة الخيل)، الذي كان درساً مملاً، يردده اليميني في خيلاء، واصفاً أنواعاً من الخيول بلا حصر، واصفاً الحوافر والصهيل والغرر البيضاء ودلالاتها، والرقبة الطويلة ودلالاتها، والقصيرة ودلالاتها، وحتى أكل العشب وطريقة أكله، والمرض الذي قد يصيب ويفتك. أباغت الصبي مقهور، أجره إلى أحد أركان الخيمة التي تؤوي الكثيرين من زملاء سريته، وأحاوره بلا عواطف، ودائماً ما أخرج منهزماً أمام الهوس.. هو ابن المتقي.. يصبر بشدة.. سيحتضن أباه في يوم من الأيام.. يصبر أكثر. وقد أوشكت أن أقتنع بأنه ابن المتقي فعلاً، وأنجبه من نطفة شقية أراقها، قبل أن يكتب زعيماً في نص (أباحيت) الرهيب. لم يكن القائد يسألني عن الصبي أبداً، ولا كان يلقي إليه

بأي نظرة حتى ولو عجلي، في حمى تفقده لصلابة الجند شبه اليومية،
ويبدو أنه تركه هكذا معضلة، لكن ليست معضلة جسيمة.

- سترافقي إلى السور يا سعد.

- أرافقك يا سيدي.

وأجهز حالي بسرعة، ولم يكن في الحقيقة ثمة حال بحاجة إلى تجهيز، هو الثوب الأبيض بشارة التابع الخضراء التي ما زالت تثير الحسد بين المجندين، وأرتديه حتى في النوم والأحلام. هو صندل من جلد الماعز، ممزق في الأطراف، هو حمار منهك وجربان مستخرج من إحدى القرى المحروقة، خصصه جبار القرنين لي حين خصص ملابس، وركوبي وأدوات حربي، وهي في النهاية مشاعر بلا قرار، فصلت لي في سوق (حمزة وابنه)، يوم تبعثرت، والتمت مبعثراً، فقط خاتم الذهب ذو الفواريص الثلاث، المربوط بخيط الدوبارة قريباً من الأحشاء، ما يميزني، ولكن تمييزاً خفياً، قد يعيدني إلى بيت الغسيل، لو خرج إلى العيان.

جهزت حال القائد، وكان تجهيزاً كبيراً، أكثر ثيابه رقعاً وزهداً، مسبخته الصوفية الضخمة اللامعة، وجواده الرمادي ذو الغرة البيضاء والرقبة الطويلة، الذي دائماً ما ترد مواصفاته كاملة في درس جبار القرنين المكرر، عن عظمة الخيل، باعتباره جواداً عربياً أصيلاً، ولم يستخدمه في المرتين السابقتين، حين جهزت ذهابه ولم أرافقه، واكتشفت وأنا أراه لأول مرة في ساحة الرعي، وأسرجه، إنه (مصبح)، الجواد الحكومي الذي كان يستخدمه التركي يوسف دامير، في طوافه معي أيام إرهابات الحرب، وفي نزوة (الزينة)، خلية الزنج، وسقط عن ظهره، حين انفرس في قلبه السيف. تعرفت على الجواد، وتعرف علي، وبكينا في صمت.. أنا أخون دمي الجديد، وأبكي بالدم النصراني

القديم، والجواد يخون إسراجه لحمل الجهادي، ويحن لسيدته الذي رحل.

كان الصبي مقهور، قد تسلل خفية من داخل المعسكر، غافل حارس ساحة الرعي، وتبعني إلى حيث أحتضن الجواد مصبح وأبكي، ولم ألحظ وجوده، إلا بعد أن أصبح الدمع حقيقة في عيني، وعيني فرس التركي، كان يتأمل الأحصنة بجنون، يتأملها بشبق ويشهق، ويسألني إن كنا ذاهبين للقاء أبيه، وهل سنأخذه معنا؟. غطيت شهقاته بيدي، وجررته إلى خيمته بمشقة، كان ذلك الولد عبثاً حقيقياً، وخفت ألا يعتبر معضلة عادية إذا ما زاد هوسه عن الحد، وقد يغسل في بيت برهاني مرة أخرى بلا رجعة، وقد كان التقلاوي موجوداً بسيفه وصقره في ساحة الخيام، ولا بد قد رأي أجرجر الهوس وأحاول تغطيته.

- 7 -

كنا في الطرف الجنوبي من مدينة السور، على مسافة ساعة من مدخل (بوادر)، أحد مداخلها التي أنشأناها مصائد مشتعلة بالنار والحماس، وسواعد (كف عفريت) وغيره من أحياء المغص، لحصد المتقسي وأتباعه، وكانت في الواقع، مجرد خيران ضحلة، عبرها الهدير كما تعبر الخيران الضحلة. على مسافة ساعة من العمار الذي كان، والخراب الذي أردت رؤيته ولم أرد. كان الأمير عبّادي طلسم، منتصباً على ظهر (مصبّح)، فرس التركي الأصيل الذي رافقه في الجد والهزل حتى سقط، جسده يملأ الظهر بجدارة، وساقاه تتدليان حتى لتكاد أن تعانقا الأرض، وأتجرجر وراءه على ظهر الحمار المنهك الهزيل، تماماً كما تجرجر (ولهان الخمري) خلفي، حين كان جائعاً، وكنت شبعاناً، ضائعاً، وأنا ما أزال ممتلئاً بالسلطة والدنانير ومقدرة القوي الذي يجر الضعف. لم أكن أملك إحساس جري لفضيحة أو عار، في ذلك اليوم الذي حررت فيه ولهان، لكنني لست موقناً إن كان الأمير، يملك إحساسي نفسه، أم يجبرني كما يجبر العار وتجبر الفضيحة. أتجرجر، ولا حوار أبداً، لا حوار حتى حين كان يبطئ أحياناً، وألحق به، وأصبح في محاذاة الحوار. أراه يعض على اللجام، ومسبحة الصوفيين، ويعض على خامات الحديث تحت لسانه، لا يود إفلاتها أبداً. كنت في تلك الساعة أخترع حواراً الخاص، الحوار الذي يجري بين القلب وشظايا القلب، أتخيلني لحظة أمام وجه حميلة، لا أذوب فيه

كما كنت أفعل في السابق، ولكن أصفعه بقوة، وأشدّه من ملاحه
كلها، لأدخله في جلافة القائد وشهوته. أتخيلني مقيداً بالحبال في بيت
حورية الأرض ضو، وتدخلي وتخرج مني وسط الريالة والصباح،
والدم.. أتخيلني أفر، وتركض ورائي السيوف والحراب، ويصرعني
المدير. أرفع وجهي إلى وجه القائد حين أحاذيه، ولا أعثر على مفردة
واحدة في كيانه الصامت.

دخلنا المدينة بالفعل، عبرنا الخندق المدفون بالرمل والدم وجذوع
الأشجار، وذكريات الهبة الكبيرة، عبرنا بالضبط حيث سقط الحاكم
دامير، وسقط قائد الجيش عريب، وطاشت لطخة من الدم، حطت
على صدر الطباخ (زمزام)، لا تبتهت أبداً.. حيث رفع الثقلوي حربة
الموت في وجهي، وحيث لكزني (العبار) فرسي، ولكزته، وفررنا من
الحمى إلى الحمى. ومن الموت للموت. كان عشرات المثلثين،
متمركزين هناك، سيوفهم ودروعهم مرصوفة على الأرض، ويطهون
ظبياً بكامل جلده، وقرونه واتساخ شذقيه. وقفوا بانضباط، حين عبر
القائد عبّادي طلسم، وعادوا إلى طهوهم البربري، حين عبرت.
واستغربت.. كيف ينسرق المجندون إلى داخل المدينة، والمداخل محروسة
بهذا النهج غير المتسامح.

سرنا في المدينة، فرساً وحماراً هزياً، قائداً وتابع قائداً، وأحسها
أرضاً أخرى، بلاداً لم أبصر النور فيها، لم يعمديني المصري (طوني
العفريت) فيها، ولا كانت أرض ثروة، قضيت عمري ألهما وأنفقها،
ولا أرض حب، أحبيت فيها دارسة علم الجمال، خميلة جماري وكنت
على وشك أن أشاركها الأنفاس.

كانت الدروب متسخة بشدة، في كل درب رائحة حنظل أو دم،
وفي كل حفرة من الحفر، صيحة فزعة، أدق وأتوتر، ألم ما تبقى من

سمات الحضرة، أعطي بها العورات، ولم تكن ثمة سمات كثيرة، وتظل العورات مكشوفة.

كنا في حي (ونسة) القدم بلا شك، ولم يكن هو الحي نفسه، كان ممتلئاً بالمحاربين ذوي اللثام والثياب البيضاء، وشارات الجهاد خضراء اللون، يدكون خرائب قديمة، ويشيدون خرائب جديدة على أنقاضها، يرشون الماء في الأزقة والحفر، ولا يستطيعون غسل الدرن عن أرض أصيبت به منذ قرون. هنا بالضبط كان بيت ولهان الخمري، وكانت تجارتها في الجلد والعظم والخرائب، وكان نواح البائسات.. (لا تلسم يا لائم)، هنا كانت مفيدة العجرية، تباع فتافيت آهات للغرباء الذين لم يعرفوها، إلا حين أصبحت عاهة، تباع فتافيت الآهات.. هنا كان يستوطن مرض (الداموس)، ومرض (حصار الأحشاء)، ومرض (سببا) الذي يشوه الأجنة، ويستوطن جزء كبير من حصاد الثروة التي كانت تسند المدينة في يوم من الأيام، وفي تلك البقعة التي أراها تزدحم الآن بالحصى والرمل، ولد طفل صيني، لا يعرف أحد من أبوه، ولم يدخل السور منذ إنشائها كما أعرف، صيني قط، ولا استطاع أحد تفسير تلك الملامح التي فسرناها سواح أوروبيون، كانوا موجودين بالصدفة وشهدوا تلك الواقعة. أذكر في تلك الأيام، إن الطفل عرض في وسط السوق الكبير، وثار حوله الجدل، وشك علماء الدين في كونه المسيح الدجال الذي يظهر عند نهاية الدنيا، ووزعوا الاضطراب في خطب المساجد. وفي النهاية سموه الغريب، ونسبوه إلى قبيلة (الدرواب)، التي لم يكن يضيرها، أن تضم صينياً وسط ملاحمها البعيدة تماماً عن ملامحه.

الحوار ما يزال بلا حوار، والقائد لا يحیی أحداً، ولا يرد على تحية من أحد، ولا حتى على أولئك المثلثين الذي كانوا يقفون باحترام حين

عمر، ويسترخون إلى درجة التأؤب، حين أمر خلفه، وحين اعترضت فرسه امرأة عجوز بدم وجسد (فولاني) واضحين، وصرخت يا عبّادي، يا ولد (تركانة بنت أعوج)، أنا جائعة، ومريضة وعيالي بلا ملابس، لم يفعل أكثر من لكز الفرس، وتوجيهها بعيداً عن صراخ المرأة. وما التفت أبداً، والصراخ يرحمه ويرجمني من الخلف.

حين خرجنا من حي (ونسة)، وسرنا في درب يقود إلى حيث مجلس المدينة، خفق قلبي بشدة، الآن قد تعود ذكريات قديمة، وقد تصرع.. قد أرى خيال تحرري القدم، وعزي القدم، ووظيفتي القديمة، وأموت أرعناً على ظهر حمار بلا ظهر. كان مجلس المدينة موجوداً بالفعل، ولكن حوائطاً فقط، حوائطاً بحيرة بالرماد، وقد كتب عليها، بتوقيع جماعة الذكرى والتاريخ.. كلمة واحدة، هي الضريح.. وتحتها رسم، لم يكن رسماً حقيقياً، ولكن خربشات بالدم.. إذن فما زال في المدينة بقية من طعامها القديم، وما زالت جماعة الذكرى والتاريخ تعمل، حتى لو كان عملاً مختصراً في كلمة واحدة ولو كان رسماً بلا رسم. كنت أتساءل عن مكان المتقي، عن بيته الأنيق أو حجره المظلم الذي يلتم فيه، وسط ذلك الخراب، عن هويته، بعد أن جلدنا صوتاً، ومضى، وهل رأى عبّادي طلسم، وبقية الأمراء وقادة الجهاد، وجه ذلك الذي يحركهم؟.. فكرت في مائة فكرة، ولم تصلح فكرة واحدة، لأحبها.. لأتعلق بها.

فجأة خطر لي أن أسأل القائد.. وسألته بالفعل:

- إلى أين نحن ذاهبان سيدي الأمير؟

لم يرد على سؤال، بدأت عيناه تتلونان بجمهرهما القديم، ملاحه تضح بخلافة أهله الفولانيين، والتوت مسبحة الصوفيين بين أصابعه، لكز الحصان ومضى، ولكزت الحمار المنهك، ومضيت خلفه.

كدت أسقط عن حماري فجأة، حين شاهدت شخصاً أعرفه، وبالرغم من يقيني بأنه أبصري، وامتلاً بملاحمي وعاري، وشارة التابع التي تتوهج على صدري، إلا أنني انتزعت عمامتي عن الرأس بسرعة، لففتها حول وجهي وتواريت موراة لم تكن أكثر من إحساس بالموارة، لماذا يصادفني قريسي مسمى طاؤوس؟، لماذا عكرمة الضراب الذي كان فرعاً يابساً في عائلة كلها حضراء، وتيس العائلة، بل تموت، ويحضر هو، رسولاً للمتقي، ومتسكعاً علنياً في المدينة التي تعج بالفوضى والموت وفراق الأحبة، وربما في حلوق المتعة المغتصبة أيضاً، لا بدلق الشعر الرخيص، ولكن حبر شهوته. ترحل عن فرسه الأسود، حين حاذى القائد، أدى تحية عسكرية لا تشبه تحايا العسكريين في شيء، ثم التفت إليّ، ونط من حلقه سؤال أربكني، لكنّه لم يربك القائد:

- هل ستغسلونه في النبع الكبير يا سيدي؟

لم يجبه القائد أيضاً، عبر على حطام سؤاله، وتحيته العسكرية الثالثة، وجعلت أفكر في النبع الكبير، وأولئك الذين يغسلون فيه ولا بد يجيئون بهم هكذا من أطراف المدينة، واستنتجت إنه بيت آخر للغسيل، لا بد أكبر من بيت برهاني، ويحوي مصائباً أكبر من مصائبه التي بلا حصر، كان مسمى في تلك اللحظة صغيراً في نظري، إن كنت أملك النظر الذي يصغر أو يكبر أحداً، لم يكن غصناً أخضر، ولا يابساً، بل لم يكن غصناً على الإطلاق.. انتزعت لثامي عن وجهي في توتر، أعدت العمامة إلى رأسي، وأعطيتها وجهي العاري كاملاً ليمتلئ به، وخلته يتسم، لأن وجهه امتلاً بغتة، وظهرت أسنانه سوداء من أثر تبغ الدردار الخشن الذي كان يحمصه في خزي العين، بصحبة الريفيين الذين يشترون قصائده الرخيصة.

لم تكن ثمة حيلة، أي حيلة، لأرى ما تبقى من حي (كاهير)، حيث كنت أقيم، وتقيم حميلة، وتقيم بساتين الورد والظل، ويقيم جزء كبير من ترف المدينة، لأن مسارنا التوى بعيداً عنه، ولا حيلة أيضاً لرؤية السوق الكبير، سوق (حمزة وابنه)، وقد أخبرني ودعة المصّاص في أحد الأيام، إنه افتتح مرة أخرى، بعد أن بدأت بعض دماء التجارة تسري من جديد، ويتولى أمر البيع فيه، مئات الجهاديين الذين عينهم المتّقّي لهذه المهمة، سماهم سرية التجارة، ويتبعون لخازن بيت المال، وهي وظيفتي القديمة بلا شك، ويحتلها واحد من أسرة (جبري) الفقيرة، اسمه العريف، وكان فيما مضى، بائعاً للذهب المغشوش، وأساور السكسك والقصدير، في سوق أبي جهل الشعبي، واختفى في موجة الاختفاء التي سبقت الثورة، وشملت طلسم والتقلّاي، وكثيرين غيرهم.

كنت متأزماً بشدة، أود أن يلتوي الطريق إلى حيث بعض الذكريات، لكنه لا يلتوي أبداً، ولا أنكر إنني فكرت في الفرار من تبعية القائد، والاختفاء في أي جحر من الجحور التي كنت أزورها فيما مضى، باحثاً عن رماد الثروة، لكن لم يكن ثمة جحر لا يعرف الجهاديون كيف يحفر، وتستخلص أحشاؤه. فطنت إلى وجود كتابة أخرى، على حائط شبه متهدم، كانت تمجد المتّقّي، وتضع ثورته في مصاف ثورات الغرب ذي الحضارة والرقى، وثورات بحر البلطيق، التي تحرر بإشعاعها العبيد، ولم يكن ثمة رسم، ولا توقيع تحتها، يضيفها إلى كتابات جماعة الذكرى والتاريخ التي كانت تزعجنا في الماضي، والآن أحن إلى حبرها. وقد تذكرت المصري الانطوائي، مدرس علم الانحطاط، وإن كان قد مات، أم ما زال هائماً، يراقب درس أباحيت الرهيب، ينطق حول أذنيه، ويدرس صبيان الجوع والهلع.

كنا نتعثر داخلين إلى حي أرض الكوثر، الحي الذي أنجبه الفقر، ورباه، وكبر معه. وما استطاعت معاول الغزو كلها أن تمحوه، لأنه كان موجوداً في الأصل. بعلامح غير موجودة، كان ممتلئاً بالنساء والأطفال، وثمة عدد من المثلّمين، يوزعون أجولة من الذرة والقمح، شمت فيها رائحة صهري حماري، ورائحة عتة، من أثر تخزينها الذي أمات التاجر الكبير. لم تكن ثمة آثار لمرض (التخمة الكاذبة) بادية للعيان، ولا بد قد حمد قليلاً في فترة الحمى، لكن قطعاً سيعاود نشاطه حين تنضب الموارد المستلبة، وحين يتلفت الجهاديون فجأة، ليكتشفوا أنهم يحكمون مدينة، لا يحاصرها جيش مقاتل، ولكن تحاصرها العزلة. كان ثمة مناد يصيح من على ظهر حمار أسود اللون.. أثنا على الإمام المتقي، أثنا يا أحباب. وتطيش أصوات النساء المنّعة، مختلطة بتلعثم الصغار.. أعزه الله.. أكرمه الله، تلقى الأجولة عن ظهور الحمير، وأعز الله المتقي، واعترض طريقنا صبي بملابس ممزقة في الأكمام وقندول نئى من الذرة الشامي يعارك تسوس أسنانه، كان يحمل رسماً بالفحم على ورقة صفراء متسخة، يمثل رجلاً غزير اللحية، وكبير العمامة، على خده الأيمن شامة عميقة، تستولي على نصف الخد، وقد كتب تحته بخط متعثر.. أعز الله المتقي.

أخيراً توقف الركب عند باب من الصفيح الصدي، لا يختلف عن أي باب آخر من أبواب (أرض الكوثر)، أعلاه ثبتت عدة ريشات منتزعة من ذيل ديك، وتحتها كتب.. لا راد لقضاء الله، ولم أفهم معنى ذلك الريش، ولا فحوى تلك العبارة الإيمانية، أن تكتب على صفيح باب. ترجل القائد عن فرسه، وترجلت عن حماري أو ترجل عني، لأنه كان قد لهث وسقط من عناء الرحلة الطويلة. هنا يرقد مستقبل غامض بلا شك، سأمتطيه طائعا أو مختاراً، هل هي عروسي، حورية الأرض ضو، من تقطن في هذه الفاقة، يا ترى، أم حميلة النعناع، وجيء بي

لتأديبها وإدخالها قسراً إلى حياة القائد التي تأبى دخولها؟.. من هي
فيهما؟.. لو كانت عروسي التي قررتها الفجيعة، لا صعوبة في الأمر..
سأرضى وأتصنع الهيام، وسعادة الدنيا، وأعض على ضوء اخترعه،
أعيش به ما تبقى من أيام. ولو كانت خميلة، لا أعرف ماذا سأفعل..
لمست خاتم الفواريص قرب الأحشاء.. سألته.. دلني يا خاتم، وكان
مثلي مرتعشاً، وصامتاً إلى أقصى حد.

تحنح القائد نحنة كبيرة، مد يده إلى الباب، نقر عليه بقوة،
وصوت القيادة متوتر يخرج من جسده العريض:

- يا ضو القناديل.. يا مجاهدة.. السلام عليكم.

وارتحت من لهائي قليلاً، ريثما انفتح الباب صارخاً ومزعجاً،
ورأيت في فتحته الضئيلة، ما خلقتها قطعة من الظلام، انفلتت من جسم
ليل داج، كانت امرأة بلا شك، مدثرة بزى أسود لا يظهر منه أدنى
بصيص، بدأت أحدق في ظلامها، باحثاً عن ثغرة أدخل منها إلى وجه،
إلى يدين، إلى قدمين، إلى شعر، إلى أطراف، إلى أي هرجة أنثوية، وشدني
القائد من قميصي بقوة، أدار وجهي إلى اتجاه لا شيء:

- تعال يا سعد.. النظرة الأولى لك.. والثانية عليك.

تبعته على حماري المرهق، ولم تكن النظرة التي لي مكتملة، ولا
حتى يرفقات نظرة أبداً، وأتحيل النظرة التي عليّ، خنجراً عالقاً بظهري،
لا يوجع فقط، لكنه ينتزع اللحم، يلقيه في الطريق.

انتهت مهمة ضو إذن، وعلقت فيها كما تعلق الطريدة في شرك،
وبقيت المهمة الكبرى، مهمة خميلة النعاعة التي لا يود الكابوس الليلي
إفلاتها، لكن إسراع فرس القائد باتجاه الأطراف، طمأنني، إنها ليست
مهمة اليوم، ولكن قد تكون مهمة الغد، لو استطعت أن أنجو من
وساوسي حتى الغد.

حين اقتربنا من المعسكر، كان النهار يتلاشى، ومفردات ليل
السراري، تتجمع، أصوات الكلاب البعيدة، أصوات اليوم والذئاب،
الأحلام المهرقة، الأحلام المعطرة بالمسك والكوايس معاً، والغربة في
كل شيء... وحين دخلنا، شاهدنا الفوانيس شحيحة الضوء وقد
أوقدت في وسط ساحة الخيام، سمعنا الكارور يفتح بحلق اليمني جبار
القرنين، وكان إجراءً غريباً لا يحدث إلا حين يحدث أمر خارج عن
المألوف، لم تكن هي الحرب بلا شك، لأننا عدنا من المدينة ولم تكن
أية رائحة لحرب هناك، ولا رسالة من المتقي، لأن رسائل المتقي لا تقرأ
في غيبة القائد. وواجهنا التقلاوي بالخبر حتى قبل أن نبط عن ظهر
الطريق.. لقد فر الصبي (مقهور)، ابن المتقي المزعوم، من المعسكر،
سرق ثوباً أخضر، وعمامة خضراء، وإحدى شاربات الأمير القائد،
وجواداً أصيلاً من جياد الحرب، بعد أن طعن حارس ساحة الرعي
عمدية، وتلاشى إلى حيث لا يعرف أحد، وكان يصرخ..
أعز الله أبي.. أكرم الله أبي.

كان الجنود قد التموا في وسط الساحة الكبيرة، وغطوا على
الضوء الخافت، والحارس المطعون راقداً بين يدي ودعة المصّاص، يئن في
صوت مجروح، والمصّاص يلبخه بلبخات نبات (القرض)، محاولاً إيقاف
النزيف. لم يتحدث القائد كثيراً حين وقف في مواجهة الجنود
المستمين، تحدث عن الابتلاء، والصبر على الابتلاء بلا إيضاح شاف،
وأمر جبار القرنين، بضخ كاروره، وتفتيت الملح.. قال للتقلاوي..
الصباح رياح، ولا أدري ماذا كان يعني، وقال لي.. اتبعني يا سعد،
وتبعته ليس لأنه أمرني، ولكن لأنها كانت وظيفتي. أن أتبع اليقظة،
وأتبع كوايس النوم أيضاً.

الأيام التالية، كانت جديدة على معسكر كتيبة (صفور) الغارق في المضغ والبلع واللهات والملل، وتعذيب طيف الحرب، يجعله حرباً رثة، تتبدى في عراك الأنفس، وصقل السيوف والحرا، وضرب الدروع بعضها ببعض، وترديد أغنيات الحماس الفجة.

فتح فرار الصبي مقهور، كوة في حائط الجهاد الذي كان يعتبر حتى تلك اللحظة، درعاً صلباً، وحارساً صلباً ضد نزوات الهرب، والتقاعد، إضافة إلى صوت الإمام المتقي الأسطوري، الذي كانوا يثقون بأنه الحبل الذي يكتف كل شهوة إلى منابعها. وبالرغم من أن مقهور لم يفر من الجهاد، وخوف الموت المحتمل إن قامت الحرب، وإنما فر بلوثة عقلية كما قدّرت وأعتقد إن القائد أيضاً قدّر، إلا أن مفردة الفرار في حد ذاتها، كانت مفردة لثيمة ومنبوذة، لم يرد قادة الجهاد أن تظهر أبداً وسط جنودهم، ومن ثم أضيفت إلى مهام سرية (جبارين)، أقرباء القائد طلسم، حراس بيت الغسيل، وناثري الهدير يوم يجب أن ينثر الهدير، أعباء جديدة لم تكن موجودة في السابق، حيث أمروا بأن يتناوبوا حراسة المعسكر في الليل والنهار، ومنحوا صلاحية أن يكونوا أعمدة طويلة وعريضة، يعلّق عليها كل فار يقتنص، في وسط الساحة، ويغسل أمام الجنود الذين يجمعهم الكارور خصيصاً لهذا الغرض. وعين (جبريل لالو) قائد السرية بالتحديد، عاموداً خاصاً ليعلق عليه مقهور، الذي أرسل خلف فراره نفر من كتيبة الموت، يفقهون الريف

والصحراء، وحتى جحور مدينة السور، فقهاً تاماً. لم تكن ثمة ضرورة لإخبار المتقي بالأمر، وتعكير ليلاليه التي تقتنص الرؤى والنهج التقى، أو هماراته التي تحرك رايات الكرامة في اتجاه انغراسها، كما وضّح القائد، ولا ضرورة لاعتبار الأمر أكثر من أنه أمر محلي خاص بكتيبة من تلك الكتائب العشر المجاهدة، كما وضّح أيضاً. كنت أشفق على مقهور من جنونه، أشفق من احتمال موته في الصحراء جوعاً أو عطشاً، إن فر باتجاه الصحراء، أشفق عليه من ملثمي مدينة السور المدحجين بالموث، إن دخلها طاعناً في نطفة المجاهد الرمز، وأشفق عليه أكثر، إن أعيد إلى المعسكر، وأنا أرى (جبريل لالو)، الطويل العريض، ذا اللحم النئى، والجلد الخشن، والرطانة الصامته، يروح ويحيى في ساحة الخيام، ينغرس وتداً لساعة، ويمضي سطلاً ممتكلاً بالعقاب.

كان أكثر ما أمهني وسط تلك التعاسة، إن زفاني إلى المجاهدة ضو، قد تأجل، والنظرة التي كانت لي، قد تجدد وقتاً أكثر في البحث والتنقيب، لتفك شفرة الظلام الذي كان يحيط بحورية الأرض تلك ساعة رأيتها، أيضاً تأجل ضخ النعناع ومضاعفاته في كوابيس القائد، وكانت كلها كوابيساً تقية، لا ترطن سوى برطانة الحرب والمجد، ووضع كل أمر في مكانه الصحيح، وأحياناً تأتي مقاطع كاملة من نشيد (النونة) المجلجل، مختلطة بلحم الكابوس.

تناسيت أمر مقهور، والدنيا مقلوبة من أجله، واحتجت إلى ودعة المصّاص الذي كان يلزم الحارس الجريح في خيمة صغيرة أنشئت حديثاً، وسميت خيمة الشهداء، باعتبار أن الذي يدخلها شهيداً، حتى لو عاد إلى الحياة، وإلى القتال مرة أخرى. كنت أود إشراكه في مصابي، وما انقطعت صداقتنا أبداً منذ أن خرجنا أحياء من غسيل برهاني. أحدثه عن ضو التي رأيتها ظلاماً، وزفاني الذي تقرر من ذلك

الظلام وربما عن حميلة التي تعذبني وتعذب قائدي، ولا أدري في أي جحر من جحور السور، توجد.

دخلت خيمة الشهداء للمرة الأولى، وكانت مميزة، على أرضها بساط أحمر من سعف الدوم، وفي جوها رائحة المسك عابقة أكثر من أي شبر آخر داخل الكتيبة، ومختلطة برائحة بخور الصندل. كان ودعة نائماً على جنبه، قميصه الأبيض متسخ بشدة، في طرف سرواله مزع ظاهر، ومن تحت رأسه الذي بدأ يبيض، تبرز رسالة الشكر والعرفان التي تلقاها من المتقي، في ورقها الأصفر، وكان الجريح راقداً أيضاً لكنه مستيقظ، جرحه مغطى بالخرق، وثمة ذباب كثيف يشمه، وينكش في الخرق، باحثاً عن طعم. هززت المصاص برفق، فاستيقظ فرعاً، وكأني سمعت اسم (حنو)، فتاة ولهان البائسة التي يهواها، يتكون في لسانه الفرع. استوى جالساً واستويت، وقدرت أنه كان يحلم بفتاة لم يعد يستطيع رؤيتها، ليس بسبب اقترابه من النار فقط، ولكن بسبب الحراسة الجديدة التي قطعاً تحرس سرقات الليل، كما تحرس نهارات الفرار.

كان ودعة المصاص لدهشتي الشديدة، قد سمع بالمجاهدة ضو، كما سمع بالغاز كثيرة كانت تروى له في ليالي الضياع، بعضها من محاربين كان يعرفهم سابقاً، أو صادقهم في تلك الليالي بطريقة أو بأخرى، وكانوا يسهلون ضياعه، وبعضها من فتيات البؤس اللاتي ما زلن يتحدین الصرامة، ويعشن في شبق من يغامر ويريد. حدثني عن رقة توما، وفحولة شبابه لأول مرة، قال.. كان ناضحاً وقوياً وغزير الماء، وكن يردنه كلهن ويتصارعن من أجله، حدثني عن (خزي العين)، الذي كنت بالمدينة ولم أراه حين التوى الطريق بعيداً، قال هو الآن ثكنة مفخخة، مدهونة بالأخضر ومظلمة، يحرسه مئات المشمين، ويقال إن المتقي يقيم بداخله ويحرك الحياة منه.. حدثني عن حي كاهير، الذي ما

يزال وامضاً برغم تصدع الكثير من بنيانه، وذبول بساتينه الخضراء وحي (لونا وراجيف) الذي ما يزال وامضاً أيضاً وتقطنه عدد من حورياته القديمت، لكن سبايا تحت حراسة خصيان لا يعرف أحد من أين جاءوا، ولم يكن في السور أو أريافها، ذكر لتلك السلسلة أبداً من قبل، حدثني أيضاً عن (حاملي السياط) وهم جماعة مقاومة ظهرت بقوة بعد سقوط المدينة، ولا يعرف أحد من يحركهم أو لا يحركهم، كانوا يظهرون في أي وقت، على ظهور الدواب أو راكضين، يجلدون الجهاديين بسياطهم، ويفرون. قال إن ضو القناديل، كانت اسماً مطروقاً بشدة، وسيرة تردد باستمرار في كل وقت.. امرأة عنيدة وقاسية، قيل أنها جاءت من قرية (أباحيت)، برفقة المتقي وأتباعه، وتقود جيشاً من النساء الأرامل والعازبات، دربتهن على طحن الحبوب، وغسل الموتى، ومداداة الجروح، والتعامل مع جو الحرب، باعتباره جواً عادياً لا يستوجب الفزع. كان يحكي وقلبي يخفق بشدة، ولو كان صادقاً أو تلك الحكايات التي سمعها صادقة، فقد علقت في كارثة، كارثة لا أملك عدة الفوص لأغوص فيها، ولا عدة الفكاك لأنفك.. من يستطيع أن يتخيل سعادة على فراش امرأة محاربة، من يستطيع أن يتدفأ في صقيع أنثى لا تملك الدفء، وما المنطق الذي يسمي هذه حورية؟. والمدينة لا بد تغص بغيرها من بنات الحور الحقيقيات. كلمني عن خطورة الاقتراب من ضو، وخطورة الابتعاد لو أرادت أن أقرب، حدثني عن محارب مجنون، قيل أفقدته عقله، ومحارب مات، لأنها أرادت أن يموت، وأعطاني عهداً أن يكتم السر، وكان يرد لي جيلاً، إنني كنت أعرف غزواته الليلية منذ مات توما، ولم أبح لأحد. وخرجت من عنده عازماً على رفض ضو وزواجها، وخدمة القائد بلا مقابل في شأن عشقه الخميعة، وقد قال لي المصّاص، إنه لم يسمع أبداً بذلك

الاسم يتردد أثناء غزوات الليل، لا من فم رجالي ولا نسائي.. وأيقنت إنه الحصار.. الحصار الذي يفرض على سبايا محددات، لا يود الكبار أن ترحف سيرتهن، إلى أكثر من عمى وصمم البيوت التي يعشن فيها. قريباً سينجلي أمر مقهور بلا شك.. وسنعود إلى ما بدأه أنا والقائد طلسم، ولن يحدد هو النهاية.. لن يحددها، لأنني أنا الذي سأحدد. خبطت على أرض خيمتي الصلدة.. وأنا أردد.. لن يحددها.. تراخيت وأنا أسمع نطحته تنز في الخيمة المجاورة.. سيحددها.. سيحددها بلا شك.

في أحد الأيام، عاد أفراد سرية الموت الذين أرسلوا وراء فرار مقهور، بقيادة رجل اسمه (ناتف)، كان من أفراد السرية المميزين، ومن السبدو الذين عاشوا في البادية والحضر معاً. كانوا قد غربلوا الصحراء رملاً وقحطاً، وواحات استثنائية، ووصلوا حتى حدود عرب (الظلمان) رديء السكنى والترحل، وأماكن تجمعات قطاع الطرق، حيث كانت القوافل تجرد من خيرها وشرها، ويخصى الرجال. غربلوا أحشاء الريف وسفوح الجبال، ووديان الرعي، وفتشوا أماكن النار كلها في مدينة السور، حيث يمكن أن يوجد مختل أو يتيم، أو رام للنبال، يحاول أن يسرق نطفة من رمز ويزهو بها، وعادوا بالثوب الأخضر المرقع والعمامة الخضراء، وجواد الحرب الأصيل، والمدية التي طعنت حارساً مسكيناً، ولم يعودوا بالصبي مقهور، كنت حاضراً حين التقاهم القائد، واستمع، وحاورهم التقلوي وجبار القرنين حواراً مستفيضاً، ورصدت نتيجة اتفاق عليها الجميع بلا استثناء، أن يحفر قبر منفرد بعيد عن الخيام، وقريب من قبر السفية ولهان الخمري، تدفن بداخله سيرة المرتد مقهور ولا يعود يتذكرها أحد. وقد كان بالفعل، حيث حفر القبر بسواعد نشطة، دفنت ثياب كان مقهور قد ارتداها أو تغطى بها،

دفن برش السعف الذي كان يرقد عليه ساعة الرقاد، والقوس الذي كان من المفترض أن يجاهد به، وحتى حواراته التي تحاورها، وابتساماته التي ابتسمها، حذفت من مجتمع الكتيبة إلى الأبد، وأعفي جبريل لالو، قائد سرية جبارين، من انغراسه في الساحة كوتد خاص، أو امتلائه بالشتر، كسطل محتمل للعقاب، لكن مهمة السرية في الحراسة بقيت كما هي، بجاهد في الليل والنهار، محاولة أن تحذف مفردة الفرار اللثيمة المنبوذة، من مفردات الجند وثقافتهم.

كان التقلاوي ديدام، هو أكثر الذين تعذبوا بفرار الصبي مقهور، خاصة إنه حدث في وقت قيادته المؤقتة، حين غاب القائد لساعات، بالرغم من أنه لم يفقد أبداً أناقة السيف على الخنصر، والصقر أعلى الكتف، كنت أشاهده في كثير من الأحيان ساهماً، يتطلع إلى ساحة الرعي، أو يمد خياشيمه إلى الهواء، يتشممه، كمن يبحث عن رائحة معينة، أو يمضي مرتبك الخطى، إلى حيث حفر قبر النسيان وردم، يركل بروزه الرملي بقدميه، أو يتمخط ملوثاً رمله بإفراز أصفر.

الفصل الرابع

موت ناي الحماس

- 1 -

عدنا إلى ليل البنفسج مرة أخرى، إلى كوايس النعناع، وسيرة
المجاهدة حورية الأرض، وقطعة الظلام التي ما استطعت تمنعها أثناء
النظرة التي كانت لي.. عروسي الأكيدة ضو. وما زلت أحس بنظرها
التي كانت عليّ، مثبتة في الظهر، تحز الجلد واللحم، بالرغم من مرور
أكثر من شهر، انشغلنا فيه بأمر مقهور وفراره، حتى دفنا سيرته في قبر
منسي وانتهينا.

حدد موعد زفافي إلى تلك الضو، حدد برغم أنباء تواترت عن
اكتمال استعداد جنود الحكومة، الذين طعموا بمهارات مميّنة، جاءت
من مصر والصحراء الغربية، وحتى من بلاد إفريقيا البعيدة، وابتدأوا
المسير نحو قتالنا، ومحو ثورة المتقي التي اعتبرت جريرة إلى الأبد. جاء
بتلك الأنباء أعراب من بلدان الوسط، كانوا في الواقع تجاراً جددًا،
طرقوا ذلك الباب مؤخراً، افتتحوا قناة للربح مع سوق الجهاديين في
المدينة، ومنحوا تصاريح مرور من المتقي، تتيح لهم السفر والعودة، وأن
يطأوا أكثر الأماكن فجيرة وألماً، من دون أن يتعرض لهم أو لتجارهم
أحد. وكان من بينهم شيخ في نحو السبعين أو أكثر قليلاً، قاحل
وشديد النحافة، وممتلئ بالنمش في وجهه ويديه، تخصص في تجارة
أعلاف المواشي، وأمدنا بهبة سخية منها، نثرناها في ساحة الرعي،
وتزاحمت عليها القطعان. قال إنه مغرم بالمتقي إلى درجة الجنون،
ومدافع كبير عن الثورة، يعتبر نفسه أحد آبائها، ومستعد للقتال برغم

عمره، في أي لحظة ينادى فيها بالجهاد. لم أستسغ وجه ذلك الشيخ أبداً، لم أستسغ لكنته وغمشه، ووضعه لساق على ساق، وحكه لأذنه بسواك الأراك، وتوصيفه لمهنة التابع التي أمتنها، وأحس بذلها ومهانتها، بأنها مهنة رقي وإخلاص، ولو كان ما يزال صغيراً في السن، لتبع أقل المجاهدين شأنًا، واستمتع بخدمته. لكن ما أفرعني حقيقة، وأعاد إلى نفسي هلعها القديم، هو اسمه الذي نطقه في فخر من دون أن يسأله أحد.. فقد كان يدعى طلحان.. نفس الاسم الذي وصم زنديقاً، وورد في رسالة المتقي الأولى أيام إرهابات الغزو.

من بين الأسئلة المتعددة التي طرحت على أولئك الأعراب، من قبل الأمير طلسم أو التفلاوي ديدام، أو جبار القرنين، واستفسرت عن التجارة والربح، وأفضل السلع التي تدر الدنانير وسط ذلك الكساد العام، كان ثمة سؤال عن معنى أن يوضع ريش منتزع من ذيل ديك على باب، وتكتب تحته، عبارة لا راد لقضاء الله، وقد كان هو الشعار الذي شاهدته على باب ضو، وسأله القائد لدهشتي الشديدة، وما ظننت أبداً إنه لغز علق بذاكرة الجهادي، ويبحث له عن إجابة عند أعراب تجار، يحمل أحدهم اسم زنديق.

أثنى العجوز طلحان على الإمام المتقي، أعزه الله.. أكرمه الله، من دون مناسبة حقيقية للثناء عليه، وضَّح.. إن من واجبا الثناء على سيدنا وإمامنا وقائد ثورتنا، من دون أن يطلب أحد إيضاحاً.. ردد في النهاية: - هذا بكاء رجل لا يستطيع البكاء علناً لخوفه من السيف، إن كان على باب رجل، وسباب امرأة عقلها في مكان، وقلبها في مكان آخر، إن كان على باب امرأة.

- ولماذا تقول ذلك؟

سأله القائد.. وقد بدا منبهراً.

- ليس أنا من يقول ذلك يا أمير.. ولكن هذان السيدان..
أشار إلى رأسه، وكان مزدحماً بشعر أبيض من نهار أبيض، وإلى
فمه، وكان كهفاً مهجوراً، بلا ناب ولا قاطع ولا ضرس، ولا حتى
لعاب يبل الكلام حين يخرج.

كان الأمر كله غريباً، بل غاية في الغرابة. أن يسيطر أعراب من
البدو على التجارة، يمتلئون ويستفرغون والبادية تشتعل، والحضر
يشتعل، والحرب ليست في الأفق البعيد، ولكن في الدرب الذي يقود
إليها. أن يمنحوا صكوك مرور من قائد الثورة، وبينهم شيخ يحمل اسم
زنديق رمز، وثق في رسالة مهووسة، أن يعلق شعار رسم على باب من
الصفائح، قد يعني شيئاً وقد لا يعني، بذاكرة جهادي مشغول بأمور
عدة، حتى ليسأل عنه هذه الغرابة.

كان القائد قد تنحى، مرر مسبحة الصوفيين بين أصابعه
ببطء، ولا بد كان يفكر في تلك التي عقلها في بيت الصفائح، في
أرض الكوثر، وقلبها في مكان آخر لا يستطيع معرفته. رماني بنظرة
كبيرة وأنا أقدم شاي الضيافة للتجار الذين كانوا مسترخين على
بروش السعف ووسائد الريش، يكملون أحاديث الربح والثروة،
رماني بنظرة أكبر حين تنفض التجار من استرخائهم، ركبوا قافلتهم
التي كانت إبلاً وحميراً، ومضوا، وذهب التقلّوي وجبار القرنين إلى
خيمتيهما:

- لم تقل رأيك في ضو يا سعد.

- لا بأس.. بالرغم من..

لم يدعي أكمل، وقد عزمت على أن ألوم النظرة التي كانت لي،
لأنها لم تعطيني شعباً ولا حتى رماد شيع، ألوم النظرة التي كانت عليّ
لأنها افترستني وأحس بوخزها ما يزال في ظهري.. أخبره إنني لم

أنصف، حين لم أر شيئاً، وأنصفت المرأة حين رأت وشبعت. عيناه في قمة الاشتعال.. وصوته فولانياً خالصاً:

- لا تقل برغم يا سعد.. ولكن قل على بركة الله.. على بركة الله، سنزفك إلى ضو. سنقيم لك عرساً مجيداً. اذهب..

طردي من اتباع يقظته، وما ملأت إبريق وضوئه بعد، وما مزقت ثيابه ورقعتها كما أفعل دائماً، ولا بدأت أحكي له حكاية الولد (الفولاني) صرحي عبد الخير، الذي ألقى بنفسه في بئر مظلم غاص بالعقارب والثعابين وحكايات الجن، لإنقاذ فتاة بدوية اسمها (أم عكش)، ظلت عالقة لأكثر من عشرة أيام، بعد أن ألقى بها والدها في ذلك البئر، في لحظة جنون، حين سأله عن الفرق بين مغص الرجال ومغص النساء. كانت قصة قديمة سمعتها من دون أن أعرف إن كانت حقيقية أم لا، أدخلت إليها اسم الولد الفولاني، أي الذي من قبيلته، وأدخلت القصة كلها إلى وظيفة التابع، وأنفش بها القائد متى ما أراد أن ينتفش.

كان يسألني دائماً:

- وماذا فعلوا للأب الملهد؟

أقول.. طردوه من القرية، وما قبلت أي قرية أخرى باستقباله.. ومات جوعاً وعطشاً في الصحراء.

- يستحق ذلك.. والفتاة أم عكش وصرحي عبد الخير؟

- تزوجا يا سيدي. وعاشا سعيدين.

قد يسأل عن الفرق بين مغص الرجال ومغص النساء، وقد لا يسأل، ولم أكن في الحقيقة أملك إجابة لو سأل، وقد يتر القصة في أي موضع من مواضعها ولا يدعني أكمل، وأيضاً قد يطلب ترديدتها عدة مرات في نفس الليلة، وقد شعرت في الآونة الأخيرة، إن تلك القصة،

قد وصلت في مللها إلى ما وصل إليه درس جبار القرنين، عن عظمة الخيول ورشاقتها، وكنت أنوي استبدالها بقصة جديدة. وفكرت في نصوص كثيرة، منها نص مرعب، عن شيخ جهادي أحب حورية من بنات الأقباط، حتى إذا غدا سلساً في فراشها، سلخت رأسه وألقت بالجلد للكلاب، وخفت أن أروي ذلك النص حتى لنفسي.

كان لا بد من الحصول على إذن من الإمام المتقي قائد الثورة، لإتمام الزواج، ذلك إنه يتم في كتيبة محاربة، ووسط رجال زوجوا مقدماً من حوريات السماء، حتى قبل أن تنشب الحرب الكبرى ويستشهدوا. لم أكن أعرف وسائل الإقناع التي سيسوقها القائد في ذلك الشأن، لكن قطعاً، لديه وسائله، وقد يستخدم عقيدتي القبطية السابقة، وهشاشة إيماني، وإنني قد أصبح أكثر تعلقاً بالجهاد، حين أزوج في الأرض قبل السماء.

لم يكن لكتيبة صقور في الواقع، رسول معين لنقل الرسائل إلى المدينة، ذلك ببساطة، إن الكتائب المحاربة المتمركزة في الأطراف، كانت تتلقى الرسائل من المتقي ولا ترسل إلا نادراً، وقد كلف التقلوي ديدام، مساعد القائد، شخصياً، بنقل ذلك الأمر إلى المتقي، وكانت مرته الأولى التي يغادر فيها الكتيبة منذ عسكرت في موقعها، ولم يكن من عشاق السبايا كما عرفت، ويبدو قانعاً بحورية السماء التي عقد عليها قرانه في تلك الليلة الغريبة المهووسة التي كنت غارقاً فيها حتى انتهت. شاهدته عابساً وغير راض، يداعب صقره في خشونة ويتلمس سيفه بين لحظة وأخرى، والتزم في النهاية لأن لا مناص من الالتزام، ويملك القائد طلسم، صلاحيات عزله وغسيله، وتمزيقه، وحتى تفاصيل رده، ودفنه منسياً بالقرب من مقهور وولهان الخمري. كنت أتمنى ألا يقبل المتقي، أتمنى أن يعود التقلوي حافياً وأعرجاً، ومجرداً من

السيف والصقر - وثياب الرقع، وبصحبة سرية خاصة لاقتناص القائد طلسم، وأخذ ليغسل في النبع الكبير، وأنفذ من ذلك الزواج القسري، لكن ذلك لم يحدث أبداً. غاب التقلاوي ديدام في المدينة لعدة ساعات فقط، وعاد يحمل بشرى الموافقة، وإن الإمام المثقي ليسره أن يقوى إيمان مهتد جديد، ما دام الزواج يقويه.

ذلك اليوم ركضت سيرتي متبوعة بالمغص، بين جنود الكتية، حاملي الجسد نفسه والغريزة نفسها، ولكن بزفاف مؤجل. اعتبروني صاحب حظ وحظوة، وأعتبر نفسي عكس ذلك، لوى الطباخون، زملائي القدامى، وجوههم بعيداً عني حين زرت خيمتهم، قدم لي العسكري زمزام، حساء بطعم الطين لا يمكن شربه، وسألني المشلول يحيى، عن عروسي وكيف التقيت بها، ولم أعطه تفسيراً لأنني لا أملك أي تفسير. هي نظرة كانت لي ولم تشبع، ونظرة كانت عليّ وشبعت بلا شك. لكن المصّاص لم يكن حانقاً، ولا صاحب ضغينة صغيرة أو كبيرة، حين زرته في خيمة الشهداء، حيث يعالج جريحه الذي لا يشفى برغم كل الجهود التي يبذلها في شأنه. احتضني بقوة اجتهد فيها جسده النحيل، وقدم لي هدية كان يخبئها في حفرة تحت وسادة نومه لتقديعها إلى شخص ما، ولعلها فتاة ولهان (حنّو) التي لم يعد يستطيع زيارتها واحتضانها. كانت هديته ثعباناً غاية في الضخامة، حنطه بأوراق نبات (العشر) المخلوطة بوبر الإبل، ولفه في أوراق صفراء متسخة.

كنا في يوم مبارك من أيام ذي الحجة، حين أقيم طقس الزواج، ليس على مسرح (يوتوبيا) الأنيق، ولا خزي العين الفريد، حيث طارت أغنية الحمام بصوت المغني (جريح)، ولم تخط، ولا أي مسرح آخر رسمته أيام كنت أرسم الأحلام، وأوقعها بضحكات حبيبي الضائعة. كانت في معسكر أجرب مخنوق بالدسائس، وشهوة السلطة،

وأصوات قطعان الرعي، والتواء حنك المجاهدين، وعبوس تقاطيعهم، وطيف الحرب المعذب في العراك الزائف، وأناشيد الحماس الجلفة.

جلس الشيخ مفتاح الفلاح، إمام مسجد السور القديم، حيث أمره القائد أن يجلس ليعقد القرآن، قدم له رضى شفاهياً، هو رضى موكلته المجاهدة ضو القناديل، ودرعاً رخواً ليس من دروع الحرب، هو المهر الذي قبلت به، قدم له بصمة إهمامه لأنه كان نصف أمي، يقرأ ويكتب بصعوبة، وتوقيعي كسعد المبروك، وليس ميخائيل رجائي القديم. لم تكن أصوات الجنود حماسية أو حتى مهضومة وتقرب من الحماس، حين اصطفوا في الساحة الكبيرة، غنوا نشيد (النونة) المجلجل عدة مرات، ونشيد (ستر النساء) الذي يعتبرهن عورات واجبة الستر، وقيل أنه من تأليف اليماني جبار القرنين، وأيضاً شمت فيه رائحة قريشي مسمى طاؤوس، أو عكرمة الضراب، وإنه بلا شك أحد البوابات التي عبر بها إلى حياته الجديدة. نخرت عدة تيوس إفريقية جلبت من ساحة الرعي، وشوي لحمها على عجل بواسطة مجندي سرية الطبخ، وقدمت للنصيب، رسول المتقي الذي جاء مشاركاً، ويحمل رسالة تهنئة، عصيدة خاصة صنعت من ألياف نبات (الحميض) الحلو، بعد خلطها بالعسل وقشور النبق، ولا تقدم إلا لعلية القوم. رشوني برائحة المسك، ريح الجنة، وحملت عن الأرض بسواعد سرية جبارين القوية، طافوا بي على القبر الرمزي للمرتد(مقهور) والقبر الملوث لولهان الخمري، حيث بصقت بقرف، وعلى قبر الشهيد توما، حيث ابتسمت وزغردت، وعلى بيت الغسيل، حيث كان ينتظرني القائمقام برهاني بزيه العسكري كاملاً، ورميت على البيت حفنة من التراب النظيف، كناية على أنني لن أدخله مرة أخرى أبداً. لم تقم مسابقة جر الحبل المعروفة في الأعراس البائسة، لأن القائد خاف على

قوى جنوده من الهدر، والحرب على الأبواب، ولا سمح لي بإلقاء كلمتي في الاحتفال، لأن صوتي يجب أن يظل طرياً وكاملاً، وممتلاً بمفردات النشوة، وأنا أزف إلى بيت الصفيح.

كان من بين الطقوس التي أعدت، وكان طقساً معروفاً في زيجات الوطن، حتى أكثرها بؤساً، أو أكثرها غنى، أن أختار رفيقاً من أعضاء الكتيبة، يمضي بي إلى بيت عروسي، يسلمني إليها ويعود، وقد اخترت ودعة المصّاص بلا تفكير. كان صديقي الوحيد في تلك المحنة، وكنت أمنحه فرصة أن يرى المدينة علناً من دون ليل مسروق، وأخطاء ملثمة، وفرصة أن يرى بئسته حتّو، إن وجد فرصة لرؤيتها، بدا المصّاص مغتبطاً، ويصفر في انتشاء، لكن اغتباطه لم يستمر طويلاً، وصفيره تقطع على حلقه، وقد ركب نفر من سرية الموت بقيادة (حنداق)، جيادهم القوية، ورافقونا.. كانوا يحرسون يومي العسل الذين منحنا لي من قبل قائد الكتيبة، ولا بد يحرسون أخطاء المصّاص التي كان من الممكن أن يرتكبها، وقد عبد له الدرب.

- 2 -

ريش الديك أعلى باب الصفيح الصدى، في حي أرض الكوثر،
لكنه ملون بألوان قوس قزح الذي يتكون بعد مطر خريفى غزير.
لا راد لقضاء الله، مكتوبة الآن بخط (الرقعة) الأنيق، وأضيفت
إليها نفحة إيمانية أخرى.. إن بعد العسر يسرا.

وكما لم أفهم القضاء الذي لا راد له، ولم يبهري تفسير العجوز
طلحان، حين ألقاه بعد الثناء على المتقى، وبهر به الحاضرين كلهم، لم
أفهم العسر الذي كان، واليسر الذي يحدث في حياة صاحبة البيت التي
لا تعرف عن عريسها الذي زفت إليه، سوى تركية من قائد في قلبه
غرض وفي جسده شهوة مزرية، ونظرة ألقته عليه ذات يوم، لتلم
بتفاصيل جسده فقط وليس تفاصيل روحه. عنيدة وقاسية، وصلبة،
وتدرب النساء على لغة الموت، وهلع الحرب باعتباره حياة يومية
سلسة. جاءت من قرية أباخيت في داخل النص الرهيب، برفقة المتقى
وأتباعه، ولا ماضٍ آخر يعرفه أحد. تندثر بالظلام كاملاً، ولا وجه أو
يد أو شعر، أو أظافر، أو دلع أنثوي.. يا إلهي.. كان الشوك محكماً
بشدة، وثمن حميلة البنفسجية، أو حميلة النعناع، أو حميلة التي أكاد
أفزع من سيرتها، وأعدت خاتمها إلى حفرة العميقة قرب الخيمة
المزقة، مخافة أن أنكشف ساعة عربي، إن تعريت، أقسى من فقد
السلطة والبريق والأهل، والفرس العبار، وأقسى من جو الكتيبة،
والطبخ، وتبعية القائد.

كنت أرتجف وما يزال الشتاء بعيداً.. أحس بالنبض عاصفاً في
عنقي، وجنبي وأطرافي، أمد يدي إلى الباب، وأعيدها، والتفت إلى
السوراء، لأشاهد عيني (حنداق)، قائد سرية الموت، ضيقتين إلى أقصى
حد، وفيهما لهب، وودعة المصاص على حماره الأجرب، ووجهه باتجاه
الأرض يمص طينها وغبارها. يمص روحها ويصقه.

- ادخل يا تابع وخلصنا..

يزجرني حنذاق المجدّر، أو حنذاق الحجر، كما أسميه في سري،
الرجل الذي يقود سرية لا تعرف العواطف، ولا تقدر إحساس
مهزوم، يجابه هزيمة وراء هزيمة، والرجل الذي قيل أنه نبع من منطقة
جبل (الكردوس) في أقصى جنوب السور، حيث الذئاب تسلية
للأطفال الصغار، يلعبون بلحمها وعظامها، والأسود التي تستوطن
هناك، مجرد دمي، يتبارى الرجال في سلخ أنوفها وتقليم أظافر
افتراسها، كان مؤهلاً بشدة لزعري، وزجر كل مرتعش، تنتفض
يداه في ليلة عرس.

- ادخل يا تابع القائد.. ادخل..

لا ينطق باسمي حتى، أو لعله ينطقه في سره متبوعاً بالبذاءة، كأن
يقول.. ادخل يا سعد الكلب، ولا يمهلني لألم قليلاً من الثبات أدخل
به، وأحس برغبة في القيء، ورغبة في الفرار، ورغبة في ضخ سائل
مقرف من تحتي، ولا التفت مرة أخرى، مخافة أن أرى لهب الموت في
عينيه وعيون جنوده.. اقرأ.. لا راد لقضاء الله.. وامتلئ إيماناً بالقضاء،
ذلك الذي أوصلي إلى هذه اللحظة، اقرأ.. إن بعد العسر.. يسرا..
وأفكر في يسر ربما لا أعرفه، ومنتظري بالداخل، وأطرق على الباب
مستعيراً طريقة القائد طلسم ونحنحته وطريقته في التنويه..
يا ضو القناديل.. يا مجاهدة.. السلام عليكم.

تلك اللحظة بالذات، والباب يفتح محدثاً صرير الأبواب الفقيرة، حدث ما لم يتوقعه أحد. وجدنا أنفسنا فجأة بين لهيب من الشياطين الجبّارة، كانت تنهمر علينا كالطرر، ومن أيد سريعة حتى لا تكاد تميز لها حملاً ولا عظماً، وأدركت على الفور، إنهم المقاومين، حاملي الشياطين الذين ذكرهم المصّاص، حين حدثني عن السور حية وميتة، ألمني ظهري بشدة، وجرتني يدان قويتان إلى داخل بيت الصفيح بسرعة، والتفت خلفي، لأشاهد ودعة المصّاص، لا يحص روح الأرض، ولكن يركض بحماره الأجرب، وحنذاق قائد كتيبة الموت، لا يتقهقر، ولكنه يتقلب في الهواء، ويقهقه، وأسمع طرقعة متتابعة، كأنها أصوات أعناق تكسر، أو مفاصل تتأكل أو دروع من الخشب، يعذبها سيل. أغلق الباب خلفي بنفس الصرير الفقير، وأنا لا أفكر الآن في ضوء، وغموضها، ومفاتيح عريها، وكيف أدخلها وأخرج منها، ولكن في صديقي ودعة، وإن كان قد نجا، أو شققت الشياطين لحمه. وكان أكثر ما يحيرني أن تنشط تلك الجماعة المجنونة، في وضوح النهار، والسور مأوى للسيوف والحراب، والموت بكل أشكاله وألوانه، وأن تأتي في تلك اللحظة بالذات، لتواجه حنذاق وجنوده الذين لم يسموا سرية الموت عبثاً. أردت أن أستأذن قطعة الظلام التي جرتني إلى الداخل، أطل من الباب لأرى ما انتهى إليه الأمر، لكنني سمعت صوت حنذاق يصرخ.. تدريب جيد يا رجال، ومن خلفه صوت المصّاص، لا ناعم ولا خشن.. يهتني بالزفاف مجدداً، ويتمني لي يومين سعيدين في ضيافة العسل، ثم نعيم الصمت.

الآن أنا ملقى على الأرض أمام عروسي المجاهدة، وظهري يؤلمني قليلاً من لسعة السوط التي تلقيتها. ثمة غرفة مرتبة بعناية، يبدو أنها أعدت لتكون مخدع عسل بلا شك. سرير من الخشب منسوج بحبال

السدوم، عليه بساط من المخمل بلون أحمر، جرة صغيرة ملونة من الفخار، عليها ماء أو عصير لا أدري، طعام في عدة أطباق موضوعة على طاولة من الخشب الجيد، ورائحة لصندل محروق تمنح المكان طعماً شبقاً. انتفضت لأقف أمامها، لا أعرف خيط البداية، ولا ما هي البداية أصلاً، ما هو المطلوب مني، وما هو غير المطلوب مني، وهل أحدثها، أم أنتظر أن تحدثني، وما تزال سوداء ومظلمة، بلا وجه ولا شعر ولا يدين ولا أظافر، ولا دلح أنثوي.. يا إلهي.. يا إلهي. كنت أقرب من الثامنة والثلاثين وقد بدأ شعري يتلون بلون الرماد، شبيت مراهقاً في خرائب حي (ونس)، أدلق فوران المراهقة وسط العفن والنشوة المخترعة متى ما استطعت، وموظفاً انقطع عن تعاطي النساء الخرائب، واعتبرهن مصدر ثروة، حين عين مسئولاً كبيراً وفخماً، وفي النهاية عاشقاً بلون الأحلام في أمسيات فتاة أرستقراطية، حتى سقطت المدينة وسقطت الأحلام، لياقي واقع الطبخ المير والتبعية الأمر، والزفاف القسري.. القرار السيادي، بلا حب ولا أهل ولا فكاك..

قطعة الظلام تنتظر.. أم أنا الذي أنتظر؟

بغثة اقتربت العروس مني، أمسكتني من كتفي المرتعشين، وأجلستني على السرير المخملي برفق، كانتا يدا حمى تلك اللتان مستاني، يدا حرير أحسست به حريراً بالفعل، بالرغم من ثياب التابع الثقيلة التي أرتديها، وزفوني بها إمعاناً في توثيق الزفاف، بأنه زفاف تابع مسكين، لا رجل حر يقرر وينفذ. بدأت أتأملها والسكون على أشده، والضوء يأتي مستطيلاً ومتعرجاً من شقوق باب الصفيح، وكوة صغيرة في جدار الطين. إن بعد العسر يسراً، أرددها في ذهني، وأبحث عن اليسر.. ما أشد حاجتي إلى اليسر في تلك اللحظة.

كانت العروس الآن تتجرد من الظلام قطعة قطعة.. تتجرد على مهل، انتزعت العباءة السوداء، وألقتها على أرض الحجر، واستطعت أن ألم بتفاصيل صدر أرعن ولاهث، ليس صدر فتاة أبداً، ولكنه صدر امرأة، تفاصيل بطن ضامر حتى لكأنه لا بطن، وسرة بيضاء ثقت في الوسط، وثبت على ثقبها خاتم من ذهب، تفاصيل وركين ممتلئين، عليهما آثار زمن مضى، لكنّها لم تمحو لمعاناً تلمعانه، وليونة تخيلتها، وحين نزع غلالة الوجه أخيراً، وألقتها أمامي، بدت فارهة وأسطورية، وتافهة وحببية إلى كل قلب. كانت الملكة الغجرية ندبة مشغول، مخترعة الأوطان، حتى لو لم تكن توجد أي فرصة لاختراع وطن.

- 3 -

- إنما قصة طويلة.. طويلة جداً يا سعد المبروك.

صوّتها المائل ذو التعرجات لم يستقم أبداً، وإلّاؤها لخصلات شعرها الليلية على الخد وسحبها، هو ذاته الإلقاء والسحب أيام خزي العين الفريد، في نقطة تجمع مواصلات الريف، على ضوء الفوانيس المتراقص، ووسط انبهار الريفين، وتحرش السابلة، وعشق مجنون لعسكري متقاعد كان يأتي يشعر مصبوغ، وقلب محطم. تخاطبني بسعد المبروك، وكأنها تخاطب اللحظة الراهنة، تخاطب الوطن الجديد الذي اختصرته، ومن خامات لا تخترع منها حتى حفرة في وطن. وعلى العكس مني حين لم استسغ اسمي، وهو ينطق بصوّتها المتعرج، بدت لي راضية تماماً، وتستسغ صوّتها والاسم الذي نطقه.

كانت الآن تستر عريها الذي أحاول جاهداً أن أمحوه من عينين امتصته في لحظة دعر، وشوّهه الدعر، أحاله إلى تفاصيل همجية لواحدة من لوحات الراحل العظيم كوستاوي، جعلت الصدر اللاهث، ورماً مهلكاً وخبيثاً، الوركين برغم لماعتهما، عودين يابسين لشجرة تبلدي ميتة، البطن الضامر، ثدي بقرة انقطع عنها اللبن، وخاتم الذهب الذي ينفرس في السرة، ويضخ الشبق، مجرد عنكبوت أسود من عناكب الغسيل، في بيت القائ مقام برهاني، جعلتني أشاهدها، كحق من حقوق عريس في ليلة زفافه، والآن أمحوها كجريرة اقترفت بها. تلتم في قميص رخيص من أقمص الكستور التي كانت تباع في سوق أبي جهل القدم، بلا أكمام ملونة،

ولا تطرئ على الخواف، ولا لهيب أحمر عند فتحة الصدر، ولا أستطيع أن أفهم، هل هي امرأة تريد وصالي في تلك اللحظة؟، أم مجرد ساكنة جديدة في نص أباخيت الرهيب، مثلي تماماً، تتبع القضاء والقدر. لا راد لقضاء الله، تلك الجملة الإيمانية التي في أعلى الباب، لم تكتب عبثاً بلا شك، وتفسير طلحان العجوز، لم يكن تفسير تاجر بدوي لم أحبه، ولم أنبهر بتفاسيره، ولكنه تفسير السيدين الذين ذكرهما.. بياض الشعر.. وكهف الفم القاحل.. امرأة عقلها في مكان وقلبها في مكان آخر. عقلها في نص أباخيت الرهيب، وقلبها في السور القديمة، وربما في خزي العين الذي كان ذات يوم خزي العين. إن بعد العسر يسراً، وقطعاً كان سيداً طلحان، سيقولوا كلاماً كثيراً عن ذلك العسر واليسر الذين أضيفا.. وبالرغم من أنني كنت من أشد معجبي الملكة نديمة مشغول، وأعتبرها امرأة فريدة، جعلت للسور نكهة ومذاقاً، إلا أنها لم تكن حوريتي التي انتظرها كل تلك السنوات، لم تكن من أعددت لها أحلام العرس في مسرح (يوتويا)، ولم أكن أتوقع أبداً أن تكون هي ضو القناديل، تلك التي أبرئني أو قايضني بها القائد، وحين استعرضت حوريات مدينة السور، وجر جرحهن إلى الدهن في محاولة فك الشفرة، أسقطتها بجداره، باعتبارها سقطت يوم عبرت الحدود، وضاعت خارج الرؤية، بل أسكنتها قيراً في العراء، باعتباره وطنها الجديد.. لا تمت في الحرب حتى نلتقي.. نطقها في حمى وداعي في مبنى مجلس المدينة، وفسرت، وكانت تعني بأنها اخترعت حياتها، وتطالبي باختراع حياتي.

- قصة طويلة يا سعد الميروك.

تلقي بشعر الليل ناعماً على خدها وتسحبه، ولا وجود لفساتين اللهب الزرقاء والحمر، ولا تبغ الدردار الخشن، ولا عشق ضرير مثل عشق البكباشي، لينوب في تلك اللحظة.

كانت قد عبرت الحدود في ذلك اليوم، حافية ومغطاة وناقمة، لم يعقها خندق محفور ولا نار تشتعل، ولا جندي مدجج بالحماس، ضاعت لأيام في الصحراء ومساقط المطر ومجاري السيول، تشم الموت ويشمها، لكنّها لا تلين أبداً.. وعثر عليها الجهاديون صلبة وقوية، واجهتهم في ثبات، وأعلنت أنّها ضو القناديل، أخت الثورة التي جاءت من مكان بعيد، وقد حلمت بها قبل اندلاعها بسنوات، وإنّما تريد لقاء المتّقّي لبيعته، وتسلم راية المرأة المجاهدة، في ثورة لم تذكر إرهاباً لها وجود نساء بداخلها. كان ضو القناديل، هو الاسم الذي جرى على لسانها في تلك اللحظة، ولا تدري من أين جاءها، وكان اسماً متوافقاً مع الثورة، وضد الموت.. أليس كذلك يا سعد؟

تغطّي العين بالشعر الليلي الغزير، وتكشفها، ولا عاشق يذوب ويتلاشى.. وأطرد شبح ذكرى البكاشي صبير من ذهني.. أخاف أن أكونه في تلك اللحظة.. أن أسقط سقوطه المرير.

ساقوها إلى حيث بذرة من بذور الهلاك.. إلى حيث الخيمة الشبيهة بخيام عرب الظلمان، رديئي السكنى والترحل، وحيث لا بد كان الرسولان التركيّان أرقم وجاويد، مربوطين إلى جبل أسطوري، في يوم من الأيام.

جلدها المتّقّي بصوته كما جلد الآخرين، ربطها بالحبال التي تربط، ولا تحل، موضّحاً نهج الثورة وغايتها، وحمية وصولها حتى العاصمة لاجتثاث الكفر من جذوره، وتطهير الأرض، لم تسأل عن بلدها أو قبيلتها، وكانت قد فكرت في قبيلة وبلد تضيفهما إلى اسمها الواقفي عند الضرورة، وسلّمت في النهاية راية حضراء وتعاليماً معقدة ولقباً كبيراً.. ومخصّصات جعلتها عميدة لنساء البؤس اللائي رافقن قصة أبائهن من منبعها، أو انضممن للقصة أثناء سرحانها في القرى

والسوديان ومنابت الرعي التي احترقت، تعلمهن كيف يطهين الثورة، كيف يوقدن نارها، ويخلطن مقاديرها، وكيف يعشن شامخات ووعرات، حتى لو شبت النار في أحشائهن.

- هل كان الأمير عبّادي طلسم هناك؟

- هو وكثيرون غيره.

- وهل تعرّف عليك؟

اسألها وأستغرب.. وأنا على يقين من أن لا أحداً يخطئ صاحبة خزي العين أبداً، وما بقي أحد في المدينة والريف المجاور، لم يدخل ذلك المقهى الفريد، ولم ينل ضحكة أو ابتسامة، أو أشرك في فحور القولون العصبي والإمساك المزمن، والدورة الشهرية المتعسرة، حتى لو كان حمّالاً مغموراً في سوق أبي جهل الشعبي.

الآن تمدّ يديها إلى شعرها الليلي المتأرجح، تعقده بشريط ملوث وبلا لون، كان ملقى على الأرض تحت السرير، تلتقط عباءة الظلام المخيفة، تظلم بها، تلتقط دثار الوجه، تظلم به أكثر، تضخ صوتاً خشناً وغريباً من حلقها لا يشبه صوتها المتعرج، تخاطبني به:

- الآن انسني وتعرّف علي من جديد.

وكان رداً بليغاً، لأنني لم أتعرف عليها حين رأيت ظلامها لأول مرة يوم جاءت لوداعي في مجلس المدينة، ظلامها الثاني، وأنا بصحبة القائد أثناء النظرة التي كانت لي، ولا ظلام اليوم، وأنا عريس أزف إليها بخلافة حنّاق ومجنّدي فرقة الموت. لكن كانت ثمّة بقعة معتمّة ما تزال، أن توصف واحدة من حوريات الأرض، وتدخل في صفقة طرفها الآخر حميلة حورية الحوريات، ولا أحد يعرف تفاصيل وجهها أو جسدها.. وكانت تقرأني بعمق.. لأنها التقطت تساؤلي، وردمته:

- لا تستغرب يا سعد.. كل مجاهدة في ثورة المتقي حورية، حتى لو كانت محاسن الجرداء أم العيال السبعة. لو كانت (فتافت) ذات وجه الجرد، لو كانت حنّ صبية الخمري البائسة. هنا لا يوصف وجه ولا قوام ولا دلع أثوي، ولكن يوصف نور يحيط بالمرأة.. يجعلها حورية. تبقي على ظلامها قليلاً، وأنبش فيه محاولاً العثور على النور، ولا أعثر، وتنزله مرة أخرى وأعثر من دون نبش. لم أكن جهادياً خالصاً بلا شك، ولا أظن غسيل برهاني كان ناجحاً.. كنت أفكر..

أكلنا من الطعام الذي كان مرصوصاً على مائدة الخشب أمامنا، كان شهياً وناضحاً ولكن لا أحس بطعم نضوجه. أحس لحظة بأنني كنت محظوظاً، حين لم أزف إلى حورية جرداء تحتلبي وتحتلب يومي العسل حتى آخر قطرة، ولحظة أخرى، برداءة الحظ، لأنني زففت إلى امرأة مشتتة، وقد أسقط في الشهوة خائناً لأخرى، لا أملك حتى الآن من ريجها، سوى خاتم مسكين كان مربوطاً بقرب الأحشاء، والآن في حفرة عميقة في معسكر البؤس.

لم يكن من المناسب أن أسألها عن سبايا، أو مخلفات حرب نظيفة، أحشر في وسطها خميلة البنفسجية، ولا بدت راغبة في جر الحديث إلى تلك الدهاليز، كنت أتأملها وأفكر، فتاة الغجر حين تخترع الوطن، حين توظف جهادية في ثورة المتقي، وتجد ملء الوظيفة، كجزء من دثار الوطن. لكن هل تصلح موظفة في ذلك النص حتى نهايته؟، أم هو مجرد دور تلعبه حتى تعثر على دور جديد، أو تعود إلى وطنها القديم.. خزي العين. وقبورها الزواج من رجل تعرفه، وتعرف تفاصيل قلبه كلها، هل كان أيضاً جزءاً من دثار الوطن؟، أم فقرة خارج النص وأدخلت إليها صدفة. أتأملها وأفكر، أراها تأملني، وأحسها تفكر.

سقطت قربها على سرير العسل، في أول الليل، تماماً كما سقط
العسكري المتقاعد صبير، ذبابة في مرق يغلي، فقط بلا علة من علة
الكثيرة، وبذاكرة تعرّفت على حرارة الأثني بامتياز، لكنّها ادعت
الغباء، لم ألحها في ذلك اليوم ولا اليوم التالي، ولا أي يوم آخر من
تلك الأيام التي كانت ستمنح لي من قبل قائد الكتيبة كلما سنحت
فرصة. ذلك إن نديمة انكشفت. يخبرني حسداق المجدر، قائد سرية الموت
الذي ما يزال برفقة عدد من جنوده، يحرسون عسلي، بينما نفر آخر
حاصروا المصّاص، جرّده من بوادر أخطائه، وعادوا به إلى المعسكر.
يخبرني بصلف، وبلا أي حد أدنى للعواطف إن صاحبتني انكشفت.
كشفها صبيها الجرسون (ترتر)، الذي اختطفه أبوه أثناء إرهابات
الغزو، عطّره بالمسك، وذهب به إلى منبع النار، وهو يصرخ..
يا كافرة.. يا ملحدة. عرفها حين حام حول بيتها الفقير في الليلة التي
سبقت زفافها، وسمع عطاسها المميز، الذي كانت تحرص دائماً على
خنقه بيدها كلما أحست به، وكانت تلك الليلة نائمة، وكان العطاس
كثيفاً وحرّاً، ليسمعه متحاوٍم ليلي مثل الصبي ترتر. انتظر يوماً آخر،
يصادق اكتشافه ويخاصمه، يود أن يفصح، ولا يود، إلا أن صرعه
الإفصاح، فصرخ في وسط عدد من المهايل كانوا يسنون سيوفهم على
حجر.. ضو القناديل.. ليست ضو القناديل.. ولكنّها صاحبة خزي
العين، نديمة مشغول.

الذي حدث..

يخبرني حسداق المجدر، الذي أعلم بالهوس كله حين استأذنه أمام
الساب، قبل خلعه، يخبرني بلا أي حد أدنى للعواطف، بلا فرع ولا رحمة،
ولا مقدرة أن يكون راوية عادلاً لأحداث ليس طرفاً فيها.. الذي حدث
إن عدداً من معارفها، أو زبائنها القدامى استجابوا لصرخة الصبي ترتر..

بدأوا يلمون تفاصيل المرأة القديمة، يرسمونها على الظل الأسود الذي يقود
كتيبة النساء، يعلمها ملح الحرب، ومقادير طهوها، وشاهدوه عشرات
المرات باعتباره ضوء.. يلمون ويرسمون حتى رسموها كاملة، بشعرها الليلي
الذي تلمسه وتبعثره، بفجورها وضحكاها، وإمساكها الزمن، ودورها
الشهرية المتعسرة، وحتى تبغ الدردار الخشن، الذي ما انقطعت عن تعاطيه،
إلا حين انسلخت عن المدينة، وضاعت وراء الرؤية.

فاسقة ومرتدة وزنديقة..

علمت النساء الفجور

تدعي التقوى وهي مرتدة.

اغسلوها في النبع الكبير.

كانت الآن لقمة جديدة أطعمت لحناجر الهدير، في مدينة السور
التي ما برحها الموت أو الهدير أبداً، منذ حوصرت وسقطت.

كان عدد من المثلثين بغتة معنا، عشرات السيوف معنا، وفي
سرير العسل الذي كنا نتقاسمه جافين، لا مبتلين بالعرشة. لم يتركوا
فرصة للمرأة أن تغطي وجهها وشعرها المدلوق، وما انكشف من
عريها المشروع، وجروها لينة، ملّت اختراع الأوطان واستسلمت. لم
أكن هدفاً لتلك الغزوة، فلم يسألني أحد، ولا أحدث صراخي، أو
قميص التابع الذي رفعت شارته في وجوههم أثراً.

كانت آخر نظرة ألقتها عليّ، تلك التي خلقتها نظرة مبتسمة
وشبعانة، تتجشأ من عينين واسعتين، وآخر نظرة ألقيتها عليها، حين
ربطت إلى ظهر حمار أجرب، إحدى ساقها تنزف بلا انقطاع،
والأخرى مورمة بفعل إجهاد وحشي، ذهبت نديمة مشغول، إحدى
العلامات، كما تذهب أي عاهرة ملوثة، كما يذهب أي وسخ يكس
على عجل.

ظللت أبكي، ولا يعطف علي حنّاق، أستجير باسم المتّقّي،
واسم القائد طلسم، أصبح بهما، ولا أسمع سوى الثناء عليهما، ينبعث
من حلوق سرية الموت. وصدى الثناء يرتد من حوائط البؤس والفرع.
كنت بلا مروءة حين حملني حنّاق، وضعني على ظهر حماري الهزيل
ومضى بي، ألثفت، فأرى عبارة القضاء والقدر، ثابتة أعلى الباب،
حتى وهو ملقى على الأرض، وعبارة اليسر الذي يعقب العسر، ثابتة
أيضاً، وألح عدد من الصبية، يظهرون فجأة من أحد الأزقة، يقتحمون
بيت الغسل الفقير، وأخاهم يعربدون في أطباق الطعام التي كانت
مرصوفة على مائدة الخشب.

عدت إلى معسكر كتيبة صقور بائساً ومحطماً، وبلا معنويات أصلاً، لترتفع أو تنخفض. أزالني حنداق المجذّر من على ظهر حماري الهزيل، أمام خيمة القائد، كما يزيل صمغاً متجلطاً عصياً على الإزالة، وكان طوال الطريق، يرطن بلغة جبل (الكردوس) البعيد، أو يصيح في رفاق يعرفهم، ويصادفهم في الطريق، أو يردد نشيد (النونوة) المجلجل، الذي يصف التقوى كفتاة مليحة، بفم من مرمر، وضافثر من عسجد، ولا أعرف لماذا يردده. وخلال عبورنا لأحياء المدينة باتجاه الأطراف، كنا نلمح الحياة إما صاحبة وإما خامدة، إما فوراناً في الشوارع أو صمتاً مطبقاً في بيوت الفقر والجوع. وفي أحد الدروب الملتوية، واجهنا قريبي مسمى - عكرمة الضراب، رسول المتقي، هذه المرة أيضاً، كان على حصان رمادي مرتفع، وتلمع شارة الرسول الخضراء، على صدر زيه الأبيض النظيف. وعلى خلاف القائد طلسم، استجاب حنداق لتحيته.. السلام عليكم، فردّها كاملة، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. اغتبط من التهئة الحارة التي ساقها له، بكسر أعناق حاملِي السياط الملحدِين الذين كانوا يعبثون بمقدّرات الجهاد، ويدعون للفتنة في مدينة مجاهدة، واغتبط أكثر حين اقترب من أذنه، وردد في صوت منخفض لكنه مسموع.. قد تمنح رتبة الإمارة قريباً وتعين قائداً لإحدى الكتائب. تركه حنداق يترجل عن فرسه، تركه يقرب مني، تركه يدغدغ جنبي بأصابعه، ويقهقه في ترف، ولم ينهره حتى بعد

أن أمسكني من كتفي المرتعشين، رجّني عدة مرات بالدوار، وقهقهته عالية لا تنخفض، وحين اقترح غسلني في النبع الكبير، ردد حنداق..
- لا ضرورة لذلك يا أخي.. لقد غسلته الأيام.

كنت بلا مروءة، لكن المروءة نجيء حين تستدعي، وحين ينشط جنود الدم الذين أعلمني المصّاص بأمرهم في أحد الأيام، وجدت نفسي فجأة أهب في وجه مسمى، أبصق على شارة النفاق التي يرتديها، وأشده من قميصه النظيف، ألقى به ذاهلاً ومتخبطاً على أرض الطريق الملوثة، ليفرق في الروث والمياه الرطبة.. لم أكن أبالي ولا حسبت حساب النبع الكبير الذي لا بد موجود وقريب جداً، لم يضحك حنداق، ولم يغضب، ولم يقل شيئاً، اعتبرها كما يدو جريرة عادية من بائس مكسور الخاطر، نبت عروسه في ليلة العرس، وربما اعتبرها عتاباً طقسياً جرى بين قبطين قديمين في نص دخلاه قسراً.. ابتعد بموكبه الذي يضمني، وبقية مجنديه الذين كانوا يراقبون الموقف بلا ملامح، ورسول المثقي يتنفّض من الروث، ويقفز إلى ظهر جواده المرتفع ويمضي.

لم يكن القائد عبّادي طلسم، موجوداً في خيمته الكبيرة حين أردت أن أدخلها، وأخبرني جبار القرنين الذي وجدته يتحاوم هناك، وآلة الكارور في يده، كنزير شؤم، وحلقه يتشوق لضخها، إنه استدعي إلى المدينة على عجل، وذهب بصحبة رسول جاء يحمل أمر استدعائه، وحمّنت إنهم يشركونه في مصير الفجرية التي زوّجها لتابعه، وقد يسأل بمرارة، وقد لا يسأل عن ماضيها الذي يعرفه، ويعرفه كل ساكن في مدينة السور، أو زائر لها، حتى لو كان حمالاً مغموراً في سوق أبي جهل الشعبي. لم يسألني جبار القرنين عن شيء ولا أظنه كان يعرف، والمأساة كانت ما تزال ساخنة، لم تبرد ولم تحمل إلى الأطراف بعد.

تخرجت من أمام خيمة القائد متجهاً إلى خيمة الشهداء، حيث أتوقع أن أرى ودعة المصّاص، يتفانى في علاج جريح لا يود أن يشفى ويعود للكتيبة وحراسة ساحة الرعي، ولا يموت، ويدفن بجوار توما شهيداً حقيقياً، وليس محتضراً متمسكاً بالحياة في خيمة رمزية. كان النهار قد تلاشى تقريباً، ارتسمت حمرة المغيب على أفق البؤس، وتعالّت نحنة جندي يستعد ليؤذن لصلاة المغرب، وقد كان الآذان جزءاً من فروض المجندين، يتعاقب عليهم في جدول مكتوب بتنسيق اليميني جبار القرنين.. عثر علي التقلاوي ديدام، وأنا أتجرجر، كان في لوحته المعهودة، لوحة السيف في الخنصر، والصقر أعلى الكتف، لوحة قطعاً كان الرسام كوستاوي سيضيف إليها قرني ثور، أو ذيل طاؤوس أجرب لو رسمها. حياتي باحترام مبالغ فيه، وكان ذلك سمة لمستها في تحاياه منذ عيّنت تابعاً للقائد، ولا أعرف مفهوم التقلاوي لتلك الوظيفة التي كانت وظيفة ذليل يستحق أن يصفع حين قبل أن يتقلدها. سألني عن سر عودتي المبكرة، وإن كنت قد مللت حورية الأرض بهذه السرعة، ولم يكن يعلم إن فراش العسل كان جافاً بلا رعدة، وانتهى كما تنتهي الحروب القذرة، كنس كما يكنس الوسخ. رأيته يخرج عطر المسك من جيبه، يرشه في وجهي، وسمعته يردد.. لا بأس يا سعد.. لا بأس.. خذ، وكانت لا بأس خنجرية أخرى، شبيهة بتلك التي تلقيتها حين عرفت بموت أهلي، تنفذ إلى أحشائي، تمزقها، ورائحة أشمها قسراً، لأن التعاليم صيرتها رائحة للجنة.

قلت.. سأصلي منفرداً يا سيدي، لأنني متعب، ولم يقل شيئاً.. تركني متجهاً إلى بروش السعف التي فرشت للصلاة، ورأيتة ينضم إلى مشرف الغسيل برهاني، ولا بد يحدثه بأمر المرتدة التي كشفت وهي عروس جافة في فراش جاف.

كان المصّاص راکعاً عند قدمي الشهيد المحتضر، الذي كان الآن تحت وطأة الحمى، يتأوه بنشوة، ويتحدث عن بنت حور اسمها (جرجرية)، لا أدري إن كانت بنت حور فعلاً، أم واحدة من بنات ماضيه، جرجرتها الحمى إلى فراشه المسكين. يقول.. قبلي سماهيل يا جرجرية، قبله يا حورية، وقد كان اسمه سماهيل بالفعل، وأخبرني المصّاص مرة، إنه واحد من أبناء قبيلة (بني شكر) البدوية، أقرباء (آل بطاح) وأنسابهم، وعين حارساً لساحة الرعي، لأنه عاش راعياً وسط رعاة، وأتقن لغة القطيع، وحلب اللبن، ويعرف الشاة التي تصلح لإكرام الضيف، والشاة التي تصيب المصارين بمرض (الزفر). وكان ينتقي التيوس الفحول، يلقيح بها الإناث الملتهبات، وكان يمكن أن يتضاعف القطيع في عهد إشرافه على ساحة الرعي، لولا مدية مقهور التي أحدثت بالكثبية ضرراً بالغاً حين طعنت موهوباً مثله. وبالرغم من أن المصّاص لم يخبرني بذلك، إلا أنني كنت واثقاً بأن سماهيل كان هو من يساعده - يمدّه بالدواب التي ينسرق بها إلى ليل المدينة، حيث الضياع، وحيث حنّو صبية الخمرى البائسة.

كدت أبكي وأنا أستمع للتأوه المعذب، لتوسل سماهيل أن تقبله جرجرية، أن تضمه، والمصّاص لا يفعل شيئاً.. لا يوقف الهذيان الجنسي عند لحظة الموت أو لحظة الحياة، فقط يعجن لبخات نبات القرص، ونبات زنبق الصحارى، وقشور أشجار التبليدي الخشنة، يلصقها بمرح وسيم ونزق، و ينتظر. وكان قد ترك مجنّداً آخر يقوم بتلك المهمة، حين رافقني إلى المدينة في موكب الزفاف، وعاد ليوصل مهمته.

طالعني باندھاش حين ظهرت أمامه فجأة، نخض من ركوعه أمام المحتضر وكله أسئلة مستفسرة، أجبت عليها بالدموع، وارتعيت على صدره النحيل الذي بالكاد كان يسعني. كنا نبكي معاً.. أنا أبكي على

الملكة نديمة التي لم تكن حوريتي، ولكنها علامة كبيرة من علامات الحياة، تستحق البكاء، وهو يبكي على (حتو) صبية الخمر التي يهواها، ويتخيل لها الآن، مصيراً قاحلاً شبيهاً بمصير الملكة نديمة، حين تسقط في أيدي صانعي المصير القاحل.

قلت للمصاص.. اعتبرني شهيداً، ودعني أصبح بكوايسي في خيمتك. ولم يكن يملك تلك الصلاحية أبداً. قلت له إلدغي بعقرب من عقاربك، ومصر روعي كما مصصت روح توما، ولم يكن يملك عقرباً، لا طافحاً بالسم ولا مفرغاً منه. رأيته يمسح دموعه في وجل، يستعطفني بعينيه الضيقتين، اللتين قلّص البكاء مساحتهما، أن أرحل، ولا أود الرحيل، لا أود الانفراد بكوايسي في خيمي الجرداء، وأود حين أبكي في لحظة البكاء القادمة، أن يضمني صدره النحيل في هيكله، الواسع في تعاطفه.

- لعلهم يغسلونها فقط.. وتعود.

كان يخاطبني بالصوت الذي فقد خواصه القديمة، حين كان لا ناعماً ولا خشناً، هو الآن خشن إلى أقصى حد. ولا أزداد إلا هلعاً وإلا يقيناً، إنها هلكت حتى قبل أن تفارق بيت الصفيح، وتربط إلى ظهر الحمار الأجرب، قدماً تنزف، وقدماً مورمة بفعل إجهاد وحشي، كانت تستسلم في وهن، وكان الأطفال يقتحمون غرفة العسل، يلمون غنائمها. ارتفعت على برش السعف بجوار المحتضر الذي كان الآن خامداً، ويقطر من فمه المتسم، لعاب أصفر.. لا بد كان لعاب حوريته التي ضمته وقبلته أثناء رعشة الحمى، كان المصاص مرتبكاً بالفعل، يخرج بين لحظة وأخرى، يتفقد الخارج الذي غرق في الظلام والحواء، ويعود يسألني بعينيه الضيقتين أن أرحل، ولا أستجيب، حتى حين منحني نباتاً أخضر، أخرجه من خرقة متسخة كانت في جيبه، قال قد يهدئ

روعك يا سعد.. وفي لحظة البكاء التالية التي جاءت أشد عنفاً من السابق، لم يكن بمنحني صدره النحيل لأغرق فيه، كان يرخي أذنيه في توتر، يقول.. صوت الكارور يا سعد.. صوت الكارور.. ولم يكن صوت الكارور في الحقيقة، ولكن صوت حشرة زنانة من حشرات الليل، كانت تتحاور حول أذنيه.

لا بد أنه كان منتصف الليل، حين جاء التقلاوي وجبار القرنين إلى خيمة الشهداء لتفقدني بعد أن عاد القائد من مهمته في المدينة وسأل، لأن رائحة البراري كانت أعنف، وصراخ غيلانها الأسطورية، كان على أشده. لم أكن نائماً، ولا كان المصّاص ولا الجريح الشهيد سماهيل، الذي كانت حورية الحمى بداخله للمرة الثالثة في ذلك الليل الذي لا ينتهي. كنت أسمع تأوهات اللذة، أسمع جرجرية.. سماهيل.. الضم، اللثم، نشيد النونوة، وربما إضافات أخرى، مثل نهر العسل وكيف يغرف، أرائك المخمل، وكيف يتكأ عليها، وأكاد ألمح وأنا أحرق فيه، على ضوء فانوس متراقص، جمعاً من الولدان المخلدن، يرصون مائدة عشاء فخمة. دخل التقلاوي أولاً، وكان ناقصاً، بلا سيف ولا صقر، ولا جلابة. تبعه اليمني جبار القرنين لا يحمل (كاروره) المشووم، ولكن فانوساً صدئاً شحيح الضوء. وقفا عند رأسي وانتصبت واقفاً، وانتصب المصّاص، وأرى وجهه النحيل مرتعباً، وعينيه الضيقتين تتحاوران، ولا تحطان على شيء. كان بلا شك خائفاً من مساءلته عن استضافتي في خيمة الشهداء، ولم أكن شهيداً لائقاً للاستضافة في تلك الخيمة المميزة. أخيراً برغبة القائد في رؤيتي متجاهلان ارتباك المصّاص، وما كنت راغباً في رؤية أحد، ودمي ما يزال يتعارك بمنوده، ومنظر الدم والورم والضياع، لا يفارق عيني رأته وشبعنا من رؤيته. لكن اللوائح هي اللوائح، والغسيل البرهاني لا يعرف

لغة العواطف، والقلوب المجروحة، وما دام الأمير طلسم يريدني، فهو يريدني.

كانت الخيمة الكبيرة مزدحمة بالهياكل، الأمير في ثيابه الخضراء المرقعة، ومسبحة الصوفيين، تحب بين أصابعه حباً، النصيب، جرسون خززي العين القديم، أخو الجميلة الخرقاء ذهبية، ورسول المتقي الآن، متكئاً على إحدى وسائد الريش، وشارته الخضراء شاحبة في الضوء الهزيل، العجوز طلحان، تاجر أعلاف المواشي البدوي، الذي يحمل اسم زنديق، موجود أيضاً، ولم أعرف سبب وجوده في ذلك الليل، وفي معسكر زاره مرة ليفسر لوحة القضاء والقدر، ويهر الخاضرين، لكن أغرب اتكاء، كانت اتكاء حنذاق المجدر، قائد سرية الموت الذي لا تسمح له اللوائح، برغم وظيفته الجسيمة، أن يمر مجرد مرور أمام تلك الخيمة القيادية، تذكرت همس قريبي مسمى في أذنه ساعة أن عبرنا السور عائدين، وخفت أن يكون قد سمي أميراً بالفعل، ليضيف إلى بهارات الجهاديين طعماً مرّاً جديداً. وفي ركن بعيد من الخيمة، شاهدت هيكلاً نحياً لرجل ملثم بوشاح من التيل الأحمر، على رأسه طاقة من السعف الملون، ومن صدره تتدلى سلسلة نسجت حباً من أسنان التيوس. عرفت فيما بعد، وحين دقت النظر، إنه الجنون الشهير مخلوف، وقد اهتدى إلى معسكرنا، باعتباره منبع أحشاش النار التي يبحث عنها، ليصنع سفينة نوح، ولم يكن بالإمكان كتمه من أي حجر ينحشر فيه، لأنه كان يحمل صك عفو واحترام من المتقي، باعتباره أحد الذين رفع عنهم القلم. تماماً كالصبي غير المحتلم، والنائم غير المستيقظ.

جلس التقلوي وجبار القرنين قرييين من جلسة القائد طلسم، وظللت واقفاً متصلياً حتى بعد أن أمرت بالجلوس، كنت أتبع التعاليم

التي زوّدي بها جَبَّار القرنين يوم سحبت من خيمة الطبخ، وعيّنت في وظيفتي الجديدة. تلك التعاليم التي تأمر التابع بأن يظل واقفاً في حضرة قائده، حتى وهو في لحظة حداد أو موت أو مصاب بطعنة سيف.

الذي حكى في تلك الجلسة، وضخّته الحلوq الطرية واليابسة معاً، كان كثيراً، والذي خرجت به وزاد في ألمي واحتمال أن أسقط من وقفتي المتصلبة، كان قليلاً. فقد اعتبرت حادثة اختطاف المجاهدة ضو القناديل من بيت غسلها في حي أرض الكوثر، ونحر عنقها بالسكين، وإلقائها في (بركة الشيطان)، التي كانت فيما مضى، سرداب ساحة المجد غير الآمن، واستغلت لدفن وسخ المدينة المكسوس بعد الغزو، جريمة خرجت عن تعاليم الجهاد الحقّة، نفذها متهورون ورعاع لم يؤمروا بها أبداً.. قيل إن المتقي دمع صوته، وهو يرثيها بقصيدة سماها (موت ناي الحماس)، ولم يكن شاعراً من قبل، أشار إلى إن الماضي القديم كان قد أمّحى بالحاضر الجديد، وصاحبة خزي العين القديمة التي جاءت كأخت للثورة، وحملت راية المرأة، تعلم أخواتها أمور الدين والدنيا، قد غسلت نفسها بنفسها، وأنا على ذلك شهيد، لكن لا راد لقضاء الله، وما غمك من أمر أنفسنا شيئاً.

الخلاصة..

حنّاق المجدّر، لم يسم أميراً في الواقع، ولكن اتكأته تلك في مكان ممنوع، كانت اتكأة شاهد استأذونه قبل أن ينزعوا الباب ويدخلوا، اتكأة راوية بلا عواطف، راوية غير عادل شاهد المأساة كاملة، من دون أن يظن إنها مأساة، وفي جبل الكردوس حيث نشأ، كانت المرأة تذبج ببرود، لأنها طبخت عصيدة (الكول)، والزوج يريد عصيدة (المرس)، في ذلك اليوم، وتأتي غيرها لتصنع المرس على نفس النار، ولا أحد يبالي.

رسول المتقي، النصيب، جاء يحمل تعزية سخية، وعرضاً من قائد الجهاد بأن أحكم إن كنت أريد (دية الدم)، باعتباري زوجاً للمغدورة، وولياً لأمرها، أم أريد العفو، وهو خير الإيمان.

طلحان العجوز، لم يرسله أحد في الواقع، ولا كان مؤهلاً ليرسل في ذلك الشأن، ولكن كان متحاثاً في المدينة يبيع ويشترى في سوق الجهاديين، وسمع بالمأساة ساعة انتشارها المرير في السوق، وجاء بسيديه الحكيمين، الشعر الأبيض، والفم القاحل لإبداء النصيح، ولم يرد القائد طرده، لأن هباته من العلف لساحة الرعي، لم تنقطع أبداً، يرسلها بانتظام، ولأن الثناء على المتقي لا ينقطع أبداً عن لسانه، حتى وهو يستخدم ذلك اللسان للعق الشفتين أو قلب الطعام.

مخلوف المجنون، مجنون فقط.. يحمل صك عفو واحترام.

الستقلاوي ديدام مساعد القائد، يملك صلاحية التواجد حتى في الأحلام، وجبار القرنين، قريب من الخفايا، ومنسق للصغيرة والكبيرة، في مجتمع الكتيبة البائس المحدود.

الخلاصة..

ذهبت الملكة التافهة الحبيبة نديمة مشغول بلا رجعة، وذهب خزي العين الفريد، حتى لو عادت السور التي نسيها الحكومة العاصمية، أو تناستها، أو تخطط لتحريرها، لا أدري. لم تكن ثمة ضرورة لتلك الجلسة الليلية، تحت ثقل الكآبة، ولا لسيدي طلحان الحكيمين، ولا لرواية حنذاق غير العادلة، أو روايتي المضطربة الخائفة.. لقد عفوت.. ممسكاً بخير الإيمان، وتلك النظرة الشبعانة التي تجشأت في وداعي، كأنها كانت تطالبني بذلك.. عفوت، وكانت سخرية عظيمة، أن أبكي حورية لم تكن حوريتي في يوم من الأيام، وأعفو عن جلادها وأنا واثق تماماً، إنه لم يكن الجلاد الحقيقي، ولكن الأمر برمته، نص رهيب كان

يمكن أن يمثل وينتهي في قرية أباخيت، لكنه الآن خرج عن السيطرة.
حتى عن سيطرة المتقي.

سمعت القائد يهتني بقوة الإيمان التي انتقيتها، والتي لا ينتقيها إلا
مؤمن حقيقي.. سمعت طلحان العجوز يثني على المتقي، ثم يحتج بشدة
على قبولي العفو بسرعة، ومن دون أن يبدي رأيه ورأي سيديه،
وشاهدته يشير إلى شعره وفمه، والقائد يسكته بلطف، والمجنون مخلوف
ينزع لثامه وملابسه، وطاقيّة السعف وسلسلة أسنان التيوس، يهزهز
عورته في توتر، ويسأل عن خشب النار حتى يصنع السفينة، وأظلمت
عيناى وخلتني أسقط فحأة في بئر سحيق.

- 5 -

لم تكن هي خيمتي الصغيرة الجرداء، تلك التي أفقت فيها، ولا خيمة القائد الكبيرة المرتبة، ولا خيمة الشهداء التي تحوي جريحاً متلذذاً محتضراً، ورائحة مسك نفاذ وبحور صندل، ولكن خيمة أخرى لا أعرفها ولم أشاهد تفاصيلها من قبل. كانت صغيرة ومنخفضة، ومن قماش أصفر كتيب وممزق من ذلك النوع الذي يستخدم للوقاية من المطر، ويقتنيها الأعراب عادة، حيث تساعدهم على الترحل في أزمان الخريف. كان الوقت عصراً كما أعتقد، لأن شمساً خائبة، كانت تطل بنورها عبر الشقوق الواسعة للخيمة، ولأن نسمة ليست باردة ولا حارة، كانت تأتي لتلفح الوجه من حين لآخر.

كان طلحان العجوز لدهشتي الشديدة، باركاً بالقرب مني، يتنفس في سعادة، يشير إلى رأسه، وفمه الكهف، ويخبرني بفخر بعد أن تأكد من استيقاظي، وأثنى على المتقي ثلاث مرات، إنه أعادني للحياة مرة أخرى بعد أن مت، وشبعت موتاً، بفضل هذين السيدين العظيمين، الذين أرشده إلى عرق للحياة في عنقي، ظل يدلكه بما تبقى من طاقة العمر يوماً كاملاً حتى استعاد وظيفته.

تلك اللحظة، وبرغم تشوشي وانطفائي، وإحساسي بالعطش الشديد، استطعت أن ألم كل كره أعرفه، أوظفه في ازدراء ذلك البدوي الذي أعادني للحياة، إن كان صادقاً، وكنت أثناء هبوط حواسي في البئر السحيق، في خيمة القائد، قد استطعت أن ألم ابتسامة

ما، ابتسم بها، ابتسامة شيعانة تجشأت بها، وإحساساً مترفاً يالقيين بأنني قد تخلصت من كل أعبائي، تخلصت من تبعية القائد وشهواته وكوايسه، من حب خميلة النفسجية، من توتر القلب وهو يعشق وهو لا يعشق، والأهم من ذلك كله، تخلصت من وطأة الحرب، حين تقوم الحرب وتشردنا من جديد. وكان أشد ما يحيرني في الأمر، أن ينغمس بدوي في التجارة، والبدو الذين عرفتهم طوال حياتي أثناء تجوالي في مناطقهم أو قدومهم للمدينة، ليسوا تجاراً أبداً، وإنما أصحاب رعي، وأن ينغمس في الطب والشفاء، ولا سمعت به الأمراض من قبل، كما سمعت بودعة المصاص، وأن يقيم في كتيبة معذبة بطيف الحرب، تنتظرها وتستعد لها، ولم يكن محارباً ولا حتى غبار محارب، ولن يكون. بدوي يحمل اسم زنديق وصك مرور من المتقي إلى كل بقعة فيها فجيرة أو غليان دم، ولكن ليس صك مرور إلى قلبي العليل أبداً. سأرفض بقاءه معي حين أكون قادراً على الرفض، سأعثر على عرق الحياة في عنقي وأوقفه بأصابعي.

كنت أتخيل قصة طويلة ستروى ذات يوم في خيام البدو، في تلك الأصقاع التي كنت أزورها بحثاً عن رماد الثروة، قصة الحكيم الذي أعاد إلى الحياة قبطياً مهتدياً، وتابعاً لقائد من قادة الجهاد المهمين، بعد أن مات بالفعل. أتخيل ختم المتقي على صك المرور الأصفر، وكيف يستخدم هناك باعتباره صك مرور إلى الجنة، وربما توصف جلسة متخيلة ضمت العجوز بقائد الجهاد، وتدلّق فيها أوصاف، لم يشاهدها أو يصفها أحد حتى الآن. كان طلحان العجوز، هو مهووس المسنين بلا شك، (مقهور) المسنين، ذاك يدعي بنوة المتقي ويحلم بها، وهذا يدعي أبوة الثورة، ويؤكددها بالثناء على المتقي، حتى لو لم يذكر المتقي.

فجأة أحسست بالشوق الشديد لصديقي المصّاص، تمنيت لو كان هو الذي داواني وأعادني للحياة، وليس ذلك العجوز المهووس، ساعتها كنت سأحب الحياة، لأنها عادت بعد اجتهد من صديق أحبه ويحبني. لكن ماذا كان مرضي الذي سقطت به تلك السقطة المفاجئة؟.. ماذا كان يا صاحب السידين الحكيمين؟..

يثنى على المتقى.. أعزه الله.. أكرمه الله.. ويشير إلى السیدین:

- كان ورم النفس يا تابع القائد.

- ورم النفس؟

كان اسماً شبيهاً بالتحمة الكاذبة، ذلك المرض الذي فتك بأحياء الفقر كلها، واقترب من أحياء الثراء والنعمة، أيام إرهابات الغزو، وصلف التجار، وتخلط السلع الضرورية في المخازن، قلبته في ذهني المتوَعك عدة مرات، ولا تذكرت إنني سمعت به من قبل. أن تتورم المصارين بغازاتها الكثيفة وتنفجر، تتورم قدم الملكة الحبيبة التافهة، بالإجهاد الوحشي ساعة أخذها للذبح، تتورم الخبائث في الجسد، وتصبح ورماً خبيثاً، ولكن كيف تتورم النفس؟

كنت بلا وعي مني، قد منحت العجوز سكة للرغي، لم تجهدني فقط، لكنها كادت أن تميتني من جديد.. كان يثنى على المتقى ويحكى.. ورم النفس مرض قديم في هذه الأنحاء، جاء مع رحلات الأوروبيين المستكشفين ومن تبعهم من الأوغاد الزناة، وتبدأ أعراضه بضيق التنفس وزوغان العينين، ورعشة اليدين، ثم الغيوبة التي قد تؤدي إلى الموت أو الشلل التام، وهو لا يصيب إلا الكفار فقط، ولعلك المؤمن الوحيد الذي يصاب به.. إنها معجزة.. و..

اسكت.. اسكت أرجوك يا شيخ..

وجدت نفسي انفض الوعكة بجنون، وأهب راكضاً إلى حنكه العجوز الذي يضخ الكلام مبتوراً بلا أسنان ترممه، ولكن يكاد يفهم حتى عند أكثر العقول غباء.. لن أخرج أبداً من لائحة برهاني، إذا ترددت كلمة الكفر والكفار في مكان يسمعها ويعاود روايتها، حتى تصل إلى سمع القيادة، أموت بإيقاف عرق الحياة في عنقي، ولا أعود للغسيل، وقد رميت عليه حفنة من التراب يوم زفافي المنحوس، أرجوك.. كنت أستعطفه بضراوة، ناسياً كرهى الذي لمته من كل مصائب الدنيا، لأكرهه به. لا تقل ذلك يا شيخ طلحان.. لا تقل.. وفي اللحظة التي سكنت فيها عن الضخ، وبدا مستعداً لسماعي، بينت له ما لم يكن يعرفه من أمور الكتيبة وتعاليم الجهاد، وقد انحشر في النار غشياً ومهووساً.. وضّحت له معنى الشبهة والاشتباه والمشتبه في أمره، وكيف ضاعت عروسي الحورية يوم زفافها، بسبب تلك الكلمات، قلت له إن الغسيل لا يقتل مرة واحدة، ولكن مائة مرة، ولكي أزيد من هلعه، وأعجل برحيله عن ذلك المعسكر، أخبرته إنهم يغسلون حتى الثرثارين العجائز، والذين فقدوا العقل، والعميان والطرش، ويمكن أن يغسلوا حتى الأحلام لو طالتها الشبهة، وصك المرور الذي يحمله من الإمام المتقي ويزهو بحمله، ربما يعفيه من القتل بالسيف، والظعن بالحربة، والرمي في النار التي تشتعل، ولكن ليس الغسيل بالعناكب والجرذان الميتة، وشد الأماكن السرية حتى تنخلع، وكنت مستعداً لأن أخلع قميصي، أريه آثار ضب الصحراء الذي عشعش وتناسل في جحر أنشأه في عظمي الفقاري، مستعداً لأنزع سروالي، أريه خصية ما تزال بحجم قلة الماء، لأخذه سراً إلى حيث دفن ولهان الخمري، ودفنت متعلقات المرتد مقهور الذي ادعى بنوة المتقي، وطعن حارساً للرعي وتلاشى.

لم يكن طلحان العجوز يعرف بيت الغسيل بالرغم من أنه أشرك سيديه الحكيمين في محاولة اكتشافه، وظنه مرحاضاً مخصصاً لوسخ القادة الكبار، حين شاهد بنيانه، ولم يكن قد اقترب من برهاني كثيراً، وكان في نيته أن يصادقه بقوة، ويقاسمه الربح، حين اعتقده تاجر سلاح فولاني، يتجول في معسكرات الحرب، كنوع من التسلية.

كان العجوز قد حمد، ولعله تذكر كلمات أفلتت من فمه ذات يوم في وجود صانعي القرارات، وتعتبر شبهة قد تؤدي لغسيله، شاهدت سيده الفم يفتح وينغلق، سيده الشعر الأبيض، كأنما ازداد بياضاً، وسيديه معاً كأنما أصيبا برصاصة لم تمتهما، لكنها أصابتها بالدوار. ولم أرحمه، اخترعت له قصة، حشرت فيها اسماً لعجوز غسل ذات مرة لشهرين كاملين في بيت برهاني، لأنه كان يثني على المتقي وشم الحاضرون ريحاً، اشتبهوا بأنها خرجت من تحته، وخرج من الغسيل كسيحاً، ربط على ظهر ناقه، عوت به في الصحراء.. ولم يسمع به أحد بعد ذلك. إنه باهل يا شيخ.. ألا تعرفه؟.. وكان من قبيلة ثعلبان التي تقيم أقصى شمال السور.. ألا تعرفه؟

والواقع إن باهل الثعلباني، كان بدوياً تعرفت عليه أيام وظيفتي السابقة في تقصي الثروة، وكان قاصاً للأثر، يتتبع حتى آثار غازات البطن، ويخبرك إن كانت ستخرج، أم تبقى في البطن مغصاً، ومات منذ عامين بالحمى وليس من شيء آخر.

ذلك اليوم، تخلصت تماماً من وعكة العجوز طلحان، الذي اكتشفت بأنه هو من نصب تلك الخيمة الصفراء الممزقة، بجوار خيمة الطبخ، ليقيم فيها، وكان قد أتى بها من مدينة السور، حين انحشر حكماً غير مدعو في أمر موت الملكة. قلت شهيته للكلام، وبدا مرتبكاً وربما خائفاً، مد يده اليمنى إلى أذنيه، قرصهما بعنف، وحاول أن

يمسك لسانه الجاف، ويقرصه أيضاً. رفع نعليه المصنوعين من جلد شاة مرقطة، نفضهما مراراً أمام وجهه، وحين جاء التقلاوي وجبار القرنين، وصحباني إلى خيمة القائد حتى يراني حياً من جديد، ذهب معنا. وكان ذهاباً فقيراً برأس منكس، وعينين زائغتين، ترتميان على بيت برهاني الذي كان يطل برأسه من خلف خيمة التقلاوي لحظة وتنسحبان. جلس بعيداً قليلاً عن القائد، وجلست بحكم مرضي الذي منحني إعفاء مؤقتاً من وقعة التابع المتصلبة. لم يكن المجنون مخلوف موجوداً، ولا بد ذهب حين لم يعثر على أحشاب النار التي ستصنع السفينة، وقد يعود في أي وقت ليبحث عنها مجدداً، وكان مشرف الغسيل برهاني موجوداً بالصدفة، مدحجاً بكامل زي القائمقام، ويحكى عن جندي من سرية رامبي القوس والنبال اسمه (وروار)، حاول الهرب من المعسكر، وغسل منذ شهر كامل بكل طرق الغسيل، من دون أن يشع منه نور.. والقائد يحثه على استنباط ذلك النور بأقصى سرعة، لأن الحرب قد تقع في أي لحظة، ونحتاج إلى وروار بيننا، فقد كان ولداً بارعاً ويجيد الرمي، كما لا يجيده أحد.

دوى الصوت العريض للقائد عبّادي طلسم، وكان يوجهه إلى طلحان المعجوز، متجاهلاً وجودي:

- كيف استطعت مداواة سعد المبروك يا شيخ طلحان؟

لم يثن على المثقي أبداً، ولم يشر إلى الشعر والفم الكهف، وكان رده اجتهاداً مقتضباً، يضع كل كلمة في مكانها من دون بتر..

- داواه رب العالمين أيها الأمير.. وما نحن إلا وسائل.

- أحسنت يا شيخ طلحان.. لكن كيف تعلمت مهنة الطب؟

لمحت شبح ابتسامة على فم القائد، وكان أول شبح ابتسامة أمسك به على فم ذلك القائد الخشن من يوم أن انضمت إلى كتيبته

طباخاً وتابعاً، حمال سوق أبي جهل القدم، الذي عاد من غيابه أميراً.. وأتبعه أنا جامع الثروة وابن جامع الثروة.. كان يريد أن يشير إلى رأسه وفمه بلا شك، لكن العجوز لم يفعل.. هي رعدة ارتعدها وحكة لرأسه، حكها، وغمغم في صوت خفيض وأيضاً مرتب، كأنه يخشى أن يصير شبهة إذا ارتفع به أكثر، أو بعثره أكثر:

- ليس طباً في الواقع أيها الأمير.. ولكن تخاريف بدو.. تصدق حيناً.. وتخب أحياناً.

- تواضعت كثيراً يا شيخ..

ردد القائد، الذي كان ما يزال تحت انبهار تفسيره القدم، لمعني الريش وكلمة القضاء والقدر أعلى بيت الفجرية، حتى بعد أن ذهب الفجرية، والواقع.. لم يكن تواضعاً ما ضحه الشيخ باقتضاب، ولكن خوفاً لن يستطيع القائد أبداً أن يعرفه أو يعرف أسبابه.

جيء بقهوة حارة من خيمة الطبخ، حملها العسكري الطباخ زمزام، شربها جرعة جرعة، من دون ثناء على المتقي، جيء بالغداء الذي كان شاة كاملة، سلقت بأظلافها وجلدها على النار، أكل منه من دون ثناء، تشعب الحديث عن التجارة في زمن الحرب، وتحدث بجمل شحيحة، عن الأعلاف باعتبارها تجارة ليست رابحة تماماً، وقد يتركها ويعود إلى مضارب قبيلته، يعاود رعي الإبل، ويساند الثورة من هناك، وحين أذن لصلاة المغرب، وناشده الأمير أن يوم المصلين لأنه أحد آباء الثورة الكبار، تقهقر إلى الخلف، مفسحاً المجال للشيخ مفتاح الفلاح، الإمام الرسمي للكتيبة، وهو يردد..

- لا يمكن.. ومفتاح العلم والفلاح بيننا.

في اليوم التالي كنت قد استعدت نشاطي كاملاً، وعدت إلى خيمتي القديمة، وتبعيتي للقائد وتجهيز وضوئه وثيابه، واحتلاب

كوابيسه. استطعت التحول في المعسكر من دون أن أترنح، وزرت خيمة الطبخ لأتلقى العزاء من زملائي السابقين، الذين مضى حسدهم وتلاشت غيرهم تماماً، حين عدت إلى المعسكر أرملاً من زواج لم يدم سوى عدة ساعات. عرجت على خيمة الشهداء ليراني المصّاص حيّاً، ويمنحني صدر البكاء النحيل، وأيضاً لأسأله إن كان قد سمع بعرق اسمه عرق الحياة، ينبض أو يتوقف عن النبض في عنق أحد. كان المصّاص موجوداً بطبيعة الحال، غارقاً في لبخات النباتات، يعجنها ويلصقها على جرح لم يتغير لونه ولا عمقه ولا تغيرت رائحته النزقة أبداً وقد مضى عليه زمن ليس بالقليل. وكان الشهيد سماهيل يغلي بالحمى اللذيذة التي باتت إحدى سمات مرضه، لا يقبل أو يضم (جرجرية) هذه المرة، وإنما حورية أخرى، اسمها (العازة)، أخبرني المصّاص، إنها ربما تكون العازة، ابنة شيخ قبيلة آل شكر، حيث ينحدر الجريح، وكانت دميعة وعجفاء ومتسلطة، لم تحب أحداً، أو يحبها أحد أبداً، لكنه غير واثق. لم يكن قد سمع بعرق الحياة من قبل، وأخبرني وهو يمد يده ويمسك عضلة متصلة على عنقي، إنه ربما يكون هنا، تحت هذه العضلة، لكنه غير واثق أيضاً. لم يبد رأياً في طب طلحان العجوز، وكان قد رآه غباشاً كما رآه بقية الجنود الذين لا يستطيعون الاقتراب من حيث كان يجلس ويثرثر.

في وقت الظهر بالضبط، الوقت التي تسود فيه الشمس مانحة ظلالاً هشة للخيام البائسة، وساحبة أي لفحة من هواء قد تلفح، كانت ثمة ناقة تجمّز على عجل، توضع عليها تلك الخيمة الصفراء الممزقة، وعدة أغراض أخرى، من بينها خرج الزاد الذي يحتوي في العادة، على تمر وعسل وأقراص ذرة يابسة، ويعتليها طلحان العجوز، فاراً من وهم الغسيل الذي رسمته له، ولا بد أقلق منامه وعجل بذلك الرحيل، رأيت التقلّوي بكامل لوحته.. لوحة السيف والصقر، واليميني

جَبَّار القرنين، يودعانه عند ساحة الرعي، وأشرت له بيدي مودِّعاً،
لكنه لم يلمحها. كان متعجلاً بشدة، ورأيت نعاله التي من جلد الشاة
المرقطة تسقط من علو الناقة، ولا تترك الناقة ليلتقطها.

الفصل الخامس

توترات أخرى

- 1 -

عدنا إلى سيرة النعناع مرة أخرى، وبعد مرور أكثر من شهر على انطفائها، أو تعليقها إلى أجل غير معروف، بسبب أيام حزني وحدادي التي احترمت كما يبدو من قبل القائد الكبير، لكنّها كانت عودة مبعثرة في الواقع، بعثرها مستجدات أخرى حدثت في تلك الأيام، وكانت بعيدة عن التوقع وقرية منه في نفس الوقت. فقد أصبح أمر وقوع الحرب بيننا وبين الحكومة العاصمية في حكم الوشيك، وقد ازدحمت خيام الكتيبة، والكثائب الأخرى، ومدينة السور، وما جاورها من القرى والأرياف، بآلاف النازحين الذين قدموا من قرى ومدن الوسط، فارين من احتمال الحرب، ويصفون جيشاً جبّاراً قوامه عسكر نظيف ومرتب، يترحل في تلك الأماكن ويقضي على الأخضر واليابس، لم يشاهد أحد ذلك الجيش في الحقيقة، لكن الإحساس شاهده، الخبرة في التفصي شاهده، الطيور عكست رحلاتها المعتادة، الجراد بدا هزياً وبلا لحم، والأمطار شحّت على غير العادة. كان بين أولئك النازحين، مزارعون صلدون، ورعاة قطعان حفاة، ونساء وأطفال، وشيوخ مسنون، بعضهم حصد غلاله على عجل، وجاء يحملها على ظهر راحلته، وبعضهم لم يجد حتى راحلة تحمل الأسي، فجاء يحملها ماشياً. كانوا يستحيرون بالمتقي وثورته، يطالبون بالنصرة ولا يدرون أين النصر، لا يسخطون علناً على تلك الثورة التي ساهمت في أزمته، لكن السخط كان واضحاً في بصاق النظرات، وهمجية

السلوك، وتساؤلات بأصوات خفيفة من عدد من النساء المسنات، والصبيان الذين خنقوا مراهقتهم، ونزحوا.. تساؤلات عن معنى الثورة، والبلاد كلها خير، والخريف لا ينقطع إلا نادراً، والبهايم ترعى وتدر اللبن، وأولياء الله الصالحون، مدفونون في كل شبر من الأرض، ويحرسون الناس.

الظلم والطغيان يا شيخة..

الكفر والإلحاد يا أمي..

المستعمر اللثيم وأذياله الخبيثة يا ولدي..

يتفانى الأمير عبَّادي طلسم في الإيضاح في ساحة الخيام الممتلئة الفائضة بالعرق واللهات، والتساؤلات، ولا تفهم الأم معنى الكفر، ويوجد رمضان شهر اليمن والبركات، والشيخ (المديد)، وضريحه الذي يشع نوراً، والحج الذي يتوفر لمن استطاع إليه سبيلاً، لا يفهم الصبيان معنى اللؤم والخبائثة، وبيوت القرى مفتوحة على مصراعيها لا تصد أحداً، وعادات السر تمارس في كل وقت، لا يرحمها أحد.

فحيح الكارور من حلق جبار القرنين، لغة تلم الجنود حين لا بد أن يلتموا، ولا تستطيع حتى أن تلم شعراً منكوشاً على رأس امرأة، ولا بكاء مدلولاً من مصارين طفل، أو دمعة سخياً يسيل على خد شيخ. أعلنت حالة الطوارئ، بمعاونة رسل المتقي الذين كانوا مبعثرين في كل معسكرات الكتائب، النصيب جرسون خزي العين القديم، أخو ذهبية الخرقاء الجميلة التي ماتت برفسة حمار، قريبي مسمى - عكرمة الضراب، صالح الخزندق، بائع الترمس القديم في ساحة المجد القديمة، آخرون لا أعرفهم ولم أسمع بهم، يجيئون بالرسائل التي تعد بالانتصار قريباً وغرس الراية الخضراء في قلب منبع الكفر، ويرحلون بوصف لغة عصية على الوصف، وبالنسبة لمعسكرنا، معسكر كتيبة صقور، فقد

نصبت على عجل، تلك الخيام البدوية الصفراء التي جيء بها من السور على ظهور الدواب، نصبت على مسافة بعيدة نسبياً من خيام الجند، وتم إيواء النساء والأطفال، والذين بلا مروءة من كبار السن فيها، وبفراسة اليماني جبار القرنين، تم انتقاء عدد كبير من أولئك النازحين، باعتبارهم مشاريع مجاهدين يمكن أن يساهموا في انتصار الثورة، عين بعضهم حراساً لعورات أهلهم الحريم، حتى لا يسعى إلى كشفها أحد من الجنود المتلصين بالغرائز والرغبة، والمقيدين إلى بنات حور موجلات، وبعضهم تم تدريبهم على عجل، وحشروا في وسط السرايا، مقاتلي موت، أو رامبي أقواس ونبال، أو حتى طباحين يرأسهم العسكري زمزام، في حين ظلت سرية جبارين، حاملة دم الأمير الفولاني، نقية لم يحشر في دمها دخيل، بالرغم من ازدياد أعبائها، حيث لم تعد الحراسة أمراً سهلاً، وبالقرب من معسكر الجفاف روائح أثوية، حتى لو كانت روائح جدات، أو بنات صغيرات، أو أمهات مذعورات وبلا طعم. كنت ألمح جبريل لالو، قائد سرية جبارين، وقد طال إلى علو شجرة تبلدي صارمة، تطالع الفوضى في صمت ولا تنهد، ألمح حنداق المجدر، قائد سرية الموت، يعارك الهواء بيديه، وأكاد أسمع صوت الهنوء يتكسر، واقترح القائمقام برهاني، على القائد أن يمدده بمساعدتين جدد ينتقيهم هو من بين أولئك النازحين، ويوسع من رقعة بيت الغسيل حتى يماثل النبع الكبير، لأن الفوضى في العادة منبعاً شرساً للشبهات وبيته المتواضع، لا يستطيع تحمل العبء، وكان أن بدأ المجندون بالفعل في إضافة ملاحق جديدة لبيت الغسيل، وانتقى برهاني صبيين فارعين، شاهدهما في ساحة الرعي، يغافلان الحارس الجديد الذي خلف الشهيد سماهيل، يذبحان حمراً مسكيناً، يشربا من دمه، يصنعا من أحشائه كرة مملوءة بالقش، ومن عظام ظهره عصياً يجلدان بها القطيع،

عَينُهُمَا مُسَاعِدِينَ لَا جَدَالَ فِي صَلَاحِيَتِهِمَا لِتِلْكَ الْوُظُفَةِ. وَكَانَتْ أَكْثَرُ الْأُمُورِ صَعُوبَةً، تِلْكَ الَّتِي وَاجَهَتْ الْكُتَيْبَةَ، حِينَ اكْتَشَفَ عِدَدٌ مِنَ الْمُتَلَصِّصِينَ وَسَطَ أَوْلَئِكَ النَّازِحِينَ، شَهِيداً بِمَجْرَحِ نَزَقٍ، يَتَلَذَّذُ بِالْحُمَى، وَيُعَاشِرُ الْحَوْرِيَّاتِ، فِي تِلْكَ الْخِيْمَةِ الْمُمِيزَةِ بِرَاحَةِ الْمَسْكِ، وَبِخَوْرِ الصَّنَدَلِ. هَجَمُوا عَلَى لَبَخَاتِ الْمُصَّاصِ النَّبَاتِيَّةِ، وَخَرَقَهُ الَّتِي تَغْطِي الْجَرْحَ، وَبَدَأُوا يُعْبُونَ مِنَ السَّائِلِ الْأَصْفَرِ الْقَائِمِ الَّذِي يَنْزُ بِكَثْلِفَةٍ - يَلْحَسُونَ مِنْهُ، وَيَمَسِّحُونَ بِهِ عَلَى وَجُوهِهِمْ وَأَجْسَادِهِمْ، كَنُوعٍ مُبَيِّنٍ مِنَ الْبَرَكَةِ لَا يَتَوَفَّرُ كَثِيراً، بَيْنَمَا الشَّهِيدُ سَمَاهِيلُ، غَارِقاً فِي فِرَاشٍ جَرَجَرِيَّةٍ، وَالْعَازِزَةُ، وَصَابِرَةٌ وَأُمُّ جَدَائِلَ، يَضْفَرُ رَعِشَةً تَلُو أُخْرَى، وَمَا لَبِثَ أَنْ تَبَعَتْ أَوْلَئِكَ الْمُتَلَصِّصِينَ، بَعْضُ النِّسَاءِ الْمُسْنَاتِ، وَنِسَاءُ شَابَاتٍ عَقَرْنَ عَنِ الْإِنْجَابِ بَرِغَمِ زَوَاجِهِنَّ الطَّوِيلِ، كَنَ يَتَمَسَّحْنَ، وَيَسْأَلْنَ سَائِلَ الْجَرْحِ الْأَصْفَرِ فِي تَوَسُّلٍ، أَنْ يَهْبِيَهُنَّ الْعِيَالُ. كَانَ الْمُصَّاصُ مَذْعُوراً كَمَا أَخْبَرَنِي بَعْدَ ذَلِكَ، نَشَفَ رِيقَهُ وَتَسَارَعَ قَلْبُهُ، وَكَادَتْ تَحْطُمُ إِحْدَى ضُلُوعِهِ مِنْ عَرَكَ النَّازِحِينَ وَإِبْعَادِهِمْ عَنِ الْجَرْحِ، وَكَانَ أَنْ زُوِدَتْ خِيْمَةُ الشَّهَدَاءِ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَجْرَاسَةِ دَائِمَةٍ مِنْ أَفْرَادِ سَرِيَّةِ جَبَّارِينَ أَيْضاً، وَالَّذِينَ وَعَدَ الْأَمِيرُ قَائِدَهُمْ جَبْرِيلُ لَالُو، بِزِيَادَةِ عِدَدِهِمْ، حِينَ يَلْتَقِي بِالْمَلِكِ زَكْرِيَا أَبُو كَلَامٍ، زَعِيمِ الْفُولَانِيِّينَ الَّذِي يَجَاوِرُ الْمُتَّقِيَّ فِي مَدِينَةِ السُّورِ، كَمُسْتَشَارٍ عِرْقِيٍّ، يَفْهَمُ فِي الْقَبَائِلِ وَأَمْرَجَتَهَا.

كَانَ مَسْمًى طَاوُوسٌ - عَكْرَمَةُ الضَّرَابِ، هُوَ مِنْ أَتَى يَحْمِلُ رِسَالَةَ الْمُتَّقِيِّ الَّتِي وَضَّحَتْ التَّغْيِيرَ الْكَبِيرَ فِي اسْتِرَاطِيَجِيَّةِ الثَّوْرَةِ، هَبَطَ مِنْ حِصَانِهِ الرَّمَادِي الْمُرْتَفِعِ، شَارَةً الرِّسُولَ تَلْمَعُ عَلَى صَدْرِهِ، وَقَلَمُ الشَّعْرَاءِ خَلْفَ أُذُنِهِ، طَالَعَنِي بَضْعَانِ كَبِيرَةٍ وَهُوَ يَحْدِثُ الْقَائِدَ، وَهُوَ يَحْتَسِي الشَّايَ، وَيَأْكُلُ مِنْ لَحْمِ الْخُرُوفِ الْمَشْوِيِّ، لَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئاً. كَانَتْ الْأَوَامِرُ قَدْ صَدَرَتْ لِكُلِّ الْكُتَاتِبِ الْمُتَمَرِّكَةِ فِي الْأَطْرَافِ بِالتَّحَرُّكِ فِي اتِّجَاهِ الْوَسْطِ،

لملاقاة الجيش الحكومي القادم، ودحره ولم غنائه وسبي نساءه إن كان فيه نساء، بينما تبقى كتيبة صقور التي ننتمي إليها، ويقع معسكرها قريباً من مدخل بواذر الأكثر طرقات، والذي لا بد موجود في خرائط الحكومة العسكرية، عيناً ساهرة، تحرس السور من كل متسلل قد يتسرب من الجيش الهالك ويقرب. وقد استقبلت حلوق الكتيبة، ذلك الأمر بالهدير والهاثف، وأعلنت كل السرايا بلا استثناء، وهي تلتهم في الساحة الكبيرة على فحيح الكارور، استعدادها التام لتولي تلك المهمة التي كلفت بها، وأصبحت كلمات الثناء على المتقي، هديرًا عاديًا، تسمعه في كل لحظة، وكان يذكرني بطلحان العجوز الذي فرّ خوفاً من ذلك الثناء بالذات، ولا بد كان سيساهم بشدة في إيقاده، لو لم أزين له سكة الخوف والرحيل.

تلك الأيام ذهبت مع القائد طلسم إلى مدينة السور مرة، عبرنا الخراب والشوارع المتأججة، وشاهدت أحبار الذكرى والتاريخ تكتب الموت بكثافة أكثر، وقد أضيفت رسوم جديدة، بعضها يتخيل المتقي شيخاً بظهر محني وبعضها يتخيله طفلاً في المهدي، على فمه بصقة كبيرة وابتسامة شيطان، لكن سيرة الملكة نديمة لم تكن موجودة لدهشتي الشديدة، ولا بينها رسم وهي بلا عنق تموت في بركة الشيطان. توقفنا عند خزي العين المظلم، المفخخ بالحراسة والمدهون بالأخضر الزرعي، كما وصفه المصاّص، وبكيت سرّاً وأنا أتذكر سيدته، وريفيه، وجرسوناته، وفوانسيه ذات اللهب المتراقص، والبكباشي صبير بشعره المصبوغ وقلبه المحطم، وأغنية اسمها الحمام، طارت ذات يوم ولن تحط إلى الأبد.

كان حوش المقهى مزدحماً بالدواب، أحصنة وحمير، وإبل عليها غبار سفر، وعدة رجال يحملون شارة التابع الخضراء على صدورهم،

مخبيون بجوار حميرهم وكأنهم يغازلون الأرض. أمرني القائد بانتظاره خارجاً ودخل مسرع الخطى، واقتربت من أولئك الأقزام أتأملهم في تعاطف، وأجد نفسي ارتمي بغتة على صدر اليهودي عوزي إيزاك، تاجر الذهب الكبير الذي تحول الآن إلى (ساكن الجحش)، ويعمل تابعاً لقائد إحدى الكتائب المربطة في أماكن أخرى حول المدينة. لم نستعد أي ذكريات، لأن لا ذكريات كثيرة تجمعني بذلك التاجر المنهزم، ولكن قطعاً تحدثنا في همس عن مدينة السور القديمة، عن حملة جماري ووالدها وأم إيليا التي انتحرت بالسسم قبل قيام الثورة بزمان طويل، وفندوري تاجر الخمور الذي ضاع، وأشياء أخرى تلاشت ولن تعود. كان القائد بلا شك في حضرة المتقي، يتغذون من هُجِه ويؤسطرونه، وكنا في حضرة الخراب، نرثيه في همس.

كان القائد عبّادي طلسم، قد تضخم بوحشية غريبة في تلك الأيام، خاصة حين عاد من لقائه الأخير مع المتقي، بدأت كوايسه، تضخ هزياناً كثيراً، عن تعيينه أميراً عاماً للجيش، يتبع له كل أمراء الجهاد، وقد كان المنصب شاغراً حتى الآن لم يسم أحد ليشغله، سمعته مرة في أحد الكوايس الليلية، يتحدث مع المتقي شخصياً، يسميه أبا حمزة سيدي، وكانت المرة الأولى التي أسمع فيها بكنية المتقي، إن كانت هي فعلاً كنيته، وليست من اختراع حلم مجهض. يقول سمعاً وطاعة أبا حمزة سيدي.. قبلت إمارة الجيش أبا حمزة سيدي.. ساكون عند حسن الظن.. آتيك برأس الإنجليزي رمز الإلحاد. تلك الليلة أرحيت أذني حتى القاع، أمتص بتوتر، أحاول الحصول على تفاصيل أخرى للمتقي، ربما تقفز إلى جسم الكابوس، ولعله يكون أحد الذين عرفتهم ذات يوم، هاجر إلى أباحيت، تعلم الزعامة، وتضفير ذلك الصوت الجبل، وعاد رمزاً، لكن القائد اندحر فجأة للأسف.. قال.. يا نعناعة.. لا تمشي

أثناء النوم يا نعانة.. انصليحي يا بنية.. انصليحي.. وحين نطق باسمي.. سعد المبروك، كاد عرق الحياة في عنقي، يتوقف مرة أخرى ليس هلعاً، ولكن سروراً، حتى لو كان سروراً غائماً استقيه من كابوس.. كان يحشرني كشاهد على عرسه من حميلة النعانة.. وأكثر من ذلك.. كنت ولي أمرها الذي يبارك الزواج، لأنها كانت بلا ولي للأمر بعد أن هلك أولياء أمرها الفعليون، فقد فهمت بأن حميلة النعانة، لم تكن سبية تطأ رغماً عنها في ليالي اللذة المحمية، ولكن امرأة حرة عرض عليها الزواج، وتآبى قبوله بشدة. لم أكن في الحقيقة ضليعاً في علم النفس، ولا كان ذلك العلم المعقد، ثقیل الدم، مادة يدرسها المعلم جبير في مدرسته القديمة، لكني أسمع كثيراً عن العقل الباطن، ويوصف بأنه أكثر صدقاً من العقل ساعة وعيه، وتمنيت فعلاً أن يكون عقل الحمال الباطن في تلك اللحظة صادقاً وشفافاً وأكثر ثراء من عقله الذي عيّنني طباحاً وتابعاً ذليلاً بالرغم من مكائني الرفيعة التي يعرفها، وزوجني بحورية لم تكن هي حوريي. تذكرت طلحان العجوز الذي أخرسته بلا رحمة، تذكرت سيدي الحكيمين، وإلهما كانا سيرصفان لي الحقيقة، لو لم أعجل بذلك الرحيل.

في صباح اليوم التالي كنت كالمنحون، خرجت من خيمتي، والقائد ما زال يحلم، تسلفت إلى خيام النازحين الجدد، أسأل واحداً واحداً، إن كان قد رأى عجوزاً متهدماً على دابة في ظهرها قماش أصفر، إن كان قد التقى في لجة الفرار بسيدتين حكيمين، شعر أبيض، وفم قاحل، وكان النازحون يصفون كثيرين يحملون تلك الأوصاف، بل كان في خيام الإيواء التي نصبت للمسنين، مئات يشبهون طلحان في كل شيء، لكنهم لم يكونوا طلحان العجوز أبداً، كانوا خامدين وجائعين، أسيادهم الشعور البيض والأفواه القاحلة بلا حكمة، ولا ثناء على

المتقي. فجأة تذكرت واحدة اسمها (جناحان)، كان قد لفت اسمها نظري حين سمعته لأول مرة، وما كان اسماً متداولاً أو غير متداول أبداً، كانت أكثر النازحين شهاً بالعجوز، ويمكن أن تكون هو، لولا حناء كثيفة قهرت بها الشعر وحوّلتها إلى نار، فيما ظل كهف الفم طلحانها خالصة. أخذت أبحث عنها وسط تلك الفوضى، حتى عثرت عليها وكانت بالقرب من كانون مشتعل، تدفئ يديها الخشتين بالرغم من أننا كنا ما نزال في فصل الصيف، وقلت للتقلاوي الذي شاهدني أخرجها بعيداً، حين كان يتفقد النازحين، إنني شمت فيها رائحة فطنة، وأريد تلقينها تعاليم الجهاد، فلم يقل شيئاً، ابتعد وصقره يتسلى بخصيتي طفل عاري، يرجهما ببطء وهو يتهزّز.

أول سؤال وجهته للعجوز جناحان حين جلسنا في مكان بعيد، كان عن الفرق بين مغص الرجال ومغص النساء، السؤال الذي طرحته (أم عكش) على والدها، وأدى إلى إطعامها لبثر العقارب والشياطين قبل أن ينتشلها الولد الفولاني صرحي عبد الخير، ويقودها إلى عش الزوجية.. لا أدري لماذا وجهت إليها ذلك السؤال بالذات، لكن قد يكون الأمر فضولاً مني لمعرفة الإجابة التي لم يقلها الأب، ولم تقلها القصة. لم تكن على المتقي حين فتحت فمها الكهف.. رددت:

- مغص النساء ينتهي بنزول الدم.. ومغص الرجال يبدأ حين ينزل الدم.

كان صوتها هو فعلاً صوت طلحان ذا الجمل المتبورة المرقعة، وكان ردها سلساً ثمين لو سمعه الأب، وسمعت أم عكش، وسمعه القائد عبّادي طلسم، الذي لا يعمل سماع تلك القصة، بمجدها الفولاني المخترع، ممثلاً في الولد عبد الخير. بداية مشجعة يا أمي جناحان.. وأكمل ردها بأسئلة الفطنة:

- ما الفرق بين مطر الشمال ومطر الجنوب؟

- مطر الشمال يأتي بالخير، ومطر الجنوب يأتي بالمرض الذي يقضي على الخير.

كلام طيب أيضاً، وأعرف من خبرتي التي لمتها من الأرياف أيام كنت أجمع الثروة، إن أمطار الشمال ورياحها تساهم في اخضرار الزرع، وإدراار اللبن، بينما تلك التي تأتي من الجنوب غالباً ما تكون رياحاً جافة تقضي على المحاصيل.

- متى يكون الرجل في أشد حالات صدقه؟

- حين يكون نائماً يا ولدي.

أمسكت بالرد (الجناحاني)، كما أمسك على ربح تتحاوم أسفلي في وسط مجتمع غاص بالشّم، كنت أريد ذلك الرد بلا شك، أريده لأصدق به الكابوس الكبير، أصدق إمكانية أن تعود جذوة الحب لتشتعل من جديد في حطام قلبي الذي أزعم بأنه أكثر قلب تحطم من جراء نص أباخيت.. صحيح إنني اعتنقت الدين الذي جاء يحمله النص قسراً، ليتحول داخلي بعد ذلك إلى إيمان حقيقي وفهم لا يود أن يفهمه أولئك الذين دخلوا النص وخرجوا عن السيطرة، لكن للقلب أيضاً تعاليمه التي لا أعتقد إن الدين يمنعها..

شكرت جناحان العجوز بشدة، ولم أمنحها شيئاً لأنني لا أملك شيئاً، جرحرتها إلى كانونها المشتعل، ويداها ترتعشان لا أدري من الشيخوخة، أم من برد لم يكن موجوداً، قلت للتقلاوي ديدام الذي كان يراقبني من بعيد تاركاً صقره يتسلى بعري الأطفال، إنما لم تكن فطنة أبداً يا سيدي، وكانت في لحظة خرف عظيم، وأرهقتني بالأسئلة الكثيرة عن أسماء رجال ونساء، كانت تتخيلهم يجلسون قربها. ولكي لا يضيع خيط البنفسج الذي أمسكت به مرة أخرى بعد طول هجر،

أسرعت إلى حفرة الخاتم المدفون خلف إحدى الخيام الممزقة، نبشتها وأنا أتلفت في حذر، وعدت بالخاتم مربوطاً مرة أخرى بخيط الدوبارة، على البطن قريباً من الأحشاء.

كانت بي رغبة شديدة للقاء المصّاص، ودائماً ما تأتي تلك الرغبة حين يستجد جديد.. ماذا كنت أفعل، لو لم يكن في الكتبية صديق غريب مثل ودعة المصّاص؟

كان في لحظة استراحة حين اقتحمت خيمة الشهداء، يمط ظهره ويستعيده، يمطه ويستعيده، كأنه يحاول تعديل ذلك التقوس الذي يمسك بالظهر.. شهيد ذو الجرح الأزلي، خامد ولا بد خرج من حمى ورعشة، واسترخى هو أيضاً. جلست بجانبه، وبدأت أمط ظهري وأستعيده، والمصّاص لاحظ تشوشي، وتوقف عن استرخائه، كان يمنحني صدره النحيل، لكنني لم أبك.. فقد كان في داخلي أمل، ويلتصق ببطني قريباً من الأحشاء.. أمل.

- 2 -

استيقظت مذعوراً على فحيح الكارور، وخلته يفتح داخل حلمي الذي كان جميلاً وناعماً، ومستمداً لبهاراته الخاصة من تفسير جناحان، أو الأنتى طلحان العجوز كما سميتها، والذي أعاد الخاتم إلى بطني قرب أحشائي.. ومنحني الكثير من الأمل.. في أن يعود بعض من الزمن القديم. لم نكن وحدنا أنا وحميلة داخل الحلم، لكن كان برفقتنا ولد يشبهني كثيراً، وفتاة تشبهها حتى في الابتسامة، ورمشة العينين حين ترمشا، وفي داخل بيت مريح في حي (نسمة) الذي كان تحت الإنشاء حين باغتتنا الغزو وأمات حي نسمة وكل النسائم الأخرى. وكنت قد اشتريت في الحي أرضاً، أردتها عشاً لاحتضان المستقبل. فح الكارور بضراوة.. وتلفتنا أنا وحميلة، وانزعج الصغيران.. بدأ يصرخان، واستيقظت لأسمعه حقيقة وليس أصداء حلم.

كانت تلك غفوة الصباح التي أغفوها ويغفوها القائد ومساعد القائد، وكل المجندين داخل الكتيبة، والتي تعقب صلاة الصبح وتستمر حتى تصبح الشمس بضيائها عالياً، تنادي على المعذنين لطيف الحرب أن ينهضوا من أسرة النعاس، ويعذبوه في تلك التدريبات التي لا تنتهي.. القفز إلى أعلى من قامة الخيام.. نطح الرؤوس. سن السيوف على الصخور المديبة، حك الدروع بعضها ببعض، وترديد أناشيد الحماس الفجة. كان المعسكر ضاحكاً حين خرجت من خيمتي، وقد ازدحمت الساحة الكبيرة بالمجندين الذين هضوا على عجل، كما هضت

ولا بد كانوا يرعون داخل أحلام شتى، كما كنت أرعى، وبعض النازحين الجدد ممن بدأوا يفهمون لغة الكارور ويطيعونها، يترنحون من خيام الإيواء ويقتربون. شاهدت القائد عبّادي طلسم يقف في الوسط كالعادة، بجانبه السقلاوي ديدام كالعادة وجبار القرنين يضخ ولا يستريح حتى بعد أن غدا وجهه حلقاً متورماً، ومشرف الغسيل برهاني مدججاً بالزّي الذي لم أعرف أبداً إن كان زّي قائمقام حقيقي شب وترعرع في الجيش، أم زياً كاذباً يرتديه أحد الدمويين. تاجر سلاح فولاني يتحول في معسكرات الحرب كنوع من التسلية، ما أغنى ذلك.. لقد كان طلحان غشيماً في ذلك التفسير، برغم ما قدمه من تفاسير مبهرة.

كان ثمة رسول قد قدم من المدينة في تلك اللحظة، وبيده ورقة صفراء مطوية، لم يكن من الرسل الذين نعرفهم، وتعودنا حتى على رائحة جيادهم وغبارها، وأصوات حوافرها وهي تحفر، لكنه كان صبيّاً يافعاً، وذا صوت متعرج وشديد النعومة قيل إنه ابن أحد القادة المهمين. كان اسمه (كملان)، وشد إليه الجميع حين فض الرسالة الصفراء.. قصيدة ريماس الجديدة، وابتدأ يقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم

من الإمام المتقي خدام الدين، ومروّع المنافقين، والحادب على العزة والكرامة في كل شبر من أشبار الأرض، إلى أحبابه المجاهدين في كل مكان.

أما بعد

وإنه قد تحركت جيوشنا لملاقاة الملحدين والزنادقة والذين في قلوبهم مرض، لنحر رقابهم، وسبيهم، وإعادتهم سرازيم كما كانوا دائماً، فقد رأينا أن نهندي بالنهج السليم، والطريق القويم، وتنبع الرؤيا

التي تأتينا باليقين، ونجعل على رأس تلك الجيوش من يصلح لها طريقها
لر اعوجت، ويرسم لها الخطط التي تحتاجها في هذا الوقت العصيب،
قائداً له قلب أسد من أسود الفلا، ووثبة نمر من نمر الأحرار، لا
يخاف الوغى ولا يرهب كثرة الملحدين وكلهم غناء سيل.. وإننا لم نجد
أصلح ممن هو من صلبنا، وترى على الخشوع والطاعة، والبلاء الحسن،
وكلكم شهيد عليه حين يلتقي الحق بالباطل، ويمحو بجزوته الباطل،
ويكتب الحق. يا أحباب.. قد عيننا الأمير مقهور المثقي، ابن سكينه
بنت عبد الله القروي، الهلالية، سليله الحسب والنسب، يرحمها الله،
قائداً عاماً للجيوش، تستوجب طاعته التي هي من طاعتنا وطاعة رب
العالمين.

سلام علينا في الدارين.. هذه الفانية وتلك التي نشم ريحها، وبئس
للكافرين والملحدين حتى تقوم الساعة.

الذي حدث بعد ذلك لم يكن أمراً هيناً أبداً، ولن يكون.
شاهدت الأمير عبّادي طلسم، يترنح في وقفته العريضة أمام الجند،
التقلاوي ديدام، يترنح أكثر وقد طار صقره بعيداً واهتز سيفه في
الغمدة، آلة الكارور، تفح وحدها مصدرة صغيراً متقطعاً، بعد أن ضم
حلق جبار القرنين وتصلب، وكان النجوم تساقطت من زي مشرف
الغسيل برهاني، حيث بدا لي مجرد جندي عادي، بلا زي مميز ولا
صلاحيات ولا حتى هيئة تاجر فولاني يتسلى في معسكرات الحرب.
كان المجندون في حالة ذعر غريبة، يقفون تارة ويجلسون تارة أخرى،
ويحكون رؤوسهم أو أرجلهم، ولا بد تذكروا قبراً منسياً لمرتد، حفروه
بسواعدهم، ودفنوا في نسيانه أثمان ولد مهووس، ولا بد تذكروا كلاماً
كثيراً قالوه أو استياء بلا حصر استاءوا به، أو ضحكات أطلقوها شماتة
وسخرية.. أضاء أحدهم فوانيس الساحة كلها، والشمس مشرقة في

كامل الضياء، وبدأ الذي عليه دور الآذان في ذلك اليوم يتحنح، ليؤذن للظهر، والظهر ما زال بعيداً. وحده الثبات كان مرسوماً على وقفة أولئك النازحين الجدد، ممن فهموا لغة الكارور وخرجوا من خيامهم، الذين لم يسمعوأ أبداً بولد مجنون اسمه مقهور، يعين الآن قائداً عاماً للجيوش مقروناً بأبوة القائد الرمز، وأمومة سكيئة بنت عبد الله الهلالية، ذات الحسب والنسب.. يرحمها الله.

الذي حدث لم يكن أمراً هيئاً، ولن يكون كذلك، وفي خيام رامبي الأقواس والنبال، ذكريات اقتلعت وأهينت، وبجوار قبر السفية ولهان، قبر رمزي مهان تتمخط عليه الأنوف وتطارده الأفواه بالبصاق، وداخل بيت الغسيل سيئ السمعة، عناكب وجردان وضافدع لئيمة رضعت من دم المتقي وارتوت. وما زالت آثار جبريل لالو حين كان وتداً منغرساً أو سطلاً ممتلئاً بالعقاب موجودة في تلك الساحة. كنا نتراكم كالحجائين، بما فينا قادتنا الذين لم نر ركضهم أبداً من قبل، حفرنا القبر الرمزي بسرعة غريبة، استخرجنا رماد هلاهيل أكلتها الأرض، أعدناها إلى المعسكر معززة مكربة، ملفوفة في قماش أخضر مرقع، والأيدي تلتقفها في جنون، محاولة امتصاص بركة لا بد توجد فيها، أزلنا آثار المخاط والبصق بأيدينا العارية، ورششنا رائحة المسك المخلوط بالصندل بكثافة، وبدأ البعض يرددون نشيد النونوة المجلجل أمام القبر، ولا كانت توجد نشوة كاملة أو ناقصة تستوجب ترديد ذلك النشيد.

كان الشهيد سماهيل الشكري، صاحب الجرح النزق الذي لا يبرأ، في لحظة حمى ورعشة جديديتين، حين دخلنا خيمة الشهداء، لعنه كل من استطاع أن يضفر لعنة، أو يمتلك لساناً وعراً في تلك اللحظة، كافر وزنديق، ولا يمت للشهادة بصلة، ولا يستحق أولئك الحوريات

اللائي كان يعاشرهن طوال تلك المدة، جرح المسكين من ارتعاشه ولحظة النشوة تقترب، ليحل ملطخاً بالعار والصفعات، في إحدى الغرف الجديدة التي أنشئت من الشوك، في بيت الغسيل، وتحت إشراف الصبيين الملعونين الذين انتقامهما برهاني ليساعده في مهمته، بعد أن تضاعف الشر بقدوم النازحين.. كنت بجانب المصّاص، حين أزيل جريحه بتلك الفظاظة، وأغلقت خيمة الشهداء مؤقتاً، حتى يدخلها شهيد حقيقي، رأيت المصّاص يفتح فمه ويغلقه عدة مرات من دون صوت، أسنانه زرقاء عابسة، وجسده ضئيل جداً كأنه جسد مستلف، استعاره من طفل.

كنت أراجع ذكرياتي الشخصية مع مقهور في هلع وأنا أقف مترنحاً في وسط الساحة، بعد أن انتهى أمر سمائل. تلك الذكريات التي تكوّنت حين كنت أشرف على إصلاحه بأوامر من القائد، عثرت على نوافذ مشرقة في تلك الذكريات، ذلك حين منحته ثقي الكاملة ليتدثر بها ويطلب نصحي وإرشادي في أي وقت، وأيضاً على بقع معتمة ربما أضيع بسببها، ذلك حين نهيته عن لعق الأحلام البائسة، والالتفات إلى شؤون الجهاد، وابتأست بشدة. ورأيت (ناتف)، فرد سرية الموت الذي أرسل برفقة آخرين، لتقصي فرار مقهور وجلبه حياً أو ميتاً، يقترب مني.. كان صدغاه غائرين حتى العظم.. وجسده بلا مروءة.. ردد..

كنا نؤدي واجبنا يا سعد.. أليس كذلك؟

بعد ساعتين تقريباً، كان كل شيء قد انتهى. أعيدت سيرة مقهور المتقي، إلى مجتمع الكتيبة كاملة وأكثر من كاملة، سيرة رصدت الشجاعة والتفاني، والبراعة النادرة في القتال، بالرغم من أن قتالاً حقيقياً لم يكن قد نشب حتى ذلك الحين. سيرة تحدثت عن طيبة القلب، وحلاوة المعشر، والالتزام بتعاليم الجهاد كاملة من دون نقص،

وما كان خروجه من الكتيبة في ذلك اليوم، فراراً من الجهاد أو تحت تأثير لوثة عقلية، ولكن تلبية لصوت الرؤيا الذي ناداه، وألح عليه في السنداء، وما طعن ذلك الحارس الزنديق الذي حاول إعاقته عن التلبية، إلا لأنه رأى فيه وجه كافر مرتد يستحق الطعن.

ذهب رسول المتقي الصبي، ذو الصوت المتعرج، حاملاً الرد بالسمع والطاعة لأوامر سيدنا المتقي ولقائد جيشه الجديد، واجتهد جبار القرنين في خيمته، محاولاً أن ينظم قصيدة يرددها في مدح مقهور المتقي كما أشاع وسط الجنود، وتصبح جزءاً من إرث الكتيبة وربما من أناشيد الثورة كلها، وظهرت في ذلك اليوم موهبة غريبة على أحد المجندين في سرية رامسي القوس والنبال، حيث كان مقهور في أحد الأيام، استعار ورقة ودواة من جبار القرنين، ورسم وجه مقهور محاطاً بهالات من نور.

لم يترك لي القائد طلسم، فرصة الانفراد بنفسي قليلاً في خيمتي، لأعد المكاسب والمخازي كلها، وأتبين موقعي جيداً تحت مفاجأة مقهور، أو اقتحم عزلة المصااص الذي أصبح عاطلاً ومعزولاً تماماً، بعد أن سرق مريضه الصديق كما كان يسميه، وطارت رعشات الحوريات التي كانت تؤنس وحشته كما أخبرني، ناداني مباشرة بعد أن انتهت المعمة الطارئة، وعاد الجنود إلى تعذيب طيف الحرب، أو ركوب إبلهم وحيادهم لمراقبة حدود المدينة بحثاً عن المتسللين الذين قد يفرون من الجيش الهالك ويقتربون، كما كلفوا.. كان وجهه أصفر، مضطراً بالأسى، وظهره قد انحنى قليلاً، معيداً إلى ذهني المتوعلك، ظهر الحمال القديم في سوق أبي جهل الشعبي. لم تكن مسبحة الصوفيين تراقص بين أصابعه كعادتها.. لكنّها خامدة تماماً على إصبعين خامدين.

- اجلس يا سعد.. هذا أمر.

وجلست منصاعاً للأمر الذي أُلغى وقفة التابع المتصلبة.
ساعتان بلا حوار بيننا، إلا ذلك الذي أقرأه في النحنحة وملامح
الوجه حين تتغير، مرة إلى جمر ومرة إلى صفاء نادر، ليردد في النهاية..
نفس الجملة التي ردها ناتف، فرد سرية الموت:
- كنا نؤدي واجبنا يا سعد.. أليس كذلك؟
- نعم يا سيدي.. بكل تأكيد.
مساء ذلك اليوم، لم يكن ثمة كابوس، لا صغير ولا كبير.. لأنه لم
يكن ثمة نوم في الخيمة الكبيرة التي يقطنها قائد لم يكن يقظاً بسبب
حلم مجهض في قيادة الجيوش فقط، ولكن بالخوف على قيادة قد تسقط
مغشياً عليها، إذا ما هزها مقهور المتقي.

- 3 -

بدأت الأخبار تأتينا تباعاً، ونحن الآن أولياء الأمر الوحيدون،
لأطراف مدينة السور وحراس لمداخلها الأربعة بعد أن ذهبت بقية
الكتائب للقتال بناء على تعليمات المتقي، يمشط الجنود المستنفرون تلك
الأطراف صباح مساء ويعودون بخيبة الأمل، فلا مرتد هالك فر من
موت الوغى وأتى ليموت موتاً أسوأ، ولا متسلل يحاول أن يلج المدينة،
لتكسر عنقه بواسطة أفراد سرية الموت، مكسري الأعناق، وقد أضيفت
عناصر فولانية جديدة إلى دم سرية جبارين، بعد زيارة قام بها القائد
للمدينة، وتبعته فيها. كانوا يشبهون القائد، ويشبهون جبريل لالو قائد
السرية، ويمكن أن يكونوا أوتاداً للغسيل وأسطالاً محتملة للعقاب،
ودالقي رعب غير محدود في أي وقت.

كان رسل المتقي الذي ما زال مقيماً في المدينة، ينتظر اللحظة
المناسبة للرحيل لاحقاً بجيوشه في مشوار فتحها، لا ينقطعون عن المحي،
يحملون رسائل النصر التي تصف جيش العدو بالشرازم، وجيش الجهاد
الذي يقوده الأمير مقهور، بالجيش الذي لا يقهر، قيل أن العدو يتقهقر
إلى السوراء، والنصر يطارده في القرى والأحراش التي يحتمي بها، وقيل
سيعود عدد من المنتصرين، يجرون خلفهم أسرى الإلحاد الذين سقطوا،
ليحرقوا علناً في مدينة السور عبرة لمن يعتبر، وقد كانت تلك الأخبار،
تشعل المجندين الذين صنفوا أنفسهم درجة أقل، تشعلهم بالغيرة، حين
كلفوا بحراسة المدينة، وحرموا من لقاء بنات الحور المشتات في ساحة

الوغي، وقد استعدوا لمن حتى بتنظيف الأسنان بعيدان الأراك الخضراء الطرية، وتضفير الكلام الغزلي الذي كانوا يتبادلونه همساً فيما بينهم، وقد تجرأ حنداق المحدر، قائد سرية الموت مرة، على إيقاف القائد أثناء مرورنا الذي أصبح يومياً على خيام الجند، وأماكن تعذيبهم للحرب.. قال. لست حارساً يا سيدي ولكني مقاتل موت سأقدم الكثير حين أشرك في الحرب، وكانت قفزة جبارة قفزها أمامنا، تكسر على أثرها الهواء المشبع بالقلق والتوتر. ونتيجة لذلك، استثنى حنداق شخصياً من البقاء في الكتيبة جهادياً مؤجلاً، سلمت قيادة سرية للمجاهد ناتف الذي كان ما يزال مشوشاً في أمر مقهور، وأرسل إلى الوغي فرحاً ونشطاً، ويردد نشيد النونوة المجلجل، حتى خرج عن نطاق الرؤية على ظهر حصانه القوي.

كان الجريح سماهيل الشكري ما يزال مقيماً داخل بيت الغسيل، لم تخرج جثته التي كان الجميع يتوقعون خروجها في يوم من الأيام وجهزوا لها القبر الضيق المتسخ، وكل توابعه المقرفة، ولا أحد يعرف ماذا يدور بالداخل وما هي أخبار جرحه النزق، وحورياته اللائي كان يعاشرهن في لذة الحمى، وبرهاني لا يفصح، والصبيان اللذان عيّنهما لغسيله، لا يفصحان، ولكن تبدو على وجهيهما آثار سعادة كبيرة حين ألحهما أحياناً يتمشيان في المعسكر، أو يتسليان خارج نطاق الغسيل، بنصب فخاخ للصيد قرب المعسكر، ولا صيد أبداً في ذلك البؤس.

كان المجندون داخل الكتيبة، ينتظرون أولئك الأسرى الزنادقة الذين وصفوا في الرسائل المتعاقبة على آخر من الجمر، جهزوا لهم البصاق الذي سيصقونه، المخاط الذي سيتمخطون به عليهم، وأيضاً قبوراً ضيقة ممتلئة بالحصى والقار وبراز العناكب، بالقرب من قبر

السفيه ولهان، إذا ما منحوا فرصة إبادةهم داخل المعسكر، وليس في المدينة التي يحكمها الموت الكبير.

لم أكن شخصياً مؤقناً من تلك الأخبار، ولا تذوقتها بحلاوة كما تذوقها الآخرون، لكنني احتفظت بتذوقي في سري، وكنت على يقين من أن الحكومة لو أرسلت جيشاً بالفعل، ويقالته الجهاديون الآن، فلن يكون جيشاً هيناً يسمح لواحد مثل حنداق المجدد أو غيره أن يتلوى ويكسر الأعناق بتلك البساطة، ولكن لا بد من مدافع ثقيلة ورصاص حي، ومفخخات من المعدن الصلب، ترسل النار، وتتكرر على معدنها السهام. وكان أكثر ما يقلقني أن توصف مدينة السور في خطط العسكريين الحكوميين، بالمدينة (صفر)، ذلك المصطلح الذي قرأته مرة في كتاب فاسكو العسكري، حين استعرت نسخته من القائد عرديب أيام إرهابات الغزو، ويعني المدينة الميتة، أو المدينة التي لن ينجو من نارها أحد حين تطأها أقدام الجيش المحارب، ويعتبر ساكنوها كلهم أعداء حتى لو لم يكونوا كذلك.. قد تسلم البيوت ولا تحرق، تسلم المباني، ولا تهدم، ولكن لا يسلم أحد. كانت حملة ما تزال بنفسجي وحموري، وتقسيم في بيت مجهول داخل المدينة ولا أريد أن تضع في الصفر.. إذا ما اعتمد خطة لدى الحكوميين.

في أحد الأيام زارنا الأمير مقهور المتقي، وكانت مفاجأة لا أعرف إن كانت سارة أم مميتة، ولم يكن أحد، قائد أو جندي يتوقعها، والجميع يعلم إنه يقود الثورة في مستنقعات بعيدة، يوجه الجنود ويخطط لهم، ولم يجرؤ أحد حتى في السر، على سؤال نفسه عن تلك الطريقة التي وصل بها إلى المتقي وأثبت بنوته التي صيرته قائداً كبيراً وهو في عرف القادة الكبار، مجرد صبي. دخل المعسكر بغتة برفقة عشرات المثلثين في أحد النهارات، لم يعط فرصة للكارور أن يفح ويجمع الجنود

لاستقباله، وللقائد أن يرتدي زهده المرقع جيداً ويستقبله، وللتقلاوي أن يرتسم لوحة فيها صقر وسيف، وجدته أمامي وسط ساحة الخيام هكذا فجأة وتجمدت، وازداد رعبي حين شاهدت خلف موكبه، رجالاً بيضاً وسمراً، وعرة الصدور، مضفرين بحبال غليظة من سعف الدوم حول أعناقهم، على أجسادهم آثار دم، وفي وجوههم هلع لا بد ارتسم يوماً ورافقهم طوال أيام الطريق. لم يكن هو مقهور القدم الذي دفنا سيرته في قبر النسيان بلا شك، ولكن مقهوراً آخر، أخضر، ومرقعاً، على رأسه طاقة خضراء أيضاً، في خصريه سيفان فضيان يجمعان ضوء الشمس ويعكسانه على العيون، وعلى وجهه تصاميم محارب مختل. لم يقل سلاماً.. ولم يسأل حتى عن القائد الذي كان راكداً في خيمته يجتر أحلامه المجهضة، ويتلاعب بمسبحة الصوفيين، قفز من فرسه برعونة، وقفز المثلثون كذلك، كان وجهه قريباً مني في تلك اللحظة، ولساني تحرك يود أن يضافح لسانه، لكنه التوى بعيداً.. خب إلى خيام الإيواء البعيدة نسبياً عن المعسكر حماية للعورات، وأسهرت إلى القائد الذي هب راكضاً، وركضنا جميعاً بما فينا التقلاوي الذي ظهر تلك اللحظة، وجبار القرنين أيضاً والقائمقام برهاني الذي لا بد شم رائحة عقاب في الجو وخرج من بيته، كنا نتبع خبه بمسقة ونردد.. أعز الله الأمير.. أكرم الله الأمير. كان ينكش الخيام الصفراء خيمة خيمة، يهز رجلاً راقداً أو متكئاً بعنف، يزيع امرأة تطلعه فضولاً، بخشونة، ويمد خطواته، يرفعها إلى أعلى، حتى يتخطى طفلاً يعيقها. ويبدو أنه عثر أخيراً على ما كان يبحث عنه في خيمة ضيقة كان ينحشر فيها أكثر من ستين رجلاً، يثرثرون أو يحتسون شراب العرديب المر، رأيناه يمسك بكتفين هزيلين لواحد من النازحين كان اسمه (نحيب)، ويلقبه النازحون من أتى معهم، بنحيب الأبيض، لأن جلده

كان في معظم مساحته أبيض وخالياً من الصبغة المعتادة. وكان من أكثر النازحين الذين تفاعلوا مع نداء الكارور وفهموا لغته، وكان في معظم الأحيان أول من يلتم على نداءه حين يفح منادياً على الجميع وآخر من ينصرف، حتى بعد أن ينصرف المجندون الرسميون. كان صوت مقهور قريباً من صوت المتقي في تغلغله الأسطوري، أو هكذا تخيلت، حين أخرج الأبيض من داخل الخيمة، وجره إلى وسط الساحة وهو يردد موجهاً حديثه إلى القائد..

- أنت تؤولي في معسكرك خائناً تطعمه من مال الثورة أيها الأمير.

- خائن؟

ردد القائد بصوت ليس قيادياً ولا فولانياً، ولكن صوت منهزم حقيقي..

- خائن؟.. كيف خائناً أعزك الله؟.. هذا نخب الأبيض.

لا صوت القيادة ولا صوت قبيلة الفولاني، لا وجه التقلاوي الصلد في تلك اللحظة، ولا حلق جبار القرنين القوي الضخم.

- هل تعرفه من قبل أيها الأمير؟.. هل كان من أهلك أو جنودك؟
أطرق القائد.. ولم يجب. فلم يكن في الحقيقة يعرفه قبل أن ينزح، ويقم في معسكر الإيواء الذي شيدناه للنازحين، ولا كان جندياً ولا فولانياً من أهله، ولا يعرف قبيلة يمكن أن ينسب إليها في تلك اللحظة.

- إنسه التركيبي الزنديق سردار.. أكبر الخونة في حكومة المشركين.. دسوه أولاً في الريف وسط المزارعين، ثم نزح معهم إلى كتيبنتك. وكان يزعم التغفل أكثر حتى مدينة السور، ويخطط لاغتيال سيدنا وإمامنا المتقي.

كنا نهدر برغم الارتباك، وبدأ لي هديراً ضعيفاً لا يرقى إلى المستوى..

أعزه الله.. أكرمه الله.. أطال عمره.

كان نص أباخيت في تلك اللحظة قد خرج أكثر عن السيطرة بلا شك، تحول إلى نص مختل وشره ذي أسنان حادة. لم تكن ملامح نجيب الأبيض الذي كان مرقعاً بمرض (السهبه) الذي يشوه الجلد وينتشر بكثرة في البلاد، ملامح تركي أبداً، ولا دلت لهجته التي سمعتها مراراً تنضفر في أحاديث كثيرة عن الزراعة والرعي، وأمراض دودة القطن، وصدأ القمح واصفرار الذرة وهي نيئة، على أي غرابة أو التواء في اللسان يحيله إلى وطن غير الوطن الذي يعيش فيه، إضافة إلى وجود امرأة بين النازحين، كانت امرأته، وعيال صغار، كانوا عياله.. متى دس في وسط المزارعين، والثورة ما زالت حديثة لا يتعد عمرها في تقديري الثلاثة أعوام منذ بدأت نصاً مغموراً أو هامساً في قرية أباخيت؟.. كيف يخطط لاغتيال المثقي ولا أحد يعرف من المثقي أصلاً؟. أبصرت النازحين يتجمعون، والعجوز جناحان - طللحان الأنثى، تتوكأ خارجة من تدفئة الكانون، والشتاء ما زال بعيداً. أبصرتما تقترب من مقهور، تتأمله بكلل البصر واضعة يدها أعلى عينيها ولا أظنها عثرت على ضوء قلبي في وجهه الذي كان وجه مقاتل مختل فقد الكثير من ملاحظته السابقة.. وبالصوت المتور الذي يضفر الكلام بمشقة، سألت:

- من أنت يا صبي؟.. من أنت؟

هدرنا جميعاً في تلك اللحظة.. وكأن المدير كان مقيداً على ألسنتنا، ينتظر لحظة الإفراج عنه وكان هديراً مطعماً بالرعب، وقائد الجيش ابن قائد الجهاد يوصف صبياً في حضرتنا:
الأمير مقهور المثقي.. أعزه الله وأكرمه.

لم يعن ذلك للعجوز شيئاً، ولا تغير صوتها المكسر أبداً وكانت واحدة من الذين سألوا من قبل عن معنى الكفر، والدين موجود في كل شبر من الأرض، وأولياء الله بهيبتهم وجلالهم، يحرسون الناس، عن معنى الظلم والبلاد كلها خير، والخريف لا ينقطع إلا نادراً:

- ماذا تريدون من الأبيض ولد كنانة؟

لم يرد عليها مقهور الذي كان متصلاً وجافاً، ولا رد أحد آخر، ولا استطاعت تضفير سؤال جديد، لأن المثلثين حملوها عن الأرض بغتة، ركضوا بها إلى خيمة الإيواء التي خرجت منها، وهم يكتمون حلقة الذي يضح الكلام، وعادوا ليمسكوا بالأبيض الذي كان مذعوراً، وبائساً ومتسارع الأنفاس، يتلفت في جنون، يبحث عن النصر في وجهي ووجه القائد طلسم، ووجه التقلاوي، وأي وجه آخر يعتقد وجه ناصر، ولا يعثر.. جرحوه إلى آخر صف الأسرى المقيدين بحبال الدوم الغليظة، الملطخين بالعار والدم، حيث ربطوه، وكانت فرصة لتأملهم جيداً حين تحرك موكب الأمير مبتعداً، وحركوا خلفه بمساعدة سوط طويل جارح الأطراف يحمله أحد المثلثين، وليتني لم أفعّل، فقد عثرت في وسطهم على طلحان العجوز، تاجر أعلاف المواشي البدوي، والأب المهووس بالثورة، وصاحب السيدين الحكيمين.. الشعر الأبيض والفم الكهف، باكياً ومحطماً ويتنفس بلا أنفاس..

لقد طاش نص أباخيت بعيداً.. بعيداً جداً..

تغير الأمير عبّادي طلسم.

تغير كثيراً برغم قيامه بأعبائه كاملة في قيادة الكتبية، وتفقده للجند ساعة تمسكهم بريح الجنة، وتعذيبهم للحرب التي قوي طيفها بشدة، ورحيله المتكرر إلى المدينة، والعودة إما باسمّاً على حلقة يلوح نشيد النونوة، أو ملطخاً بجمر الوجه والعينين. فقدت كوايسه رونقها القدم بشدة، ظلت متمسكة بساحة الوغى وقتال المشركين، لكنّها لم تعد تتحدث كثيراً عن السلطة، وجز عنق المشرك الكبير، حاكم البلاد العام، أو تضخّ النعناع والبنفسج في لحظات الانكسار التي كانت بالنسبة لي تحلية، أتلذذ بطعمها، وأيضاً بارقة أمل أحس بها بأنني ما زلت حيّاً، وقریباً جداً من حميلة. وقد كنت في تلك الأيام أوأصل تعاطي البؤس الذي أصبح سمة من سمات الحياة، منذ ذلك اليوم الذي دخلت فيه خزي العين أنيقاً ومعطراً، اليوم الذي طارت فيه أغنية الحمام إلى أعلى ولم تحط أبداً، وتحول صوت الملكة الراحلة نديمة مشغول، إلى صوت حزين مغرق في التطرف وهي تصف ما أسمته ثورة الخراب. كان يقلقني بشدة، أن يتوقف القائد عن تذكر حميلة، ألا يصفها نعناعة القلب التي تقض مضجعه وتطير نومه، ألا يأمرها بالصلاح والتوقف عن المشي أثناء النوم، وجلب الحصى والرمل إلى فراشها، كانت تلك علامة سيئة بلا شك، تحاول أن تغطي على الأمل الذي أعيش عليه وأشعله بلمس الخاتم القريب من الأحشاء كلما

سنحت فرصة، وأرتعد بشدة حين أتخيلها ماتت بالحمى، أو مرض التخممة الكاذبة الذي أعرف تماماً إنه قد ينشط في أي لحظة ويلتهم الجميع، وقد كانت حميلة الآن بعيدة عن التخممة الحقيقية، ولم تبق لمة تخمة حقيقية في المدينة منذ زمن طويل. ولأن حميلة كانت في نظري حورية الحوريات، ولا يمكن أن تكون مجرد امرأة عادية وسط النساء المحبوسات في بيوت البؤس، ينتظرن الوطاء كسبيات، أو الرضوخ للزواج كما في حالتها مع الأمير طلسم، فقد جال بخاطري، إنها قد تكون هدفاً للولد المختل مقهور، ينتزعها من شهوة القائد ويلقي بها في شهوته المختلة، وقد بات الآن يحمل نص أباخيت على شفرة سيفيه اللامعين، يرمي به بعيداً.

كنت أرهف السمع حين تتضفر الكوايس الليلية، أعصابي تن وهي تطاردها من كابوس إلى كابوس، أصبح في سري، وفي نفاذ صبر.. اذكرها.. اذكر حميلة يا كابوس، والكابوس لا يستجيب، لا يندحر إلى جهة الشهوة والعواطف.. يرغمي في حضن التقوى، باعتبارها فتاة مليحة ذات فم من مرمر، وعينين من ليل داج، وضافائر من عسجد، وحضنا آمنا من تلف النفس.. يصرخ.. العياذ من تلف النفس.. العياذ من تلف النفس. أو يتوسل في ضراعة مخاطباً أبا حمزة سيدي، أن يعفو عن طلحان العجوز الذي فسر الريش المعلق أعلى باب الصفيح، وفسر عبارة القضاء والقدر الإيمانية وأثنى على الثورة كما لم يشن أحد. أن يعفو عن نجيب الأبيض لأنه ليس تركياً، ولا خائناً ولم يسمع بمصطلح الاغتيال إلا حين نطق أمام ذعره وكان في الواقع أبرصاً وهزلياً ووالداً لعدد من الصبيان. ينقطع الكابوس لحظة وتهيج أنفاسي.. سيندحر الآن.. سيذكرها بلا شك.. النعاعة. البنفسجية، الفتاة التي تمشي أثناء النوم، لكنه لا يذهب إلى تلك الجهة أبداً، وكان

ما جرى في الأيام الماضية، قد وضع عائقاً كبيراً ليس أمام يقظة القائد فقط، ولكن حتى أمام حلمه وكوابيسه. وحقيقة إن توسل القائد وضراعه للعفو عن مسكينين مثل طلحان ونحيب الأبيض، في لحظة الصدق كما قالت العجوز جناحان، قد بين لي جوانب رقيقة وخافية لم أكن قد لمستها وأنا أتبع ذلك الحمال الفولاني ذا الجسد العريض والصوت الكبير المجلجل والسوط الذي ينغرس في اللحم ويدميه.

لكن تلك الكوابيس الليلية المتوسلة، كانت في الواقع بلا معنى، فقد حملت الأخبار التي وردت من مدينة السور، وحملها الأعراب التجار هذه المرة، وهم يكون، إن الأسرى الذين وصموا زنادقة ومرتدين، وجاء بهم الأمير مقهور مضفرين إلى جبل الدوم الغليظ، قد ربطوا إلى جذوع الأشجار الميتة في وسط خراب مدينة السور، وتركوا للملثمين والرجرجة والأطفال الأشقياء، يتلاعبون بأرواحهم حتى فاضت. كان فيهم طلحان العجوز، ونحيب الأبيض، وآخرون لا يعرف أحد إن كانوا أسرى حرب حقيقيين، جمعوا من فئات جيش مندرح، أم مجرد نفوس بلا حظ، سقطت في فقرة مهلكة من فقرات نص أباخيت الرهيب..

لم أبك طلحان أبداً، ولا عادت ثمة دموع تكفي لبكاء أحد، فقط دمتان أوفرهما لأبكي بهما خميلة إن ماتت وسمعت بموتها، أو أبكي بهما نفسي، حين يأكلني النص، أو تنغرس أسنانه في لحمي ذات يوم. وقد أخبرني القائد وهو يدنو قريباً من أذني لأول مرة منذ عرفته وأشبعته جوعه بملاعنق الثريد وأقراص الذرة والقمح، وتبعته بعد ذلك، إنه حزين جداً لتلك الخسارات، لكنه ما لبث أن انتفض، ابتعد عن أذني في جلالة، تلوّنت عيناه بالجمر القديم.. وجهه بملامح الوعورة القديمة، وغدا صوته فولانياً خالصاً وهو يردد. إنها الثورة يا سعد المبروك..

الثورة التي ستغرس راياتها في كل شبر من الأرض ذات يوم.. من يسقط حبيباً فهو شهيد. ومن يسقط عدواً، فهو زنديق حتى لو كان البدوي طليحان أو أنا عبّادي طلسم قائد كتيبة صقور.. أو أنت.. خذ.. خذ.

يمد يده إلى جيبه العريض في ثوبه المرقّع، يستخرج قارورة المسك الصفراء، ينزع سدادة الذهبية، يرشها في وجهي. ويظهر التقلاوي وجبار العينين ومشرف الغسيل برهاني في تلك اللحظة، يؤيدون صياحه بالثناء على المتقي، وينالون نصيبهم من الريح الذي اعتمد مقدساً، ويسرف الجهاديون في استهلاكه.

في أحد الأيام خرجت سواعد سرية جبارين من بيت الغسيل، كانوا يحملون جسداً ملفوفاً بالخرق، وأسرعنا لتأمله، بينما ركض العديد من المجندين الذين شاهدوا المنظر، إلى حيث القبر الضيق الذي جهز للزنديق سماهيل، للتأكد من أنه ما زال محفوراً، وضيقاً وشرهاً لا ابتلاع الجسد الملعون، وقد مضت أكثر من ثلاثة أشهر على إلغاء الشهادة عن ذلك التعس، ووصمه مرتداً، لا يستحق تلك الرفاهية الكبيرة التي نالها وسط المسك والصندل وأجساد بنات الحور. وشراب الحميض الحلو المخلوط بالعسل الذي كان يقدم لعلية القوم فقط، بما فيهم الشهداء.

كان سماهيل راقداً على سواعد اثنين من أفراد السرية، جرحه النزق لم يتغير أبداً، لا عمقه ولا لونه ولا رائحته المميزة، ولا ذلك السائل الأصفر الذي ينز بلا انقطاع، وعد في أحد الأيام سائلاً مباركاً، حين هاجمه النازحون وتمسحوا به، وسألوه أن يهبهم الذرية. كان في تلك اللحظة في أوج الحمى برفقة واحدة اسمها (هنوس).. يرتعد.. يا هنوس.. ضمني.. يا هنوس.. قبليني، وقد همس المصاص

الذي وجدته فجأة خلف أذني، إنها تلك الجنية الحسناء التي ظهرت ذات ليلة في مضارب آل شكر البعيدة في البادية، حين كان سماهيل هنالك، ولطعت على صدر كل من شاهدها، في موضع القلب، وردة حمراء قبل أن تذهب، لكنه لم يكشف عن صدر الجريح أبداً من قبل ليعرف، ووجدت نفسي بلا وعي اقترب من التعس وهم يضعونه أمام خيمة القائد، أكشف عن الصدر الموارى خلف الخرق، ولا أثير على تلك الوردة الحمراء، ولكن آثار ضب الصحراء وقد حفرت عميقاً.

كان القائمقام برهاني، ومساعداه الجديدان، اللذان لم أكن أعرف اسميهما وأسميهما في سري، مقهور ومقهور كناية عن اختلالهما، يقفون صامتين أمام معجزة الجريح، وجوههم عابسة، وعيونهم متورمة، وثمة حيرة واضحة لا تخطئها أي عين ترسم على تلك الوجوه العابسة.. أخبرت القائد داخل الخيمة بالأمر، وخرج وأخبرت الثقلاني وجبار القرنين أيضاً، وجاءا خلفي يركضان.. وكانت وقفة علنية، ترك على أثرها المجددون انشغالهم بالحرب من دون حاجة لفحيح الكارور، وتجمعوا يتأملون ويستمعون وعاد أولئك الذين ذهبوا للتأكد من كفاءة القير، باسمين ومهللين وقد تأكدوا من صلاحية القير وكفاءته لضم الجسد.

تحدث برهاني، وانتهت لأول مرة إن في صوته رنة دعر، ربما أكثر من تلك التي كانت في يوم ثبتت بنوة مقهور للمتقي، وعين قائداً للجيش. وقد كان دائماً ذا صوت غاشم بلا تكسر ولا عواطف. كان يقول مخاطباً الأمير طلسم:

- جربنا كل شيء يا سيدي.. ولم يشع منه النور أبداً ولا توجد أي دلائل بأنه سيشع يوماً.

لم يكن إشعاع النور الذي يقصده مشرف الغسيل برهاني، مفردات توبة يقرأها على الوجه أو اللسان، كما يحدث في شأن المغسولين العاديين ممن توردوا أو فروا وأعيدوا، أو الذين كانوا عالقين بثياب النصرانية أو البوذية أو غيرها من الديانات، كما حدث في حالتي، ولكنه نور آخر.. هو في الحقيقة نور الانطفاء أو نور الموت... فقد كان سماهيل غريباً لولد من صلب قائد الجهاد، وحاول منعه من تلبية النداء حين ناداه النداء ولا مجال له ليتذوق نور الحياة مرة أخرى، وقد عرفت بأنه لم يقتل علناً بالسيف، لأنه كان جريحاً، والتعاليم لا تسمح بقتل الجريح مباشرة ولكن بغسيهه حتى الموت.

- وماذا تقترحون يا قائمقام برهاني؟

سأله القائد، وقد بدا مثل الجميع، مدثراً بالحيرة الكبيرة، وأظنه كان خائفاً أن يصدر أي فتوى في ذلك الشأن الغريب، وتجري الآن تحت سمعه وبصره، ملحمة شهوانية فذة بطلها الجريح المعذب باللذة، وجنية اسمها قهنوس، ظهرت ذات يوم في مضارب آل شكر ولطعت على كل صدر ورده حمراء.

- لا شيء يا سيدي، ونترك الأمر لتقديركم.

كانت (تقديركم) تلك التي نطقها برهاني، ورطة كبيرة كما أحسست من ملامح القائد التي تبدلت مرات ومرات، وعينه اللتين بدأنا نتلونان بالجمر، وتعضان على الوجوه الملتمة أمام المشهد، في حرق علني لنظام الكتيبة لا يحدث إلا نادراً وأخاف أن تتوقفا عند وجهي لأكلف بأمر شاق لا أعرف كيف أنجزه، وفي داخلي جروح ربما أعمق كثيراً من جرح سماهيل، لكن العيون لا تراها.. عينا القائد تتفافزان، توقفتا للأسف عند وجهي وأسمع صوته يخاطبني:

- كنت فيما مضى نصرانياً يا سعد المبروك.. والنصارى يعرفون
بعض الأمور الدقيقة برغم كفرهم.. ما رأيك؟
- لم أعد نصرانياً ولا كافراً يا سيدي.

صحت في حماس مرتعب، وأعض على كل كلمة أخرجها، كل
شيء أحتمله في الدنيا ولا سيرة الكفر التي هي في الواقع سيرة الغسيل،
السيرة التي أخرجت بسببها طلحان العجوز من معسكر الكتيبة ذات
يوم، ليعود ميتاً في جيش مختل من المثلثين، والسيرة التي قد تهوي بسي
الآن إلى القاع، حتى لو داعبني بما قائدي الذي لا يجيد الدعابة.

- أعلم يا سعد.. أعلم.. فقط ما رأيك؟

بالطبع لا يملك التابع أي رأي، ويوجد التقلاوي المساعد بسيفه
وصقره وصوته الغليظ، وجبار القرنين عالم الخفايا ومنسق الأمور
السرية، وفي النهاية هو.. عبّادي طلسم الذي يستطيع نحر سماهيل الآن
أمام الجميع، من دون أن يؤاخذه أحد حتى لو كان ذلك ضد التعاليم،
لكن الأمر أكبر بكثير.. ولم يشاهد أحد أبداً من قبل، حتى ودعة
المصاص، صديق الجروح وآفات الأرض كلها، جرحاً بهذه الوسامة لا
تكبر ملامح ولا تصغر ولا ينقطع عن إفراز سائله الأصفر. لم يشاهد
أحد جريحاً يحيا لأكثر من خمسة أشهر داخل الحمى اللذيذة، ولأكثر
من ثلاثة أشهر في بيت أعد للموت ولا يموت.. المسألة كبيرة جداً،
لكني سأحدث متجاهلاً نظرات التقلاوي الغليظة التي تنهشني:

- أرسلوه إلى السور يا سيدي. ودعوا أمره للإمام المتقي.

هدر الجميع كما لو أن صاعقة هبطت..

أعزه الله.. أكرمه الله.

أحسست بتأنيب الضمير حين اقترحت ذلك الاقتراح، هناك في
السور لا توجد سيطرة حقيقية بالرغم من وجود قائد الثورة، وقد لا

تكون التعاليم واضحة، أو واضحة ولكن مغيبة بفعل سكر همجي،
يترنح به من شربوا نص أباخيت على هواهم، وبالتالي ربما يموت
سماهيل حتى قبل أن يصل أمره للمتقي.. لكن لن أدع ضميري يقتلني
ولم أكن مسئولاً عن شيء داخل النص من دون إذن من قائدي، وقد
مات حارس ساحة الرعي في الواقع، في ذلك اليوم الذي حاول فيه أن
يوقف الولد المهووس من الفرار.

في نفس تلك اللحظة، ومن مرقده أمام خيمة القائد على فراش
الجنبة تهنوس، حمل الجريح سماهيل، وضعوه على ظهر ناقة عريضة
من تلك التي تحمل المتاع وعدة الحرب أثناء السفر، وبرفقتة عدد من
المجندين، بقيادة ناتف، قائد سرية الموت الجديد، وانطلقوا إلى
السور، وكانوا يحملون رسالة من القائد كتبها بألفاظه الخاصة على
ورق أصفر، كجزء من وظيفتي، وتحكي سيرة الجرح منذ أن انفتح
في ساحة الرعي وحتى اللحظة التي خرج فيها من بيت الغسيل كما
دخله. لم تذكر أي مآثر لسماهيل كانت له قبل أن يوصم زنديقاً
ولا حتى أيام تفانيه في السقاية والحلب، وانتقاء الخراف التي تشبع
وإبعاد الخراف التي تصيب بالمغص ومرض الزفر، أو أيام استشهاده
في خسيمة الشهداء على فراش الحوريات، وتسكنت سيرة حياته
المخدوفة بين ساحة الرعي ساعة أن حاول إعاقاة الأمير مقهور، وبيت
الغسيل ولا شيء آخر.

كنت أشاهد الركب وهو يتعد خاباً في اتجاه السور، أفكر في
النبع الكبير الذي سمعت عنه كثيراً ولم أشاهده قط لكنني تخيلته،
وأيضاً في معجزة الجرح التي قطعاً ستهز بعض الشعرات في رأس
المتقي كما هزت شعر قادتنا كله، ذلك لو قدر لسماهيل أن يصل
حتى يراه المتقي ويحكم.

لكن ما أصابني بالدهشة حقاً ووضعني في حيرة لأيام طويلة، ما سمعته في اليوم التالي وأنا على خيام النازحين، أتأكد من طعامهم وشراهم، وفهمهم للثورة وإنهم يتبعون التعليمات بشأن إخراج الفضلات في الخلاء بعيداً عن المعسكر، وكانت مهمة كلّفت بها من قبل الأمير طلسم. أخبروني همساً، بأن معجزات السائل الأصفر الذي كان ينز من جرح سماهيل الشكري، قد بدأت تهل، فقد أحست ساتانة الريفية، بجنين حي يتحرك في بطنها، وكانت امرأة عاقراً لم تحمل أبداً في زواج دام أكثر من عشرة أعوام، أخبروني بأن الشاب سلماني الذي يبلغ التاسعة عشرة من العمر، قد تخلص من ريلته التي ولد بها إلى الأبد، وكانت تعيقه عن الحب والزواج وأن يمشي متبختراً في الريف كما يفعل أنداده، وسحبوني من يدي إلى ركن قصي في إحدى الخيام، لأهنئ العم شايح، أحد الرجال المعمرين، بعد أن حرك قدميه أخيراً، وعاد إلى المشي الذي انقطع عنه لأكثر من عشرين عاماً بعد عدة لطخات من السائل الأصفر، أحضروه له حين هاجموا الجريح.. كانوا يتضرعون في صمت، رافعين إلى السماء أياد شققها الجهد أو الزمن.

الفصل السادس

أسرار الليل

- 1 -

ودعة المصّاص في قمة النشوة، يصفرّ بسعادة، ويكاد يرقص طرباً وهو يردد لحناً بدوياً قديماً من ألحان آل بطاح الذين ينتمي إليهم، يقطعه بين حين وآخر، حين يرخي أذنيه ويتصنت لما يحدث في الخارج أو يضع يده على قلبه متحسناً هياج النبض.. لقد التقى حبيبته حنو، صبية الخمري البائسة بعد فراق طويل. وأكثر من ذلك، أهداها خاتماً فضياً بفواريص خضراء، عثر عليه في حطام مدينة السور، وربما يتزوجها قريباً، لو قدر له أنا يحيا ليتزوج، وقدر لها أن تكمل نسج ثوبها الجديد، الذي بدّأته بالفعل، في أول خطوة للتوبة التي اهتدت إليها أخيراً.

المكان، خيمة الشهداء التي افتتحت من جديد بعد أن رشت بالمسك وبخرت بالصندل وفرشت ببرش السعف الملون بألوان قوس قزح، واحتضنت شهيدها الجديد الذي كان في الواقع جريل لالو، قائد سرية جبّارين الفظ، وتد الغسيل الرهيب، وسطل العقاب المتحرك.

كنت في تلك الأمسية واقفاً متصلاً في خيمة القائد طلسم، أعيد رواية قصة أم جدائل ساكنة بئر الشياطين، والولد الفولاني عبد الخير الذي انتشلها وجرها إلى عش الزوجية، بعد أن عدّلت فيها قليلاً، ووصفت مشهد العرس المتخيل، وهو يقام بطقوس قبيلة الفولاني التي كنت أعرفها، وشهدت في السابق أعراساً فولانية كثيرة، طقوس رقصة (العرضة) التي تَهْتَك فيها الأرض بأقدام الشباب، وطقوس مناداة المطر،

وتبرك البنات العازبات بالعروس، حين يدلّقن علي وجهها العسل ويلحسّنه ويذهبن مطمئنات إلى أسرّتهن، يحلمن بالعريس الفارس الذي سيأتي لا محالة. كنت أردد في ثقة قول العجوز جناحان في تفسير الفرق بين مغص النساء ومغص الرجال.. واحد ينتهي بنزول الدم، والآخر يبدأ بنزوله.

كان القائد مغتبطاً بلا شك، تلاشت جلافته تماماً بالرغم من أن الأخبار الأخيرة التي جاء بها رسل المتقي، شددت على ضرورة إبقاء الاستعداد عالياً جداً، واحتمال وجود مئات الهالكين من جيش الحكومة، يتحاضرون قرب السور، بعد فرارهم من ساحة الوغى التي يسيطر عليها الثوار من نصر إلى نصر. كنت أتمنى أن يذكره مغص النساء الذي حرصت على ترديده أكثر من مرة، بذلك الصراع المعلق بيننا على أنثى هو يملكها جسداً وليس روحاً، وأنا أملكها روحاً وليس جسداً، أنثى نغاعة عنده وبنفسجية عندي.. لا فرق، لكن ذلك لا يحدث أبداً، يرفع يده العريضة، يضعها على جبينه العريض ويطلق مفكراً، ولا بد يتذكر مغصاً نسائياً كان في بيته ذات يوم ينتهي بنزول الدم، ذلك قبل أن يتبعثر قائداً لفرع من فروع الفوضى. لم أكن أملك الكثير من سيرة عبّادي طلسم، لا أعرف له زوجة ولا ولداً، ولم يكن في ذهني أكثر من ذلك الحمال الذي كان يحمل ثقافة السوق الشعبي على ظهره سنوات طويلة، في نهارات البيع والشراء، واختفى بعد ذلك ليعود أميراً. لم أشهد أمسياته ولا أعرف أين كان يقضيها، ولا كان صديقاً ولا عدواً، ولكن مجرد فرد في مدينة السور، قد احتاجه مرة ولا احتاجه مرات، وحتى ذلك التمرد الشهير الذي قام به الحمالون ذات مرة في السوق، بسبب ضعف أجورهم، واستفزاز المشترين لهم علناً، وتدخلنا كمسؤولين لإطفائه وإعادة الأمور إلى

نصايها، لم يكن طلسم لأمعاً فيه ولا شاهدته يهتف أو يحرض أو حتى يقف مستفزاً لنا أثناء المفاوضات، مثل آخرين وقفوا واستفزوا، ولا أنكر إن ظهوره كأمر في ثورة الجهاديين بعد ذلك أدهشني، لكن الدهشة تلاشت حين اقتربت من النار أكثر، ورأيت وقودها وموقديها. سألني بعد أن حرك عدة حبات من مسبحة الصوفيين بين أصابعه: - هل كان الزعيم أبو كلام موجوداً في عرس عبد الخير وأم عكش؟

كان يقصد زعيم قبيلة الفولاني الذي كان أول من بايع المتقي من زعماء القبائل، ويقيم الآن في السور كمستشار عرقي للإمام المتقي كما سمعنا، ولأن القصة كانت قديمة ونصفها مخترعاً، فقد فاجأني السؤال، ولا أعرف إن كان عبد الخير فولانياً أم لا.. صمت برهة وأنا أفكر، ثم قلت:

- لا يا سيدي.. لقد حدثت القصة أيام زعامة زكريا منجور. وقد كان زكريا منجور في الواقع، زعيماً تاريخياً لقبيلة الفولاني، ولن يستطيع القارئ سؤاله أبداً، ذلك لوفاته منذ سنوات طويلة، وإنه الآن مجرد سيرة في كتب التاريخ. هز رأسه باقتناع، ونهيات لتمزيق أحد ثيابه الخضراء الباهتة، للمرة العاشرة وترقيعه من جديد، لأن الكتيبة قد تؤمر في أي وقت بالتحرك والانضمام للجيش المقاتل، ويحتاج إلى الزهد المبالغ فيه، والذي قد لا تسنح الفرصة لتفصيله إذا ما بعثر الاستقرار، وانضممنا للنار.

فجأة اقتحمت الخيمة بواحد من سرية جبارين، كان اسمه (أبو البكور) وكان فيما مضى دجالاً مغموراً في مدينة السور لا يثق في تنبؤاته أحد، بالرغم من زهوه وغروره وادعائه بالإتيان بالمعجزات، وكان هو الذي قام بختناني الصعب الذي مت فيه وحييت بعد

انضمامي للكتيبة. اختفى فجأة مع الذين اختفوا من المدينة وظهر في
فقرة هامة من فقرات نص أباخيت، ليس دجالاً بالطبع ولكن فرداً
موقراً في سرية جبارين، حراس بيت الغسيل، وحراس المعسكر، ودالقي
الهدير المر حين يأتي وقت دلقه. كان أبو البكور لاهثاً وبصرخ في هلع:
- سقط الزعيم جبريل.. سقط الزعيم أيها القائد.

- هل لدغه ثعبان؟

كان الأمير يسأل مهتدياً بلا شك بتفاصيل لالو التي لن تسقط من
لدغ عقرب مهما كان غادراً، ولكن لا بد من آفة أشد فتكاً من
العقارب.

لكن الجندي لا يعرف، ويهز رأسه في حيرة، فقد وجدوه ملقى
على الأرض في أحد خيام السرية عرقاناً، ويهذى، وليس على جسده
آثار عض.. لا عض ثعبان ولا عض عقرب.

- وأين هو الآن؟

- في خيمة الشهداء أيها القائد.. برفقة المصّاص.

لم يكن أحد سوى القائد عبّادي طلسم، يملك صلاحية أن
يوصف أحد شهيداً، ويدخل إلى تلك الخيمة المميزة، حتى لو كان
شهيداً حقيقياً سقط في معركة الخير والشر، لكن جبريل لالو ليس أي
أحد، وسرية جبارين التي يتزعمها ليست أي سرية من السرايا المتعددة
في كتيبة متنافرة الأجناس والأعراق، فقد كانت تملك الدم الفولاني
الرهيب. وأعباؤها تفوق أعباء أي سرية أخرى حتى في استهلاك ربح
الجنة على أجسادها العريضة. تجاوز عن الأمر ونهض واقفاً، وتبعته إلى
الخارج وببيدي فانوس مرتعش يضيء قليلاً من ليل البراري. كانت
ساحة الخيام خامدة في ذلك الوقت، وقد التم الجميع في خيامهم،
يمارسون الرغبي أو الخفايا السرية أو يستدعون أحلام الحوريات

البعيدات، وربما يحسون بمغص لأنهم ليسوا في الحرب ولكن على هامشها.

وجدنا الخيمة قد أعيدت إلى سابق عهدها حين كان يشغلها سماهيل الشكري قبل أن يوصف مرتداً، ويرحل إلى بيت الفسيل، ثم إلى مدينة السور بعد ذلك.. رائحة المسك الكثيفة، رائحة بخور الصندل العابقة، وبرش السعف الملون بألوان قوس قزح، وكانت صناعة ذلك النوع من البروش، صناعة رائحة في مدينة السور قبل أن تتحطم، يغزلها النساء المدربات بفن، ويعنهن في ركن خاص في سوق أبي جهل القديم اسمه ركن النقش، كتف بسيط ولكن ذا جدوى.

كان جبريل لالو ممدداً على البرش السعفي الملون، جسده فائضاً بغزارة، وقدماه في التراب، يهذي برطانة بعضها مفهوم وبعضها مغلق تماماً في لغة أهله الفولانيين، ولكن قطعاً لم يكن على فراش حورية، لأن لا اسماً مؤثماً سمعته ينطق ولا لذة رأيتها تدلق. وكان المصّاص باركاً على قدميه بقربه وقد جرّده حتى من سراويل الدمور الثقيلة التي كان يرتديها، وغطى عورته المتصلبة بخرقة قديمة متسخة، كانت العورة تهرها بلا توقف وتزيحها أحياناً لتطل ببذاءة.. كان يفحص رأسه وصدره وعينيه وإبطيه وبطنه وما بين ساقيه، ويهز رأسه في حيرة، وحين انتهى.. نهض واقفاً وقال يخاطب القائد:

— إنهما الحمى الفاجرة يا سيدي.

لم يتذوق القائد ذلك الوصف كما بدا لي، حيث رأيت لسانه بممصص على شفثتي الغليظتين وملاحمه تمتعط وتتلون بالجرم، وما كان جبريل لالو فاجراً أبداً لتصبيه مثل تلك الحمى التي كنت أعرفها جيداً، وقد مات بها أحد أقاربي من قبل، وقيل أنها تنتقل بواسطة الوقوف

طويلاً تحت الشمس الحارقة أو الانحشار في الجحور الرطبة سيئة التهوية، وتؤدي لتصلب العضلات، لكن لا أحد يعرف لماذا سميت فاجرة، ولعلها لم تكن مرض جبريل الحقيقي، لكنّها وردت إلى ذهن المصّاص من إبحاء العورة التي تصلبت، وتقر الخرق القديمة مطلة برأسها بين حين وآخر. كان المصّاص سريعاً في التقاط الفطنة، وسريعاً في دلقها أمامنا حيث جاء التفلوي وجبار القرنين، وبرهاني، وبعض أفراد سرية جبارين:

- ليست خطيئة يا سيدي ولكنه اسم يطلق على هذه الحمى.
اسم فقط.

- وكيف أصابته؟

- لا أعرف يا سيدي.

- وما هو علاجها؟

سؤال بيّنت عينا المصّاص الضيقين المنفلتين، إنه لا يعرف إجابته بدقة، لكنه يجيب:

- بعض اللبخات النباتية يا سيدي.. سأجهزها حالاً.

كان قد مضى إلى كيس كبير في أحد أركان الخيمة، أخرج منه نباتات خضراء وصفراء وبلا لون، رشها بالماء بعد أن بصق عليه عدة بصقات لسزجة، وخلطها بطحين الذرة والثوم، وابتدأ يلصقها على مساحة الجسد كله، بما فيها العورة المتصلبة. والمريض يهذى ويتصلب أكثر.. ونطق أخيراً باسم امرأة، حمّنت إنما حوريتها التي جاءت في النهاية، وسيبدأ العراك اللذيذ الآن.. صرخ.. يا سعيرة.. يا سعيرة.. والتقط القائد الاسم، قال في أسي ونحن نخطو خارجين، لنترك المصّاص يعمل:

- إنه ينادي أمه سعيرة رحمها الله.. يا لطيف.

وكانت مناداة الموتى في عرف الجميع، علامة شؤم لم يكن القائد يسود سماعها أبداً، وما زال بحاجة لجبريل الذي يعتبره واحداً من أعظم محركي الحرب حين يدلق الهدير ويصرع.

في نفس تلك الليلة التي كانت من الليالي الداكنة، حيث غطت فيها السحب ضوء القمر، كان خبر الشهيد المتصلب في خيمة الشهداء، قد انتشر في المعسكر كله، تناقلته الألسنة، ووصل حتى خيام إيواء النازحين، حيث يقطن الريف المصغر بكل خيرته وشره، بكل جدواه وعدم جدواه، وفوجئ أفراد سرية جبارين الذين يجرسون الخيمة، ويجرسون حمى قائدهم التي صلبته، بالعشرات من أولئك النازحين بما فيهم نساء وأطفال، وشيوخ مسنون، يتكالبون عليهم في نشاط، طالبين التبرك بالحمى الجديدة، وما زالت ثمة حاجات لديهم لم تكتمل تليتها بعد أن ذهب سائل سماهيل الأصفر، واضطرت كتية الموت بقيادة ناتف، أن تشارك في الحراسة وأن تستخدم العصي، وتكسر الهواء أمامهم حتى يتفرقوا.

المصّاص منتعش، يصفر ويردد ألحان البدو الحماسية، بعد ثلاثة أيام من تولي مهمة الشهيد الجديد الذي خف تصلبه الآن في مواجهة لبخات النباتات، صارت مناداته لأمه سعيرة، أقل تردداً، وابتدأ يحس بطعم الحميض الحلو المخلوط بالعسل الذي يصبه المصّاص في حلقه عدة مرات في اليوم، يحرك لسانه ممصصاً للشفيتين الغليظتين، وأحياناً يترك اللسان خارج الفم، كأنه يطالب بالمزيد.

دخلت على المصّاص في حالة نشوته تلك، وظننتها في البداية، نشوة طبيب أحرق استطاع أن يخفف من حمى مريض، لكن الأمر كان مختلفاً، فقد كانت نشوة القلب المكوي حين التقى نصفه، ونشوة الجسد المحروم حين أطفأ حرمانه، وتفكك الغوامض شيئاً فشيئاً، في

ذلك الثناء المعطر الذي أغدغه أمامي على الزعيم جبريل لالو، الذي زوده بأسرار الليل كلها أثناء رعشة الحمى، وسمح له باستخدامها من دون أن يدري.

أسرار الليل؟.. أي ليل وأي أسرار تفعل كل ذلك، ماذا يحدث يا مصّاص.. ماذا يحدث يا صديق..

كانت سرية جبارين التي كلفت بالحراسة بعد فرار مقهور لحذف مفردة الفرار اللئيمة المنبوضة من مجتمع الكتيبة، قد زودت بما سمي بأسرار الليل، وهي عبارات أو جمل قصيرة، تتغير مرة في الشهر، وأشبه بالشفرات التي يسمح للذي يعرفها وينطقها أمام الحراس، بالمرور من دون سؤال أو جواب.. كانت في الواقع ثلاثة أسرار.. واحد يستخدم عند ساحة الرعي، يمنح بموجبه الحارس للذي ينطقه دابة يترحل بها، واحد عند أفراد سرية جبارين الذين يحيطون بالمعسكر، والأخير يسمح بالمرور في كل شبر من الأشبار التي يحكمها الجهاديون، وحتى إلى مخدع الإمام المتقي. وقد كانت تلك الأسرار تأتي لقادة الكتائب مكتوبة على ورق مختوم بختم الإمام المتقي، وتعمم على أفراد الحراسة أو المقاتلين الذي يتبعثرون في الليل، ويشمون خفاياه، ويمكن أن يفتكوا بكل من يعبر وليس في لسانه سر ليل، حتى لو كان أميراً أو واحداً من القادة الكبار.

من خيمة الشهداء، تلثم المصّاص بإتقان وخرج مستخدماً سر الليل، من ساحة الرعي، حصل على دابة مريجة عبارة عن فرس سريع الخطى، بسر الليل وفي المدينة ضاع في صدر حنّو حتى قرب الفجر، وأهداها الخاتم ذا الفواريص، مستخدماً السر الكبير بثبات، لم يظنه الحراس المثلثون أبداً، ثبات مغامر ضائع، وليس جهادي حقيقي ممسك بريح اللجنة ولم يعد إلا خوفاً من انحدار صحة جبريل مرة أخرى، وأن

يبحثوا عنه ولا يجدوه قريباً من صدر المريض. وقد أخبرني بأنه استخدم طريقة ابتكرها وسماها طريقة المصّاص في غسل السر، فبعد أن حصل على الأسرار كاملة، أراد محوها من هذيان المريض حتى لا تردد أمام القائد أو مساعد القائد، أو أي أحد آخر، عوده على الحميض الحلو المخلوط بالعسل، مقروناً بنشيد النونوة المجلجل، رشفة من الحميض، وفقرة من النشيد، رشفة.. وفقرة، حتى توارت الأسرار تماماً عن الهذيان، وحل محلها نشيد النونوة كاملاً، والذي أصبح يردد حتى من دون حميض.

كنت أستمع إلى المصّاص وأندesh، أتأمل جسده النحيل كأنه استعاره من طفل، وأقفز بذهني بعيداً إلى أغنية التعيسات في حي ونسة حين كادت تبكي.. لا تلم يا لائم.. نحن ذكرى حمائم..، وحنو الفتاة التي جاء بها الحمري من مصر زهرة، وأذبلتها غرائز السور، وأوقن تماماً إن القلب حين يعشق، قادر على تلوين المخازي، ويستطيع أن يكون حمامة بيضاء من حطام لن يكون إلا حطاماً. شكراً يا جبريل.. شكراً يا زعيم.. كان يردد ويدلق الحميض الحلو المخلوط بالعسل في حلق المريض المفتوح الذي يحمص ويردد النشيد.

لم يكن مناسباً أن أقفز إلى وعكتي الشخصية في تلك اللحظة، وأسأله عن حميلة، إن كان قد سمع عنها في ضياعه الأخير، وأعلم تماماً إنه كان ضياعاً موجهاً إلى هدف محدد وليس ضياعاً متخبطاً قد يتعثر بسواحدة مثل حميلة، لكن المصّاص يعرف قلبي، يصادق ذلك القلب من أيام بيت الغسيل الوعر، ودائماً ما يمنح صدره النحيل للعواصف مهما تجمعت وصرّت، ولا بد أنه قرأني في تلك اللحظة، لأنه أجاب في ثقة هامسة ولم أكن قد سألته ليرد:

- صاحبتك في بيت عاتكة يا سعد.. هي بلا شك.

- عاتكة؟

هتفت وقلبي يكاد يشق الصدر ويخرج، والخاتم مربوط بخيط الدوبارة في البطن، قريباً من الأحشاء يتكور ويرتفع بفعل غازات انفعالية شارك بها البطن بلا شك.. هي موجودة إذن بالرغم من اختفائها من كوايس القائد، لم تمت بالحمى أو التخممة الكاذبة أو أي مرض آخر لعين، ولم تؤخذ بأي شهوة مختلة إلى حيث لا يعثر عليها ضائع مثل المصّاص..

- عاتكة.. من عاتكة؟

أجن في تلك اللحظة.. وجبريل لالو، يشارك في توترتي.. يرتفع بنشيد النونوة أكثر مما ينبغي، يبعثره خارج الخيمة، ويمصمص الشفتين الفولانيين، بحثاً عن الطعم الحلو..

- إنها امرأة من إحدى قبائل الزنج، تؤوي في بيتها عدداً من النساء الجميلات، اللاتي بقين بعد غزو السور، ويغشاها القادة الكبار من حين لآخر، وقد عرفت البيت.. إنه في حي كاهير.. حيك القدم.

لم أسأله كيف عرف، والمصّاص في ليل الضياع يعرف، لكن عبارة امرأة الزنج التي نطقها أمامي، ذكرتني بالمزينة خليعة الحاكم الراحل، ولم أكن قد رأيتها أو سمعت بها منذ لمنا المدينة المصغرة، حشرناها في سرداب المجد غير الآمن، وجاءت لتتحشر. اعتبرتها وسخاً متراكماً أحرقه الجهاديون حين أحرقوا مريا توموس الهائمة، ورجائي صاحب الإصبع المفقود والكثيرين غيرهما، وليست غنيمة تلم وتسبي، وخفت أن تكون قد دخلت نص أباخيت هي الأخرى تحت اسم آخر، ووظيفة أخرى غير ضم النزوات لحاكم لم يكن عادلاً أبداً في حق جسده حين اتخذها خليعة. أخبرت المصّاص بتلك الذكرى القديمة ولم يكن يعرف أكثر مما قاله.. والواقع إنه لم يسمع بيوسف دامير إلا اسماً

يردده البدو أحياناً بلا لقب ولا مودة، لكنه الآن تحت أمري، وبأسرار الليل التي استخلصها من الهذيان، وغسلها بعد ذلك، كان مستعداً أن يمنحني فرصة أن أرافقه وأن أضيع، وربما أعثر على حبيبتي وأعانقها، وربما أموت..

- هل تذهب معي يا سعد المبروك؟ هل أنت مستعد؟..

يصفر لحنه البدوي بصوت لا ناعم ولا خشن، يضفر أغنية غير متزنة في شعر حنّو، وعينيها المشعّتين، ولا كان لها شعر يستحلب الغناء ولا تملك عينين مشعّتين، ولكن رماد أنثى قد احترقت بلا رحمة.. ذكرى حمّامة تصف الحياة بأنها ألعوبة والهوى مجرد أكذوبة، وتقع بعد ذلك في حب البدوي معالج السموم وعاجن اللبّخات.. ما أغرب ذلك.

- 2 -

- نحن عيال الدهماء.

وقفنا بحذر أمام ساحة الرعي التي سوّرت مؤخراً بالخشب المر المستخلص من أشجار التبلدي المعمرة، ثبت على فتحتها الوحيدة التي تسمح بالمرور، باب من الصفيح الصدئ كان أمامه حارسان شديدان، يحملان السيف والخربة، لا يتناوبان الحراسة فيما بينهما، ولكن يؤديانها معاً.. أحد الحارسين كان فولانياً اسمه (عطروب)، وضعوه على الساحة حين استشهد سماهيل في البداية بمعدية كانت قد وصفت مدية مرتد، والآخر كان حديث العهد بالساحة، أضيف في إجراء أخير يستهدف تعزيز الحراسة على ذلك المكان الحيوي.. حيث توجد قطعان الأكل والحليب بأنواعها، وتوجد دواب الحرب، ودواب المواصلات التي تحمل الجهاد وأيضاً تحمل المخازي إلى أي مكان.

كانت الليلة مقمرة تماماً، البدر مكتمل في ضيائه بلا سحب داكن يغطيه، والرؤيا تسمح بتعقب الطريق إلى المدينة من دون تعثر في الحفر، وكنت قد انتظرت في خيمتي الجرداء، حتى تضفر كابوس القائد الكبير، ارتقى هذه المرة في ساحة الوغى الملتهبة، وسمعتة يحارب بضراوة مردداً لأناشيد الحماس المجلجلة، ويئن أحياناً كأنما نال طعنة سيف أو ضربة رمح، ثم يستغفر ويعود مرة أخرى للمعركة. كان أحد الكوايس الشهيرة لديه، والطويلة في الواقع، سمعته عدة مرات وحسبت زمنه بدقة، وكان زمناً وافراً.. أربع أو خمس ساعات تكفي للضياع الذي

رسمه المصّاص، وأدخلني في رسمه من دون وعي، حين زين لي سكة الوصول إلى بيت عاتكة، أو سكة الوصول إلى حميلة التي أأمل أن أجدها، وأجدها بنفسجية وليست نعناعة كما كان يجدها القائد. انتزعت عبارة التابع الخضراء من أحد ثيابي وأخفيتُها في حفرة، حفرتها في أرض الخيمة، حتى لا تلمع في ضوء القمر فاضحة ضياعي، تأكّدت من وجود الخاتم الثمين على بطني قريباً من الأحشاء، لم يتزحزح، وتلثمت بقماش ثقيل من الدمور، وانتظرت أمام خيمتي أتلفت في رعب مخافة أن يلمحني أحد، حتى جاء المصّاص يمشي على مهل.. لحنه البدوي خافت على لسانه، والمعسكر نائم أو مستيقظ في حذر، يمارس الخفايا والأحلام المجهضة.

- من هناك؟

يصرخ عطروب الفولاني، حارس ساحة الرعي الجديد بصوت قبيلته المعروف ونحن نقرب من ظله وظل رفيقه، ومن السيفين الذين لمعا في ضوء القمر واستعدا لجز أي عنق يقترب بلا سر ليل.

- نحن عيال الدهماء..

ينطقها المصّاص بثبات غريب ومحير، كأنه تدرب على نطقها عشرات المرات، أو كأنها تحية ود لصديق ودود، وليست اختبار أعصاب قد يهلكه ويهلكني، والحارسان يتلقياها هكذا.. تحية ود عادية، يفتح على أثرها باب الصفيح، ونمنح بلا سؤال ولا جواب، جوادين فارهين عليهما سرجين مخمليين، ومزودان بالحوافر التي تحفر المشاق بلا تعب.. نخرج من ساحة الرعي.. راكبين مبجلين، أنا أرتجف، والمصّاص يغطي بثباته ارتجافي.. وأمام أفراد سرية جبارين الذين يحيطون بالمعسكر في استيقاظ مرعب بلا تشاؤم ولا جفون مرتخية.. يصرخ ثبات المصّاص:

- أبناء جعفر وجعفر.

من هو جعفر الأول؟، ومن هو جعفر الآخر.. ولماذا وضعنا واحداً من أسرار الليل الخطيرة، لا أعرف حقيقة، ولا ظننت المصّاص يعرف، ولكن يتبع هذيان جبريل لالو من دون أن يرهق ذهنه في التفكير، ونحن الآن آمنان وضائعان بالفعل، استلمنا سكة السور من دون أن نلتفت خلفنا، والقمر بأشعته الفاضحة لا يفضحنا، ولكن ينير لنا الطريق.

كان الطريق إلى مدخل بوار، أحد أهم مداخل المدينة، سهلاً للغاية، قطعه الجوادان السريعان في زمن قليل، كان بالتأكيد تلك اللحظات التي استراح فيها كابوس القائد من العراك، واستغفر. على مدخل بوار، كان يوجد عشرات المثلّمين المستيقظين حول نيران الطهي والقهوة، توجد عشرات السيوف، بعضها في أعمادها وبعضها ممدد على الأرض، كأنها ثعابين نائمة.. استيقظت، وهبت إلى الأيدي بمجرد أن اقتربت الحوافر، وسقط ظلانا على مجال الرؤية.

- من؟.. من هناك؟

وبشبات آخر أغرب من الثباتين الأولين، بل بقديمين لا تعرفان الرعشة مثل قدمي المنهارتين على ظهر الجواد، ترجل المصّاص عن فرسه، أحكم لثامه على الوجه، وضخ صوتاً مرعباً وكبيراً، كأنه استلفه هو الآخر من هذيان الزعيم جبريل، حين استلف أسرار الليل:

- الأواصر النواصر.

ودار المفتاح السحري في قفل النار من دون سؤال ولا جواب، وكنا الآن في داخل مدينة السور، ننتهك ليلها المضفر بالموت، شوارعها التي كلها عداً وتحفز، والسؤال يطرح بين خطوة وخطوة.. بين نار موقدة.. وحد سيف يلمع.. من؟.. من هناك؟

الأواصر النواصر.

هي غموض آخر لم أستطع أن أفكه.. وكلمة يرددنها المأمّرين
أيضاً من دون إرهاق.. الأواصر النواصر.. أعرف معنى أواصر المأمّرين
وأواصر القرى. نواصر المظلوم ونواصر الظالم.. ولكن أواصر من
ونواصر من، كنا أنا وهو، في تلك اللحظة؟. كنت أقترّب بفرسي من
المصّاص.. ألتصق به في ذعر محاولاً أن أحصل على القليل من ثباته،
أستحلفه أحياناً أن يلغي الضياع ويعود بي إلى بؤس المعسكر مرة
أخرى.. لا أريد حميلة يا ودعة.. لا أريد الموت يا صديق.. والمصّاص
يبدو هائلاً.. يخبطني على كتفي بيد شديدة النحول ولكن لا أثر
لرعيشة فيها.. اصبر يا سعد.. أثبت.. وأحاول أن أثبت.. أعد زمن
الكابوس المشتعل في الخيمة الكبيرة، أعرف أنه الآن يحمل سيفه ويقاقل
أعداءه ويصرعهم، وما زالت المعركة مستمرة والأعداء أكثر، وحتى
أولئك الذين قد يفرون من ساحة الوغى، كان الكابوس سيطاردهم..
أمامي وقت قد أرتوي فيه بالبنفسجية بعد زمن طويل من الحرمان..
لماذا أنا خائف؟.. أحاول الثبات.. أحاوله جاهداً.

في أحد الشوارع الكبيرة القريبة من مجلس المدينة القديم، واجهنا
مشهد غريب. كان حوالي خمسة رجال عراة الصدور، أجسادهم
مضمخة بالعرق، وسراويلهم ممزقة، يحملون جسداً مغطى بالخرق،
يمشون به في تعثر، وهم يرددون الشاء على المتقي، ليس في أصوات
متناغمة، ولكنها أصوات ذعر تسقط وتنهض.. كان ثمة عدد من
الملثمين، يحملون الخراب والسيوف يتبعونهم، وثمرّة رائحة مألوفة شمتها
مراراً، ولا أستطيع أن أخطئها.. رائحة جرح وسيم ونزق.. التصفت
بالمصّاص.. ضربته على ظهره.. وأسمعه يخاطبني هامساً:

- إنهم يحملون سماهيل الشكري؟

- سماهيل الشكري؟

- نعم.. لقد غسل في النبع الكبير لأيام طويلة، ولم يشع منه النور.. والآن أضيف إلى مواد الغسيل كجزء من العقاب تماماً كالعناكب والجردان والضفادع المسعورة، حيث يحمله المغسولون في الليل، يطوفون به الشوارع حتى الفجر، ويعودون به إلى النبع الكبير.

كانت فقرة غريبة جداً بلا شك، في ذلك النص الغريب من بدايته وحتى هذه اللحظة التي نقف فيها ضائعين لا نعرف إن كنا سنصل إلى غاية أم لا، أن يستشهد أحد ويمنح البركة والذرية لمن أرادها، وأن يرتد وأن لا يموت ولا يبرأ جرحه، وأن يتحول في النهاية إلى فقرة عقاب أبدية.. راع الأغنام من قبيلة آل شكر.. هل هو حقاً راع أغنام من قبيلة آل شكر؟ أم وهماً ظنناه حقيقة وهو مجرد وهم؟ لا يمنحني المصّاص أكثر.. ولا يعرف أكثر.. وينطق بمفتاح النار أمام الحراس المثلّمين الذين يتبعون العقاب بلا أي إحساس بأنهم يتبعون معجزة:

الأواصر النواصر.

خرجنا من وسط المدينة قرب خزي العين القديم بالأواصر النواصر، سرنا طويلاً بتلك الأواصر والنواصر، وحين دخلنا حي كاهير أخيراً، خفق قلبي بشدة، كان بيتي الذي ولدت وعشت فيه موجوداً ولكن حطام بيت، نوافذه محطمة، وتلك الحديقة التي كانت جزءاً من مهام مريا توموس الهائمة، تسقيها وترعاها حين تخرج من مطبخها، مجرد أرض بور بلا ورد ولا نجيل.. هناك كان بيت حميلة وبيت يوسف دامير، وبيوت الثراء التي ما توقعت يوماً أن تموت ويموت سكانها.. وفي اللحظة التي أتخيل فيها الكابوس القيادي قد أسر زنديقاً حاول الفرار، ويربطه الآن بالحبال تمهيداً لإرساله إلى حتفه في مدينة السور، كنا أمام بيت واسع، كان فيما مضى ملكاً لقبطي من تجار التحف التذكارية، اسمه جرجاس، وكان وحيداً وأعزباً، ومحاطاً بعلامات استفهام كثيرة

عن سيرته التي ترد نادراً على السنة الآباء والأمهات.. سيرة تحذيرية..
ألا تقترب من ذلك البيت أبداً. وحين كبرت وتعلمت الحياة وعرفت
معنى أن تكون ثرياً وناهماً، ومرصعاً بالخواتم الذهبية في أصابع يديك
ولا زوجة أو ولد، استدعيت علامات الاستفهام تلك وفسرتها جيداً.
لم يكن جرجاس موجوداً في السور ساعة غزوها، كان في رحلة إلى
مصر التي يزورها مرة في العام لطلب الحديد من تجارته راكباً سكة
القوافل، وأخاله قد نفذ من فقرة مهلكة في نص أبايحيت، لم يكن
ليفلت منها لو كان موجوداً. أمام الباب كان يقف ماردان أسودان،
لهما ملامح عقريين سامين، ولكن تتأرجح صفائر نسوية على
ظهريهما. كان حصيان بلا شك، ولا أعرف من أين جاء، ولم يكن
في مدينة السور ولا ضواحيها، حضور لتلك السلسلة أبداً من قبل،
وكانت ثمة كتابة أعلى الباب، بخط ركيك.. بيت الأم عاتكة.. أثنوا
على الإمام المتقي.

صرخ المصّاص ونحن نترجل عن جوادينا، في مواجهة الخصيين..
الأواصر النواصر..

ثم بسرعة شديدة، ردد:

أعز الله المتقي.. أكرمه الله.

لم ينطق أي من الماردين حرفاً واحداً، ولا تغيرت ملامح العقارب
السامة على وجهيهما، مد أحدهما يده إلى الباب وفتحه، وكدت
أسقط من الانفعال.. هل من الممكن أن تكون حميلة جماري البنفسجية
أو النعناع، على بعد ست أو سبع خطوات من هنا؟.. هل من الممكن
أن نتعانق ونبكي ونستعيد قليلاً من الحياة القديمة؟.. هل من الممكن أن
نسمي ولداً.. أن نسمي بنتاً.. هل؟.. وأتذكر في تلك اللحظة ما لم
أضع حسابه أبداً وأنا أتبع ضياع المصّاص من دون وعي، ماذا لو وشت

بي صاحبة البيت، الأم عاتكة للقائد طلسم حين يأتي؟.. وما الذي
سيحدث بعد ذلك؟

لا تفكر يا سعد.. لا تفكر.

خبط المصّاص على كتفي وهو يسحبني للداخل.. أجل التفكير
الآن.. ثم رفع صوته الجديد الهادر:
- يا أمي يا عاتكة.

- 3 -

كنا في صالة مرتبة بعناية، مفروشة ببساط مخملي مزخرف، وقد رصّت عليها مقاعد من الخشب اللامع، وطاولات نحاسية، مغطاة بوبر الإبل، بدت لي كأنها مقاعد وطاولات حزبي العين القديم، لكنني لم أكن واثقاً، وكانت توجد عدة فوانيس ذات ضوء خافت ومتراقص موزعة في نسق جمالي، بدت لي أيضاً كأنها فوانيس حزبي العين، وكان بخور الصندل عابقاً بشدة، ورائحة النساء أيضاً عابقة ولا وجود لرائحة المسك التي هي ريح الجنة.. لم يكن المكان شبيهاً بحطام المدينة التي عبرناها للتو، ولكن بقعة عامرة قصد لها قطعاً، أن تكون بقعة مبهجة ترتاح فيها الأرواح الكبيرة. تنفست بقليل من الارتياح حين ظهرت الأم عاتكة، خارجة من أحد الممرات الضيقة في ذلك البيت الكبير الممتلئ بكثير من علامات الاستفهام، لم تكن المزينة، خليعة الحاكم الراحل يوسف دامير، ذات الجسد المترهل والعطر النحاسي المدبوغ في الجلد، ولا تشبهها إلا في ظلام الوجه الزنجي، وكانت في الواقع امرأة في مقتبل العمر، في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين، نحيفة وجميلة وناعمة، وذات ابتسامة جذابة، استطعت أن ألم بها كاملة واستبشر بها، برغم الضوء الشحيح والخوف الكبير الذي يعصف بقلبي. لم تكن قطعاً تعرفني، ولا بدت لي تعرف المصّاص، لأنها توقفت على بعد خطوات منا، وخرج منها صوت أشبه بتغريد عصفور:

- ماذا لديكم يا أحباب؟

لم تقل كيف جئتم إلى هنا، وتعرف تماماً إننا أواصر ونواصر،
جئنا بسر الليل الكبير الذي لا يملكه أي شخص عادي، ولكن سر
الليل في الواقع مشئت عند مئات، بل آلاف المجندين الذين يحرسون
خفايا الليل، ويشمون الطرق والسراديب، وربما يفر به أحدهم من
موقع حراسته ويأتي راكضاً خلف الأحلام.. لا يهم.. ذلك ما قرأته
على وجه امرأة الزنج الجميلة، الأم التي في الواقع يمكن أن تصنف
واحدة من حوريات الأرض، تماماً كما صنفت الملكة الراحلة نديمة
مشغول، ويمكن أن تزف إلى تابع يساومه قائده على غنيمة يملكها
روحاً.

- ماذا لديكم يا أحباب؟

المصّاص يتلقف سؤالها، وبشباته الذي حيرني منذ أن انطلقت
ضائعاً خلفه من معسكر كتيبة صقور.. عيال الدهماء أولاً.. أبناء جعفر
وجعفر، ثم الأواصر والنواصر، يرد:

- نبحث عن الأخت حميلة.. لدينا رسالة لها.

- حميلة.. حميلة..

بدت الأم متفاجئة بشدة من الاسم، وأحسست باليأس حامضاً مرّاً
على صدري، ولا يمكن أن يغيب اسم كهذا عن ذاكرة امرأة تؤوي عدد
من الجميلات الغنائم، في بيت لا يسع أكثر من عشرة أو عشرين منهن..
يدها اليمنى تحك رأسها الملفوف بقماش وردي نفرت منه الخيوط، ولا
يبدو أنها تثر على شيء.. وبصوت العصفور المغرد في حلقها ترد:

- ليست هنا..

قالتها، واستدارت نحو المر الذي جاءت منه، كأنها تنهي غزوتنا
المكلفة، تعدمها في لحظة، وما زال في حلقي عطش.. وفي قلبي نبض
مهتاج، وكابوس القائد في الخيمة الكبيرة، في وقت حرج بلا شك،

ويمكن أن ينتهي في أي لحظة. تلك اللحظة أمسكت باستدارتها قبل أن تكتمل.. نطقت بتفاصيل لم يكن يعرفها المصّاص قطعاً، ولا أردته أن يعرفها لولا الضرورة.. وبدا متفاجئاً جداً حين سمعها من لساني، كنت لاهثاً وأنا أردد:

- الفتاة التي تمشي أثناء النوم يا أم.. التي تفرش سريرها بالحصى والرمل.. التي تطيل أظافرها، وتخربش بها الحيطان.

توقفت امرأة الزنج عن إكمال طردنا الذي بدأته حين استدارت بعيداً، عادت بوجهها مرة أخرى إلينا، وكانت باسمه، لكن ابتسامتها لا تضارع ابتسامتي التي خرجت من وسط الارتباك:

- تقصد النعناعه.

- نعم النعناعه.

صحت في جنون وقد أمسكتها بلا شك.. النعناعه.. لا بد أنه الاسم الذي تحمله خميلة جماري عند الأم عاتكة، وداخل نص أباخيت تماماً كما أحمل اسم سعد المبروك. اسم الكابوس وليس اسم دارسة علم الجمال التي عادت من مصر لترهو بذلك العلم في مدينة لم تسمع به، لتحبني وأحبها في نادي يوتوبيا المزركش. لنزخرف أيامنا ونشتري أرضاً سنبيها في حي (نسمة) الجديد. ويبدو المصّاص متفاجئاً أكثر، وتلك تفاصيل لا يعرفها أبداً، وما كان سيعرفها لولا الضرورة.. كنت أحس بأنني اقتربت من النهاية الأولى، النهاية الممتعة حتى لو كانت متعة دقائق معدودة، ولا يهم في تلك اللحظة أن تكون ثمة نهاية أخرى، في بيت برهاني الوعر، أو في النيع الكبير، أو تحت شفرة سيف من سيوف الموت المسلولة في كل مكان.. لا يسألني المصّاص شيئاً، لكن عينيه تسألان، ولا أجييهما، سأترك حوريتي تحيب بنفسها، حين تخرج من أحد تلك الممرات المظلمة، وأعيد لها حبي القدم، متبوعاً بخاتم

الفواريص غالي الثمن. هو عثر على حنّو صبية الخمري، في بداية توبتها وأهداها حبه وخاتمه الفضي، ويأتي الآن دوري.. وخميلة لم تكن خاطئة أبداً، ولكن تائبة أبدية، تمشي أثناء النوم، وتفرش سريرها بالحصى والرمال، وتخدش الشهوات الكبيرة بجدارة، وتجرحها.

- هل هي عندك؟

أسأل في ضراعة والأم تجيب بلا تعثر في اللسان.

- نعم عندي.. ما هي الرسالة التي تحملانها؟

هنا يتقدم المصّاص بثباته الغريب، يخترع فقرة قد قهلكه وتهلكنا جميعاً، يصبح معالج السموم الضائع في ليل الموت، فجأة على لسانه الثابت، أميراً من أمراء الجهاد، جاء مرسلًا للتأكد من صلاح النعناع التي تحمل اسم خميلة أيضاً ولكن ربما لا تستخدمه هنا، وإن كانت تصلح حليلة للأمير مقهور المتقي، قائد الجيش الذي سيعود قريباً بعد أن يكتمل النصر، ويشير لي بأنني تابعه.. تلك اللحظة بالذات، انتهت على ضوء الفوانيس الخافت، إلى أن المصّاص كان يرتدي عمامة خضراء زاهدة، وكان قميصه أبيض لكنه ليس أبيض خالصاً، وإنما مطعماً بالرقع.. واتسعت عيناى دهشة.

تغيّرت ملامح الأم فجأة، لا أعرف إن كانت ملامح ذعر، أم ملامح تبجيل، تغيّر صوتها الذي كان تغريد عصفور، اخشوشن بشدة.. هدرت:

أعز الله الأمير وأكرمه.

ثم هرولت إلى الممر الذي خرجت منه.

لقد مرت الفقرة المهلكة بسلام كما بدا لي، وبرغم تفككها والكثير من نقاط ضعفها، لكن لا بد إن اسم مقهور المختل، هو الذي مررها من دون أن تتعثر بذلك الضعف.

كانت النعناعة في تلك اللحظة تقترب مني خارجة من الممر المظلم، بيضاء ورشيقة الخطى، ومتأنقة في ثياب زرقاء مطرزة بالأحمر، من ذلك الذي كان يباع في السوق الكبير.. يا إلهي كم صارت نحيفة، كم غيرتها أيام البؤس الطويلة منذ أن آويتها في سرداب المجد غير الآمن حين لمنا ما استطعنا له من بقايا المدينة، لتسبي غنيمة فارهة بعد ذلك.. وتشق طريقها إلى الكوايس. هل تراها ستحتفي بي بعد كل تلك الشهور، ولم أعد أعزباً متأنقاً، يدير ثروات الحكومة، يسكن حي كاهير الراقى، ويمتطي الفرس العَبَّار؟ ولا كانت تملك الثروة التي سأديرها ذات يوم.. هل ستضميني إلى قلبها القديم كما كانت تفعل سابقاً؟.. نسمي ولدًا ونسمي بنتًا، ونخطط المستقبل بخيوط الذهب.. أركض باتجاهها وقلبي ليس في صدري، ولكن في المسافة بيني وبينها.. أمد يدي لاحتضانها، وأحس بالفزع والدوار.. لم تكن في الواقع خيلة جماري التي ضعت من أجلها، وأبقيت خاتمها في أحشائي كل ذلك الزمن، ولكن امرأة أخرى مختلفة تمامًا، امرأة لم أرها من قبل أبداً لا في السور ولا في غير السور.. نعم حورية من حوريات الأرض بلا شك.. ولكن ليست خيلة جماري.

الفصل السابع

الشهيد

كانت خيمة الشهداء بلا شك، تلك التي كنت ممداً فيها على
برش ملوّن من السعف، لأن رائحة المسك كانت كثيفة، رائحة بخور
الصندل كثيفة أيضاً، وعلى مسافة مني على برش آخر، ثمة جسد آخر،
طويل وعريض، يملأ البرش ويفيض، يردد نشيداً مجلجلاً، ولا بد جسد
الشهيد جبريل لالو..

كان جسدي متصلباً بشدة، اليدان.. القدمان والبطن، عورتي
متصلبة وتمتز، وذهني خامل بغرابة، يحاول ترتيب المخازي منذ بدأت
خبراً غير مؤكد في خزي العين، وحتى هذه اللحظة، ولا يستطيع..
أحاول أن أقلب أو أنفض، ولا أستطيع، أحاول أن أقاوم طعم
الحميض الحلو المخلوط بالعسل حين يصب في حلقي، وأحاول أن
أنطق بكلمة أو كلمتين، ولكن أخالي بلا لسان. كان المصّاص باركاً
بقربى، يعجن لبخات النباتات الخضراء والصفراء والتي بلا لون،
يضيف إليها البصاق، ويلصقها بجسدي كله، وجهي وصدري وبطني
وإبطي وعورتي المتصلبة تحت الخرقة الممزقة.. يردد.. الحمى الفاجرة..
الفاجرة يا سيدي.. أرى القائد عبّادي طلسم واقفاً بجسده الفولاني
العريض، عيناه جمرتان ولكن شبه منطفئتين، ومسبحة الصوفيين،
تتجمد على أصابعه، أرى التقلاوي ديدام، مكتملاً في لوحة السيف في
الخصر والصقر أعلى الكتف، أرى جبار القرنين حلقاً مكوراً بلا
كارور، ومشرف الغسيل برهاني، مدججاً بنجوم القائمقام وصقوره،

أسمع اسم حملة البنفسجية يتردد بلا توقف، ولا أعرف إن كنت أنا
الذي أردده أم أحد آخر.. ينصرف القادة من أمامي، يهزون رؤوسهم
وينصرفون، وأرى دموع المصّاص واضحة على عينيه الضيقتين
المنفعلتين.. أراه برفقة عدد من الحراس الأشداء، يهشون قطعاً غريباً
من البشر، كانوا يتكالبون على جسدي، يحاولون أن يلحسوا كل بقعة
من الجسد المتصلب، وينهزم المصّاص، ينهزم الحراس.. يتقهقرون..
وأتمزق تحت أسنان القطيع.

توترات القبطي رواية



أمير تاج السر

• روائي من السودان

صدر له أيضاً:



أمير تاج السر
مهر الصياح

رواية

كانت خطواته كبيرة وممتدة، ذيل عمامته
يلحس الرمال ويصقها أمامي، ثوبه
الأخضر يبدو باهتاً وفيه رقع كثيرة، وكان
الجنود مبعثرين في وسط الخيام، يصقلون
سيوفهم وحرابهم على صخور مدببة، جلبت
من الجبال البعيدة، وزرعت في وسط الرمال،
يتأكدون من صلابة دروعهم المصنوعة من
الخشب والنحاس والحديد، بضربها بعضها
ببعض، أو يعلمون قلوبهم الثبات بعراك
أنفسهم بالأيدي والأرجل ونطح الرؤوس،
وهم يتصايحون، ويرددون أغنيات الحماس
الفجة. وفي طرف بعيد من المعسكر، كانت
الإبل والحياد والحمير، وقطعان الخراف
والماعز، ترعى في بقايا حشيش خريفي، ثمة
مدفعان رابضان على دكة عالية، وعدة براميل
من البارود وسيوف وحراب مكسرة،
وبنادق، لابد كانت من غنائم المدينة التي
حوصرت وسقطت. والمدينة نفسها كانت
تبدو كحلم بعيد، بالرغم من وجود معسكرنا
في أحد أطرافها.

مكتبة نوميديا 60

Telegram@Numidia_Library

لوحة الغلاف للفنان فيصل تاج السر - تصميم الغلاف: سامح خلف

ISBN 978-9948-446-03-3



9 789948 446033



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

جميع كتبنا متوفرة في موقع www.neelwafurat.com أكبر مكتبة عربية على الإنترنت